# تولستوي

## قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا
## قديمه وحديثه

تأليف

محمود الخفيف

الكتاب: تولستوي.. قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

الكاتب: محمود الخفيف

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

**http://www. bookapa.com** **E-mail: info@bookapa.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الخفيف ، محمود

تولستوي.. قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

/ محمود الخفيف

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٩٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٠٠٩ – ٩٩١ – ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٩٢٩ / ٢٠٢٠

# تولستوي

## قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

# مقدِّمة

## صفحة من كفاح أديب كبير

هذه الدراسة كتبها الدكتور مُحَمَّد رجب البيومي بعد وفاة الأُستاذ محمود الخفيف سنة ١٩٦١، وقد رأينا نشرها في مُقدمة الكتاب تعميمًا للفائدة وتعريفًا بالمؤلف.

اهتزت الدوائر العلمية والأدبية لنبأ موت الأُستاذ محمود الخفيف فجأة وهو يُؤدي واجبه في مدرسة الإبراهيمية الثانوية، ولم تقم الصحافة اليومية بما كان ينبغي لرجل خدم الثقافة، وعمل في الصحافة، وكان أُنموذجًا حيًا قويًا سليمًا للمصلح الأديب المؤمن المتدين.

كان الأُستاذ الخفيف صاحب رسالة في دنيا الأدب والفكر، فلم يكن ليكتب كلمة واحدة لا تهدف إلى مثل رائع، أو تكشف حقيقة مطموسة، وإذا أردت سمة بارزة لأدبه، فتلك هي البطولة، بطولة الرأي حين يواجه بحقه الساطع فلول الباطل فيقهرها في اعتزاز، وبطولة الفكر حين ينزع إلى القمم الشامخة في دنيا الإنسانية، فيرفرف في أجوائها، ويستلهم منازعها وأهواءها، وبطولة اللفظ حين يؤثر التركيب الحر، والتعبير الموحي المشع، فيعرضه في موكب من البلاغة العالية، وبطولة الإحساس حين يتجه إلى تصوير أدق منازع الضمير الحي، وأرقى خلجات الروح المتوثب، وأخفت همسات الشعور النبيل في شعر صاف ينحدر كالماء!! لقد كان الرجل مُؤرخًا وكاتبًا وشاعرًا، وفي كل ناحية من نواحيه يستفيض القول، ولن نقدر على استيفائه إلَّا باقتضاب طائر يهدي الكتاب!! إلى آثاره، ولعلهم يُطالعون.

ترك الأُستاذ الخفيف في سجل التاريخ مُؤلفات حية خالدة؛ لأن الكاتب لم يعمد إلى بعض الحوادث التاريخية ليُؤلف منها كُتبًا مُكررة، مُختلفة الأسماء فقط، كالتي تملأ رفوف المكتبات، ولكنه كان مُخلصًا أمينًا في تحقيقه، فقد نظر إلى مواضع الخطأ المغرض، والاتهام الزائف، فجعل منها مضمار تفوقه. وميدان تبريزه، مُتعرضًا في سبيل

ذلك إلى خصومات قاهرة عنيدة، ومُتحديًا بها سلطات طاغية رهيبة، تعمل على تلبيس الحق بالباطل، وتتخذ لذلك من بعض الأقلام مطايا عليلة الضمائر، مريضة الإيمان فتركبها ببريق المنصب، ووهج الذهب، لنفتري بها على البررة من زُعماء الأُمة ما يطمس صحفهم البيض!! ثم لا تقتصر الخباية النكراء على هؤلاء الزُعماء، بل تتعداهم إلى الأُمة المسكينة فيصفونها بالغفلة والانحطاط وقد ألقت زمامها في أيديهم، واستجابت إلى هواتف الوطنية، ونوازع الكرامة والإباء.

ماذا كان التاريخ يقول عن أحمد عرابي قبل أن يخط عنه الخفيف مؤلفه الجريء؟! كان أكثر الناس يظنون بوحي من هذه المطايا المسخرة في الصُحف والمؤلفات أن الزعيم الأبي مثال الحمق والنزق والرعونة، وأنه السبب الأول في الاحتلال والهزيمة، فلولا ثورته ما أتت إنجلترا إلى مصر!! ثم يزيدون فيصفونه بالجهل والدروشة وحب المجد الشخصي، بل يصمه كثير منهم بالخيانة – خيانة وطنه لا توفيق – !! حتى أن أعظم قادة الأُمة من الكتاب والشعراء قد انساقوا إلى هذا البهتان، فأحمد لطفي السيد يزعم في الجريدة أنه قام بثورة لا داعي لها ولا قيمة! وشوقي يرسل القصائد المخزية في سب العصاة والمرقة الثائرين! ولك أن تتصور بعد ذلك ما يقوله الأذناب والأبواق! ومن يجرؤ على أن يثبت للزعيم حسنة شفعها بعشرات المآخذ! وشبح القصر يلوح لعينيه في كل كلمة تُقال، حتى جاء الخفيف في سطوة فاروق وطغيانه فسطر كتابه الوطني لينصف به البريء النزيه! فإذا عرابي البطل المعلم المفترى عليه، وإذا الأُمة تسترد كرامتها وتغسل عنها وضر الجهل والغفلة حين نابعت هذا البطل عن يقظة واختبار، وقد شرحت في عدد شوال سنة ١٣٨٠ من مجلة الأزهر كيف قامت السفارة البريطانية وقعدت لمواجهة الخفيف إنجلترا بما أسلفت من خيانة واعتداء، وكيف زمجر القصر وغضب الأمير على مجلة الرسالة فأوقفا بسلطة الحكم العرفي سلسلة البحث المتصل! حتى أُتيح له أن ينشر كاملًا في مجلد ضخم خاص! وعرف الناس عرابيًا على حقيقته طاهر السريرة، مُخلص العقيدة رائع ا لزعامة عظيم الدفاع!

لو لم يكن للباحث المؤرخ غير هذا العمل البطولي الضخم، لكان في طليعة المفكرين الأحرار، ولكن له معه أعمالًا مجيدة هادفة، كانت مع دقتها العلمية ذات وحي وطني رائع، إذ أن القلم الذي حشد جهوده لدرء السبة الشنيعة عن وطنه المصري، في شخصية زعيمه أحمد عرابي، قد شاء أن يفتح عيون بني قومه على آفاق جديدة تشرق بالحرية وتهب منها نسمات الكرامة والاستقلال، حين كتب مُجلدين كبيرين — لأول مرة في اللغة العربية — عن سيرتي ابرهام لنكولن، وتولستوي، وهما يختلفان نشأة ونبوغًا؛ فالأول عصامي باسل أنضجته نار الحرمان والفاقه، ولكنه شق طريقه إلى الزعامة مُتسلحًا بمواهبه الشخصية ومُكافحًا شتّى أعاصير الرجعية والاستغلال والعنصرية حتى استطاع أن يسعد الإنسانية بعامة، حين عمل على تحرير العبيد، وتحقيق المساواة العادلة في معشر يتهارشون على الغنائم المغتصبة والذهب المتجمد من عرق الكادح، وجهد الزنجي وبؤس العبد، فكان بحياته المكافحة علمًا من أعلام الحرية ودرسًا ناجحًا للكرامة يجب أن يعلمه قارئو العربية لينهض من بينهم من يعتنق مبادئه فيذود عن حوضه ويحمي حمى أجداده!! هذا لنكولن، أما تولستوي فقد نشأ أرستوقراطيًا يحمل لقب الكونت ويتقلب في أعطاف النعيم والدعة والجاه، ثم نأى عن طبيعة طبقته، فعشق المعرفة والثقافة، ووهب الإحساس الرحيم والشعور النبيل، فانقلب إلى زاهد مصلح وكاد بمبادئه أن يكون نبيًا، إذ تنازل عن ضياعه الشاسعة لذوي الفاقة والكدح من عبيد الأرض، وخدم السادة، وعاش عيشة الفلاح المسكين، والزاهد القانع وقد اجتاحت نفسه عواصف مُدمرة من الشك المقلق، والسهد الثائر، فانقطع بنفسه قرابة عشر سنوات للتفكير في الدين والبشر، ونفض يديه من الأدب والإبداع حتى اتجه زورقه إلى ساحل الإيمان بعد أن حاول من الريب الحالكة أمواجًا ذات بطش وجبروت، وصار الفيلسوف بزهده وإيمانه وأدبه من ذوي الرسالات الخالدة في دنيا البحث والإصلاح، ومثله في أهدافه الرائعة جدير أن يكون درسًا آخر لقراءة العربية كلنكولن سواء بسواء!! وفي اعتقادي أن الذين قرءوا كتب الخفيف الثلاثة عن عرابي وتولستوي ولنكولن قد وجدوا فيه مُؤرخًا من طراز نادر،

فهو مع حرصه على الحقائق وتتبعه المنهج العلمي في البحث والاستنتاج، ذو أُسلوب مُشرق ينفح بشذى الإبداع، ويزرع في صحراء الحقائق ورودًا زاهية من الصياغة الفنية والإلهام العبقري، حتى ليخيل إليك وأنت تُطالع آثاره التاريخية أنك تُتابع قصة مُؤثرة لا أنك تقرأ بحثًا قامت معالمه واستوت مناحيه!! وبعض النُقاد يظنون بين التاريخ والأدب مُجافاة مُنكرة، فلا يرحبون بجهد علمي يتشح بمطارف الأدب، وقد تعرض إنتاج الخفيف بعض المآخذ الموهومة حين اتجه إلى تقويمه ناقد شهير هو الدكتور زكي نجيب محمود، فأخذ عليه في بعض أعداد مجلة الثقافة شيئين هامين في رأيه، أما أولهما فهو ما سماه، اتحاد المدرك بالمدرك، وأما الثاني فهو تفكير المتمني، وكلا المأخذين موجه بالذات إلى كتاب أحمد عرابي، وكأني بالدكتور وقد لمس حرارة الدفاع وقوة العاطفة وروعة الصياغة في أُسلوب الخفيف، فظن في ذلك ما يجور على الحقيقة، والرجل صاحب فلسفة لا تاريخ، وكان عليه أن يعرف أن طبيعة الدفاع عن زعيم أمين يرمى بالخيانة عن مكر أثيم، تقتضي هذا الإخلاص الحار، وتدفع ذي الجفاف والدقة أن يفيضوا ببعض مشاعرهم في إيضاح الحق وقد تلاحقت حوله الستور والأسداف، فالمدرك هنا لم يتحد بالمدرك حين بدد عنه كثيرًا من الاتهامات، ولكنه استعرض الحقائق الثابتة واستنطقها عن حصافة ويقظة، فنطقت بفضل الزعيم وسموه، وأخشى أن يكون الدكتور الناقد ممن يحتمون على المؤرخ أن يستعلي على مُترجمه، فيذكر نصيبًا من مآخذه يُضارع ما أسلف من محامده، فإذا لم تكن لديه مآخذ تُذكر، اخترعها اختراعًا لتتم عملية الإنصاف، وقد بدد الأُستاذ العقاد هذا الوهم حين قال في مُقدمة كتاب (عبقرية عمر ص ٥) «فالناس قد تعودوا ممن يُسمونهم بالكُتاب المنصفين، أن يُحبذوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا في الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يُكافئها، ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تُعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتميز، عرض لي ذلك فذكرت قصة العاهل الذي تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة في عقار يختلفان على ملكه، فحكم القاضي للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل في مُحاسبة الملوك» ا هـ.

أما تفكير التمني فلا ظل له إطلاقًا بين سطور الكتاب، وهو مأخذ لو ثبت لنفى عنه صبغة البحث التاريخي، ويكفي هنا أن نُسجل شهادة أديبين كبيرين تمحوان ما قام بذهن الناقد عن تخمين وحدس لا عن بحث ويقين، قال الأُستاذ العقاد عن كتاب أحمد عرابي، في افتتاحية العدد (٧٧٩) من الرسالة:

«تقرأ الكتاب إلى صفحاته الأخيرة فتخرج منه بهذه الصورة الصحيحة التي ارتسمها المؤلف، وثبت ظلالها وألوانها بالوقائع والأسانيد، وجمع لها من الوثائق مالًا غنى عنه في فهم هذا الزعيم، ولا في فهم مصر الحديثة وعوامل نهضتها، ودخائل تاريخها في الجيلين السابقين.. وليس تمحيص التاريخ المصري ولا تمحيص الزعيم المصري كما ما يُستفاد من قراءة كتاب الأُستاذ الخفيف، فإن أساليب السياسة الأُوربية والاستعمار الأُوربي في القرن العشرين بعض ما يُستفاد من هذا الكتاب الذي يعد في بابه قليل النظير».

وقال الأُستاذ أحمد حسن الزيات عن الكتاب أيضًا في افتتاحية العدد (٧٣٤) من الرسالة:

«ومن حيث الطريقة قد اتخذ المنطق ميزانًا يأخذ به ويعطي، فهو يروي بالنص الصريح، ويدعي بالدليل الناهض، ويقنع بالحجة العالية، ويستقري فيحسن الاستقراء ويستنتج فيجد الاستنتاج، ثم جعل همه مُنذ اللحظة الأُولى بتبرئة الجندي الثائر، فسلسل الوقائع والفصول سلسلة المقدمات الصحيحة، ثم خرج منها بالنتيجة التي لا موضع فيها للشبهة».

الحق أن الخفيف باحث جريء لولا قوة إيمانه بربه، وصدق يقينه بوطنه، ما أقدم على هذا العمل البطولي الممتاز، ولو كان لدينا وعي حقيقي لقيل ذلك وأكثر منه في وداع الراحل العزيز.

وساضطر مُعجلًا أن أترك جُهده في الحقل التاريخي فلا أتناول بحوثه عن مزيني الإيطالي وبيرون الإنجليزي وميرابو الفرنسي وشريف الشرقاوي المصريين وعقبة بن

نافع العربي لأتحدث عن جُهده في الكتابة والشعر، فقد كانت كتابته الأدبية ذات وجهتين ذاتية وموضوعية، والأُولى تتجه إلى المجتمع المصري اتجاهًا ناقدًا، فقد وضع الخفيف منظاره على عينه، وطفق يبصر ما حوله من أوضاع مريضة، فرأى من المفارقات والغرائب ما يدعو إلى التسجيل. وكم كان يمض نفسه أن يشهد مواقف الرياء والملق، ومواكب الغرور والادعاء، ومظاهر التجبر والتسلط، فيشعر شعور الإنسان النبيل وينعكس شعوره فيما يكتب فلا تكاد تُطالع موضوعًا من موضوعات كتابه (من وراء المنظار) حتى تدرك ما يغمر حلق الكاتب من مرارة لاذعة، والكتاب أَشبه بقصص صغيرة مُتلاحقة تُصور كل أقصوصة مشهدًا من المشاهد المفاجئة. فهذا وكيل نيابة يريد أن يعرف الناس سلطته القانونية، وذاك مُدير مصلحة لا يرضى بغير التذلل والخنوع من مرءوسيه، وهم من حوله يُبالغون في انتشائه الموهوم، وذلك شرطي جامد الإحساس يُعامل الإنسان والحيوان مُعاملة تتحد في القسوة والإذلال!! ومن الواضح أن أمثال هذه المشاهدة المألوفة تراها العين العابرة فلا تتأثر بها غير لحظات محدودة! ولكنها حين تصور بقلم كاتب كمحمود الخفيف تترك من الأثر ما لا يُمكن أن يزول دون عناء وتفكير؛ لأن تسلسل الخواطر، وتصوير الانفعالات، وحتمية النتيجة، تُجسد لخيال القارئ ما لا يجسد المشهد الواقعي، ومن الطريف أن أحد فصول الكتاب يتحدث بإكبار سار عن رئيس فراشي المدرسة التوفيقية الثانوية إذ رأى فيه الكاتب عن ضآلة وظيفته صورة للرجولة الحازمة، والعزة المترفعة، والكرامة الأصيلة مما افتقده في مديري المصالح الكبيرة ورؤوساء الأعمال الهامة فلم يجد ظلًا منه، فكان رئيس فراشي المدرسة مثلًا صالحًا للاحتذاء.. وقد قلت إن كل مشهد من هذه المشاهد أشبه بأقصوصة فقط، ولكنه ليس بأقصوصة فنية، ولا أدري لماذا لم يشأ الكاتب أن ينهج في تصويره نهج القصة الأدبية، مع قدرته التامة على ذلك، إذ أنه قدم لي في بعض إنتاجه بمجلات الرسالة والرواية والرائد قصصًا مُكتملة تحمل عناصر الأُسلوب الروائي، وإن كاتبًا ملهمًا يجعل من التاريخ أدبًا. لقمين أن يجعل من القصة عجبًا! وأستشهد هنا بقصته الرائعة (عفراء الغجرية) وأخواتها كثيرات، كدليل على

توفيق الفني وإبداعه القصصي، فقد أحكم المشاهد إحكامًا لا تنقصه قراءة الخواطر واستشفاف النوازع، أما حلاوة التصوير وعذوبة التعبير فمما لا يستغرب من شاعر موهوب!! أقول من يدري لعله لم يشأ أن ينهج منهج القصة في كتابه (من وراء المنظار) ليكون أدخل في باب الواقعية المباشرة، إذ أن القصة توحي إيحاء ظاهرًا أَو مُستترًا، أن الخيال قد جمع بين حقائق مُتباعدة وربطها برباط يجعل واقعيتها متوقعة لا واقعة: أما المشهد المجرد فينطق بصدقه الصارخ دون ستار، وهذا كلام قد يختلف فيه النظر لإيجازه المحتوم، وليس هنا مجال النقاش!!

أما الوجهة الموضوعية لدى الكاتب الأديب فتبدو في دراساته الفنية للأُدباء، ومذاقه الوجداني للقصائد، وأصدق شاهد عليها دراسته الطويلة الممتعة للشاعر الحزين (ملتون)، فقد تابع أدوار حياته مُتابعة يقظة، وحلل عناصر شعره تحليلًا بصيرًا ثم خلص إلى مأساته الإلهية ففهم عناصرها الفاجعة من إنتاج الشاعر قبل روايات مؤرخيه، ووقف لدى فردوسه المفقود موقف الشاعر من الشاعر، فرأى ما لا يرى الناقد المتقيد بحدود واصطلاحات، ولا يزال ما كتبه الخفيف عن (ملتن) منسابا في أعداد الرسالة الغراء دون أن يجمع في كتاب، وربما كان كتابه عن تولستوي صورة مُتقاربة منه في المنهج والطريقة، إلَّا أنه أدخل في كتب الدراسات الأدبية من كتاب تولستوي التاريخي لذلك أعتبره مثالًا للوجهة الموضوعية في الدراسة التحليلية دون كتاب الفيلسوف.

ويطول بي العجب إذ أنظر إلى شعر الخفيف فأجده دون ما يستحق ذيوعًا واشتهارًا، مع أصالة منهجه، وصفاء نبعه، ورونق تجديده وربما كان تعليل ذلك نبوغه في أكثر من ميدان فإن الذين يتفرغون للشعر وحده ينحصر اشتهارهم في مجاله، فيعرفهم القراء بقصائدهم وحدها، أما سواهم من الكاتبين الشاعرين فلا يجدون الالتفات الكافي من القراء، وإن سبقوا سواهم من المنفردين جودة قريحة وفيضان عاطفة، وخصوبة إنتاج، ولن أذكر العقاد وحده في مصر، بل أذكر معه المازني وفخري أبا السعود وعبد الرحمن صدقي، وطاهر الطناحي، وزكي مُبارك ومحمود الخفيف

وسواهم من فطاحل المجددين! على أن شعر الخفيف قد منى بشيء آخر ضاءل من روايته لسوء حظه وكان أحرى بذيوعه، ذلك أنه متنوع الأوزان مُختلف القوافي، فشطوره تارة مجزوءة وتارة كاملة أو منهوكة في القصيدة الواحدة، وقد فاجأ الناس مُنذ ثلاثين عامًا بهذا النوع المبتكر فحسب عليه لا له، فأنت تقرأ مثلًا قصيدة (على قبر زوجها) فتجد بها من صدق العاطفة وحرارة اللوعة وقوة النظرة ما يرفعها إلى مستوى مُشرف، ولكن اختلاف أشطارها بين كاملة ومجزوءة مع اختلاف القافية أيضًا قد باعد بينها وبين النغم المألوف في وقت كان فيه للشعر الكلاسيكي دعاته المثابرون، وإذا كنا الآن قد ألفنا هذا التنويع وزنًا وقافية بل طرأ علينا غيره مما لا ندري بماذا نسميه، وانطلق الدُعاة له يلهجون به في كل نادٍ وصحيفة، فإن الخفيف حين نوع الأوزان مُنذ أكثر من ربع قرن كان يخطو الخطوات الأُولى بعد وثبة المجددين الابتداعيين، هذا من ناحية الشكل، أما من ناحية الموضع فقد فتح الأُستاذ للشعر العربي أبوابًا رحبة حين أكثر من الروائع التاريخية في أعداد الرسالة الممتازة فسجل بطولات مُحَمَّد والحسين وجعفر بن أبي طالب وصلاح الدين الأيوبي وأحد شُهداء فلسطين في قصائد طويلة تبلغ إحداها ثلثمائة بيت مطرد النسق مُتدفق الإلهام ساطع الرواء. كما أن أشعاره الوصفية في تصوير الطبيعة قد أخصبت الحقل الشعري. ولقحت أشجاره بلقاح إبداعي جديد، فالليل والبحر والفجر والحقل اوالحصاد والربيع والخريف والشتاء، والصبارة الحزينة، والشجرة العارية وما إليها من روائع المشاهد قد وجدت انطباعها الصادق في مرآة الشاعر، وظهرت على صفحات الرسالة تتخايل في معارض زاهية من الرونق، وكثيرًا ما كانت تقرن بصور طبيعية لأشهر فناني الطبيعة في الغرب فيرى قارئ الرسالة اللوحة البصرية تُجاوز اللوحة الشعرية في تعارف حبيب يدفع إلى الموازنة حينا، والإعجاب الصامت حينًا آخر، ويخيل إليّ أن مطران رحمه الله قد أثر في اتجاه الخفيف نحو القصة الشعرية، إذ حذا حذوه في مثل قصائد وداع، وعند الثلاثين، وفي الطريق إلى يثرب مع الفصل التام بين العبقريتين، فمطران عميق قوي تتخلل أبياته رصانة محكمة تميل بها إلى الشدة

والأسر، ومحمود رقيق ناعم تموج مشاعره في غدير هادئ شفاف، وقد تجد سعة مطران، وبُعد منزعه وعمق تحليله في النادر من شعر الخفيف، ولا أزال أذكر قصيدته «أيتها الابتسامة» تلك التي تشخص بريق الابتسامات المختلفة، فتعرف شعاع كل بسمة ومصدره، فبسمة الذل غير بسمة الشمات غير بسمة الرياء غير بسمة الفرح غير بسمة التهكم، وإن كان لكل بسمة بريق يتحد مظهرا ويختلف تأثرًا وانعكاسًا، وكم كان يسرني أن أذكر هذه القصيدة في مجال الاشتهار، ولكن القارئ الطلوب سيعثر عليها بسهولة في العدد (٦٠٠) من الرسالة، ونحن نهيب بمجلس الفنون والآداب أن يلتفت إلى ديوان الشاعر فيأمر بطبعه أسوة بمن طبع دواوينهم من الشُعراء، وأكثره بمجلات الرسالة، وأقله بمجلات الرائد. وكلتاهما تحتل المكتبات العامة فلن يتعب من يريد النشر والطبع، ولكنه سيغنم الشكر والتقدير، ولعلّ كلمتنا هذه تكون عزاء مُتواضعًا لمن قرءوا الخفيف وعشقوه، وهي أيضًا إجابة مفحمة عن سؤالنا المتقدمِّ، هل من وعي أدبي؟ وفيها المقنع السديد.

د. مُحَمَّد رجب البيومي

# مقدّمة الكتاب

قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه، ذلك أصدق ما يُوصف به تولستوي في جُملة، قرأت أَول ما قرأت لهذا المارد الجبار قصته الكبرى «الحرب والسلام»، ثم قرأت بعدها قصته «أنا كارنينا»، فإذا بي منهما حيال حياة بكل ما في الحياة من حركة ومعنى لا حيال سطور على ورق.. وأحسست لأول وهلة سر العبقرية يستعلن في كل صفحة، وذلك في صورة من التعبير تقرأ ولا توصف، فهي تدق عن كل وصف، وتتسع عن كل تحديد، وتسمو عن أن تُسمى بالفن فحسب، ولا عجب أن سلم أكثر النقدة أنهما أعظم قصتين في القرن التاسع عشر، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن أولاهما أعظم قصة في أدب الدنيا كله، ولقد جمع تولستوي فيهما بين الحياة الإنسانية بوجه عام وبين الحياة الروسية بوجه خاص، وذلك في صورة لا تتيسر إلَّا لمن كان له مثل عبقريته وأَصالته.

وحملني إعجابي بالقصتين على قراءة آثاره جميعًا، ثم دفعني هيامي بتلك الآثار إلى مصاحبة هذا الساحر العظيم، فقرأت حياته في أكثر من كتاب مُفصل، فإذا هي كقصصه حياة متشعبة الجوانب بالغة الروعة، فهذا الرجل الذي يحمل لقب «الكونت» يتخذ مثله العُليا من حياة الجماهير، ثم إن هذا الأبيقوري الشاب ينقلب إلى زاهد مُصلح فيصل إلى مرتبة تجعله أسمى من أَن يكون مُصلحًا وأدنى من أن يكون نبيًا، ثم إنك ترى فيه المفكر الفيلسوف، والشاعر المتخيل، والمؤمن المبشر، والمتشكك المنكر، والأرستوقراطي المتعالي، والفلاح المسكين، وإنك لترى آخر الأمر هذا الكونت العظيم الثراء وقد بلغ في قومه مكانة لم يتعلق بها وهم أديب قبله، وبلغ في العالم منزلة لم يتبوأ مثلها إلَّا الأفذاذ القلائل، يهرب من بيته في الثانية والثمانين من عمره رغبة منه في أن يقضي أيامه الأخيرة في عزلة وفي فاقة.

ولم يكن تولستوي رجل فن وداعية إصلاح اجتماعي فحسب، بل كان كذلك مُصلحًا دينيًا، فقد انقطع للتفكير في الدين وما يتصل به ما يقرب من عشر سنوات مُنذ أَن فرغ من كتابة قصته أنا كارنينا، وكان إذ ذاك في أواخر العقد الخامس من عمره، ولقد نفض يده من الأدب ليتفرغ لما كان يشغل باله، بل لقد صرفه شكه وحيرته عن كل شيء، الأمر الذي أزعج ترجنيف وأحزنه، فقد مضى على صاحبه نحو خمس سنوات مُنذ أَن هجر الأدب، فكتب إليه ترجنيف وقد أحس في نفسه أنه يدنو من الموت يُخاطبه بقوله «يا شاعرنا العظيم، يا لسان هذه الأرض، أَرضنا الروسية، عُد إلى الأدب فهو موهبتك الحقيقية، اسمع توسل رجل يموت».

ولم يعد تولستوي إلى الأدب إلَّا بعد أن خلص من شكه وعاد إلى إيمانه، فأضاف إلى شخصيته جانبًا عظيمًا، جعل له مثل مكانة الأنبياء وإن لم يكن نبيًا.

وتأثر عصره أكبر التأثر بفنه، وبآرائه في الاجتماع، وبتعاليمه في الدين، وامتد به العمر فزاد ذلك في مكانته حتى صار مفخرة روسيا الكُبرى، وحتى سلكه النُقاد في القلة الأفذاذ من قادة البشرية.

رجل هذه مكانته، يهون كل جُهد في سبيل درسه وتقديمه لأبناء هذا الشرق بلسان عربي، وما أحسب ما كتب عنه في العربية حتى اليوم إلَّا دراسات قصيرة لا تحيط بجوانب حياته، والذين يقرأون غير العربية قد يصعب عليهم أن يجدوا بغيتهم في كتاب واحد، ولعلي بهذا الكتاب، قد يسرت لهؤلاء وهؤلاء سبيل معرفتهم بتولستوي، ولعل في شبابنا النواهض من يُشمر لإتمام ما عسى أن يكون في هذا الكتاب من نقص، ثم لعل في أُدبائنا من يحب تولستوي إذا درس حياته حُبًا يجعله ينقل إلى العربية أَهم آثاره، فما يجدر أن تبقى لغتنا خالية منها حتى اليوم، يومئذ أجدني بلغت بكتابي هذا ما أردت، ويومئذ أَجد العوض خير العوض عمّا عانيت من جُهد وعمّا بذلت من وقت.

محمود الخفيف

# طفولة ونسب

أَطل من نافذة قصر أَنيق على مُرتفع في ضيعة يا سنايا بوليانا الجميلة، طفل في الخامسة من عمره، وقد أَعجبه ذلك المنظر البهيج من حوله، ذلك المنظر الذي ألفته نفسه، وباتت تأنس به روحه، ويتعلق بجماله حسه.

كان الطفل يمد عينيه الصغيرتين الحالمتين إلى كل ما يحيط به، إلى الغابات التي تتناثر هنا وهُناك، وإلى النهر الذي تتثنى صفحته بين هاتيك الغابات فيظهر لعينيه من بين الخمائل، تحيط بها على مقربة من النهر برك صغيرة وأُخرى كبيرة، وتبدو كنيستها المتواضعة بجانب الأكواخ والعشش الصغيرة المبنية من الطين وجذوع الشجر، والتي يفصل بينها طريق عريض هو طريق القرية الرئيسي، ثم يمد الطفل عينيه إلى ذلك الطريق البعيد الذي سمع عنه فيما سمع أَنه ينتهي عند مدينة تولا على مسافة عشرة أميال إلى الشمال، وهي مسافة يُصورها له خياله طويلة بعيدة، وكم يتمنى أن يرى مدينة تولا هذه التي يسمع عنها وعن حياتها الشيء الكثير. وثمة طريق آخر يمتد إليه بصره هو الطريق المؤدي إلى كييف، تلك المدينة التي يذكر اسمها الناس في احترام وتقديس، والتي يتقاطر إليها الحجيج مارين بضيعة أبيه في هذا الطريق القديم.

وإذا رد الطفل بصره وقع على الطريق المنحدر من القصر، تحيط به أشجار الليمون ويقوم على جانبي مدخله برجان أبيضان جميلان. ولم يكد يتحول الطفل ببصره عمّا يرى حتى مشت في صفحة وجهه سحابة خفيفة من الهم، فقد تذكر أن عهده باللعب قد انتهى كما أخبرته العمة تاتيانا، وأنه من غده سيدخل حجرة الدراسة كل يوم في ساعة مُعينة من النهار فلا يبرحها إلَّا متى شاء مُعلمه أن يطلقه.. وهو مُنذ تلك السن يكره القيود كُرهًا شديدًا، فكيف يطيق حجرة الدراسة ويطيق أن يأتمر بما يقضي به المعلم؟ ذلك ما كان يكرب نفسه الصغيرة، بعد أن أخذ ذلك

المنظر بمجامع عينيه، فهو يطل على مسارح لعبه ومجال حريته تحت هاتيك الخمائل، وفي فناء ذلك القصر.

ولكن الصبي يعود فيذكر أن لا بأس من حجرة الدراسة وما فيها؛ أو ليس معنى غدوه إليها أنه يغدو كبيرًا فيقرأ ويكتب كما يقرأ إخوته ويكتبون؟ فلا يدل عليه أحدهم بشيء ينقصه ولا حيلة له في هذا النقص، ولا يُفاخره منهم أحد بكُتبه ودفاتره، فسوف تكون له كُتب ودفاتر، وتطب نفس الصبي بهذه الأفكار فهو يكره أشد الكره أَن يتفاخر عليه أحد، أو أن يشعر أنه دون من يحيطون به. وكثيرًا ما دمعت عيناه غيظًا إذ يرى لغيره من دواعي الفخر ما ليس له، وهو سريع البُكاء إذا غيظ لأنه لا يحب أن يغيظ أحدًا. فليقبل إذًا على حجرة الدراسة في غير نكد، بل ليقبل عليها في ارتياح. هكذا تُوحي إليه كبرياء روحه الصغيرة، وإنه مُنذ صغره لذو كبرياء، وإن كان إذا غضب سريع البُكاء.

وكان للطفل واسمه ليو، ثلاثة إخوة أكبر منه، وأُخت هو أكبر منها. أَما إخوته فهم: نيقولا وكان يكبره بخمسة أعوام، وسيرجي وكان يكبره بعامين ونصف عام، وديمتري وكان يكبره بعام وأربعة أشهر، وأما أُخته فهي ماريا، وكانت دونه بسنة ونصف سنة.

وكانت تعيش مع صغار الأُسرة بنت ليست منها، وهي بنت سفيحة لأحد الأصدقاء المقربين من عميدها، وكان أبناء الأُسرة يحسنون مُعاملتها كما لو كانت أُختًا لهم، وماذا تصنع غير ذلك نفوس بريئة كهاتيك النفوس التي لم تدر بعد لؤم الحياة؟

هؤلاء هم أفراد الأُسرة الصغار، فأما الكبار ففي مُقدمتهم أبوه، ثم تأتي بعد أبيه العمة تاتيانا، ولم يعرف الصبي مُنذ بدأ إدراكه أمًا له غيرها، فقد ماتت أُمه كما يذكر أحيانًا أخوه نيقولا في همس وحزن، عقب مولد أُخته الصغيرة بأيام.

وهُناك جدته لأبيه وهي تعيش في هذا القصر مُنذ مات زوجها، ثم عمته ألين التي جاءت لتعيش في حماية أخيها بعد أن أُصيب زوجها بالجنون، فقد بلغ به الجنون

أن أطلق الرصاص ذات يوم على صدرها. وكانت ألين هذه عمته حقًّا، أما تاتيانا فكان يُناديها بالعمة كما يفعل إخوته، ولكن نيقولا يفهمه ذات مرة أنها ليست عمتها فهي ليست أُختًا لأبيهما، فيعجب ليو لماذا إذًا يدعوها الجميع عمتهم، ولا يدرك مكانها من أبيه ولا موضعها من الأُسرة، ولعل نيقولا كذلك لم يكن أقل منه جهلًا بهذا الأمر. وكيف يتسنى له أن يعرف أن أباه أحبها في صدر شبابه وأَنها أحبته ولكنها أفسحت له الطريق ليتزوج بسيدة غنية يصلح بثروتها حال معيشته، إذ رأت منه هذا الميل على الرغم من حبه إياها حُبًا وثقت منه، وكانت تلك السيدة الغنية هي أُمه، فلما ماتت أُمه عاد أبوه يطلب يدها فرفضت أن تتزوجه ولكنها وعدت أن تكون أُمًا أُخرى لبنيه، وها هي ذي تبر بوعدها فتكون لهم أُمًا في مكان أُمهم.

لم يكن يعرف ذلك نيقولا مُفصلًا هذا التفصيل فما يجدر أن يتحدث إلى الأطفال بمثل هذه الأُمور، وحسب أُولئك الأطفال أنها تحبهم وأَنهم يحبونها حُبًا شديدًا، وعلى الأخص ليو، فقد كان شديد الحب لها قوي التودد إليها.

على أن عطف العمة تاتيانا عليه لم يشغله مُنذ هذه السن الباكرة عن التفكر في أنها ليست أُمه، وإن كان يرى منها مثلما يرى الأطفال من أُمهاتهم، وإنه ليسأل نفسه أين أُمه؟ لقد ذكر له نيقولا مرات أنها ماتت، وإنه ليرى على وجه نيقولا أمارات الغم كلما أشار إلى ذلك، ويرى كذلك دلائل الرهبة والألم. فما هذا الموت الذي حرمه من أُمه؟ إن خياله يُصوره له شيئًا كريهًا مُخيفًا وإنه ليخاف من اسمه وينفر، ولكنه لا يدري ما هو.

وإن الطفل ليرهف أُذنيه كلما تحدث مُتحدث عن أُمه، ولئن كان يحزنه بِأَنه لم يرها فإنه يطيب نفسًا بما يسمع من صفاتها والثناء عليها، وإنه ليجد من عطف عمته تاتيانا ما يُخفف حُزنه، ثم إنه ليزداد حُبًا لهذه العمة كلما سمعها تذكر بالخير أُمه، وتظهر الأسف على فقدها بكلماتها أو بما يبدو من صور الهم على ملامح وجهها.

وتقع عينا الطفل في القصر على عدد من المربين والمربيات، ومن الخدم على

اختلاف مراتبهم وتنوع أعمالهم، ويجد لأبيه السيطرة على هؤلاء جميعًا، فما يلقاه أحد منهم إلَّا بعبارات التجلة وتحيات الاحترام، فيداخل نفس الطفل شعور الفخر بجاه أَبيه وعظمته، ثم إنه إذا مثل بعض هؤلاء الفلاحين الذين يسكنون القرية القريبة بين يدي أبيه، رآهم يحنون رؤوسهم خاشعين، ويُخاطبونه بألقاب السيادة والعظمة، والسعيد منهم من ظفر بلثم يده إذا شاء أن يمدها إليه، ويعجب إذ يرى أباه يُخاطبهم أحيانًا في ازدراء ويعنف عليهم في لهجة الأمر والنهي، ويتساءل الصبي بينه وبين نفسه لم يترفع عليهم أبوه هذا الترفع، ولم لا يُعاملهم كما يُعاملونه؟ ولكن نيقولا يخبره إذا سأله أن الفلاحين في الضيعة كلها ملك أبيه وملك أجداده كما حدثته بذلك العمة تاتيانا.

على أنه يعلم فيما يعلم أن القصرو الضيعة كانا من أملاك أُمه ورثتهما عن أُسرة فولكنسكي، ولكن رأسه الصغير لا يتسع لما يُقال عن نسب أُمه ونسب أبيه، وإن أخاه نيقولا نفسه الذي كثيرًا ما علمه ما لم يكن يعلم، يبدو منه العجز والتناقض إذا تحدث عن هذا النسب، ولا تحدثه العمة تاتيانا عنه إلَّا بقدر ما تعتقد أنه يفهم.

***

لم يكن يستطيع الطفل في تلك السن أن يدرك حديث نسب أبيه ونسب أُمه، فإنه حديث طويل وتاريخ قديم.

كان بُطرس أندروفتش تولستوي أول فرع سامق من فروع أُسرة تولستوي التي نبت أصلها في ألمانيا من زمن بعيد، وقد بدأ سموق هذا الفرع في عهد العاهل العظيم بُطرس الأكبر الذي ولى أمر روسيا في أواخر القرن السابع عشر.

حارب بُطرب أندروفتش تولستوي في معركة أزوف عام ١٦٩٦، وأرسله القيصر بعد ذلك إلى أُوروبا ليتعلم بناء السُفن، وفي مُستهل القرن الثامن عشر عينه سفيرًا لروسيا لدى الباب العالي، ولما اشتبكت الدولتان في حرب عام ١٧١٠ أُلقي به في سجن الأبراج السبعة، وكان يلقي فيه السلطان بالسفراء الذين يكون بينه وبين دولهم حرب، ولما عاد بُطرس إلى بلاده عام ١٧١٤ وصل إلى منصب الوزارة.

ولم ينسَ العاهل الجبار بُطرس الأكبر صنيع وزيره هذا حين أرسله إلى إيطاليا ليعود بابنه أليكسي، وكان قد هرب من بلاده خوفًا من غضب أبيه عليه لما كان من مُعارضته إياه في إصلاحاته، ولم يزل به ذلك الوزير الماكر يغريه ويمنيه، ويستعين عليه سرًا بخليلته حتى عاد به إلى روسيا حيث أسلمه إلى املوت نكال أبيه، وجزى بطرس رسوله بالمال والضياع المترامية. ومما يُروى عن القيصر العظيم أنه في أواخر أيامنه كان يمس بكفه رأس وزيره قائلًا: «أيها الرأس، أيها الرأس! لولا ما أنت عليه من مهارة لمضى اليوم زمن طويل على الإطاحة بك من فوق كتفيك».

ويأتي دوران الفلك إلى عرش روسيا بنجل أليكسي، فيكون أول ما يعنى به القيصر الجديد أن يقتص من ذلك الذي خدع أباه حتى جرَّه إلى مواطن الحتف، ولئن سقاه أمس جده الكأس عسلًا فإنه هو اليوم يجرعه إياها علقمًا، فقد جرَّده من ألقاب شرفه ونفاه إلى أركينجل نفيًا لم تكن منه عودة.

على أن ذلك الفلك الدوار يضع على العرش عام ١٧٤١ القيصرة إليزابث ابنة بُطرس الأكبر فترد إلى أُسرة تولستوي شرفها وضياعها في شخص أَندرو إيفانوفتش تولستوي، حفيد ذلك الذي قضى نحبه في أركينجل.

وينمو من هذا الفرع الجديد السامق فرع هزيل رخو، هو ابنه إليا تولستوي، فلقد كان ماجنًا مُستهترًا ضيق العقل، بسط يده كل البسط في ثروته العظيمة فبددها، ثم بدد بعدها ثروة زوجه الغنية، ولولا أن تُداركه بعض ذوي النفوذ والثراء من أقربائه لحاق به سوء ما فعل، فبفضل هؤلاء عين إليا تولستوي حاكمًا لقازان واستطاع أَن يسترد بعض ما فقد.

ورزق حاكم قازان بغلام سماه نيقولا، وترك له بعد موته ما بقى من أَملاك الأُسرة، وفي عهد نيقولا هذا وهنت ثروة الأُسرة وهنًا شديدًا، ولكن لم تكن له يد في ذلك وإنما حدث هذا بسبب غيابه إذ أسره الفرنسيون، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة أثناء حملة نابليون على رسيا، وظل سجينًا بفرنسا حتى غلب نابليون على أمره

فأطلقت سراحه جيوش الحُلفاء الظافرة بعد دخولها باريس.. ولم يجد نيقولا ما يرأب به ما تصدع ويصلح ما فسد خيرًا من زواجه بذات ثراء، وتم له ذلك بزواجه من ماري فولكنسكي العظيمة الثراء الكريمة المحتد.

وكان لأُسرة فولكنسكي إلى الثروة وعراقة الأصل، الشمم والبطولة وقوة الروح، واستقلال الرأي، وصرامة العزم، فتلك خلال ظهرت فيها كلها أو بعضها، ومن هؤلاء ثائر اشترك في ثورة الديسمبريين وعوقب بالنفي ثلاثين عامًا في سيبيريا حيث صحبته زوجته عن طوع، ومنهم ابن عم له خاض المعارك ضد نابليون في حماسة وبسالة أعجب بهما نابليون إعجابًا حمله على أن يرسل في طلبه وهو جريح أسير وعرض عليه أن يرد إليه حريته، إذا قطع على نفسه عهدًا أَلَّا يُحاربه مُدة عاملين، ولكنه رفض هذا العرض في شمم وكبرياء.

وعرفت كذلك أُسرة فولكنسكي بصلة النسب بين كثير من أفرادها وبعض ذوي المقدرة الفنية من المؤرخين والأُدباء والنُقاد والشُعراء، وكانت تربط ماري فولكنسكي وشائج الرحم من بُعد بشاعر روسيا الأكبر بوشكين.

وكانت ضيعة ياسنايا بوليانا من نصيب ماري فولكنسكي عند زفافها إلى نيقولا تولستوي، نالتها من أبيها كما نالت ذلك القصر الأنيق الذي استقرت فيه وزوجها عقب زواجهما، وكان ذلك القصر الأنيق الذي تستوقف الأعين أَخشابه الزاهية اللون في وسطه، ويمتد جناحاه الحجريان العظيمان يمنة ويسرة إلى مسافة بعيدة، يقع فوق مُرتفع على مقربة من الضيعة. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أُغسطس سنة ١٨٢٨ وُلِدَ فيه ذلك الغلام الذي يقف الآن وهو في الخامسة من عمره، يطل من شرفته على الضيعة والنهر والغابات والقرية القريبة، ويذكر ما أخبرته به العمة تاتيانا في رفق وهو أَنه لم يعد بعد صغيرًا وأنه سيدخل حجرة الدراسة من غده فلا يبرحها إلَّا متى شاء مُعلمه أَن يطلقه.

***

دخل ليو حجرة الدراسة وأُسلم إلى مُربٍ يُعلمه ويقوم على تنشئته، وكان هذا المربي ألماني الجنس وهو تيودور رويسل، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مُربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التي تُراد لهم، وهم صغار، وذلك بالحوار والمرانة لا بالقرءاة في الكُتب فحسب، ولقد كان تيودور رويسل هذا من الشخصيات التي تأثر بها الصبي تأثرًا شديدًا مُنذ دخل حجرة الدراسة، والتي ظل أثرها عالقًا بنفسه مدى حياته الطويلة؛ إذ كان المربي مُستقيم الخلق كريم الطبع عطوفًا على تلميذه في غير ضعف، شديدًا عليه في غير عنف، مُخلصًا في عمله إذا هم بأداء واجب، لا يبخل بجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرهقه هذا الجهد، وبهذه الصفات الطيبة أَو بهذه القدوة الحسنة أثر المعلم في تلميذه وهيأ الجو الصالح لنمو الصفات الطيبة في نفس ذلك الصبي.

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمة تاتيانا أَول من يلقى، فما يطيق البُعد عنها، وإن حبه إياها ليصغر دونه كل حب، وإن أثرها في نفسه ليقل عنده كل أثر، وسيكبر الصبي ويخرج من نطاق البيت إلى مُضطرب الحياة، ويظل أثر العمة تاتيانا قويًا في نفسه، ويظل شخصها حيًا في حسه، وتظل صورتها ماثلة في خاطره، وسيُعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها. تجد مثلًا لذلك في قوله: «إني لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندسست خلف أريكة كانت تجلس عليها في الثوى، وكيف مدت إلى يدها ومست جسدي في حنو ورفق، وكيف أمسكت بيدي تلك اليد وقبلتها ودموع الحب في عيني.. لقد كان للعمة تاتيانا أعظم الأثر في حياتي، فمُنذ الطفولة الباكرة علمتني كيف تكون بهجة النفس في روحانية الحب، ولقد علمتني هذه الفرحة لا بكلامها فحسب، بل إنها ملأتني حُبًا بكيانها كله. لقد رأيت ولقد أحسست كيف كانت تمتع نفسها بنعمة الحب، ومن ذلك فهمت بهجة الحب، وهذا أول ما علمتنيه، ثم إنها بعد ذلك علمتني نعيم الحياة المطمئنة الهادئة».

وحق له أن يحب هذه السيدة التي يدعوها عمته كما يفعل إخوته، والتي تقوم

منهم جميعًا مقام الأم وقد حرموا من أُمهم. وكان ليو مُنذ صغره مُرهف الحس مُتقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة، وتثيره الكلمة القاسية فما يملك أن يحبس دمعه، وعرفت عمته تاتيانا كيف تُوحي إليه ما تحب من المعاني العاطفية.

وليس يذكر ليو أُمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل، وكانت سيدة كريمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة، تقية رحيمة القلب، مرهفة الحس، مُهذبة الذوق، تتكلم خمس لغات، ولها بالموسيقى شغف عظيم، ولها مقدرة ملحوظة في العزف على البيان، وموهبة في سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة في هذا الباب حتى لقد كانت في حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يُفضلون أن يستمعوا إليها على أن يشهدوا ما يدور في تلك الحفلات، وكان الطفل يستمع إلى سيرتها في اهتمام كلما تحدث عنها الخدم أو تحدثت عنها العمة تاتيانا، فتقوم في ذهنه صورة لها تطمئن لها نفسه ويبتهج فؤاده، وتظل هذه الأحاديث تهجس في خاطره فتزداد صورة أُمه وضوحًا في نفسه كلما تقدم به العمر، فإذا كتب عن أُمه غدا فيما يكتب. قال: «لست أَذكر أُمي؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت، وبسبب مُصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة، وعلى ذلك فلا أَستطيع أَن أرسم في خيالي صورتها المادية، وإِني لفرح بهذا من وجهة نظرٍ، هي أن ما يقوم بذهني لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية، وكل ما أَعلمه عنها من هذه الناحية جميل، وأَظن أَن ذلك لم يكن مرده إِلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لي إِلَّا الخير، وإنما كان مرده إلى أن نفسها كانت تنطوي على كثير من الخير حقًا».

ويبقى في ذاكرته من أَحاديث الناس عنها الشيء الكثير، ولكنه مُعجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعًا، ويشير إِلى ذلك في قوله: «إِن أرفع خلالها قيمة هي أنها كانت على حرارة مزاجها وسرعة تأثرها تضبط نفسها أَبدًا، ولقد يحمر وجهها ولقد تبكي كما أَخبرتني خادمتها، ولكنها لا تلفظ قط لفظة نابية، بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات». ويقول عنها كذلك «إنها كانت تبدو في خيالي مخلوقًا علويًا روحيًا طهورًا، وبلغت من ذلك حدًا جعلني في الحقبة الوسطى من عمري إبان

جهادي ضد المغريات والوساوس القاهرة أتجه إلى روحها مُصليًا، مُبتهلًا إليها في صلواتي أن تأخذ بيدي. ولقد كان لي في أكثر الأحيان في هذه الصلوات كثير من العون».

ذلك أَثر أُمه في نفسه وإن لم يرها، أما أبوه فقد كان يحس ليو طيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه، وكان يحب قصصه التي يتلوها عليهم أثناء الطعام، كما كان يراه رفيقًا بهم لا يعنفهم على زياطهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه، وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقة ملبسه إذا تأهب للذهاب إلى المدينة، وبمهارته ونشاطه وجمال طلعته إذا خرج للصيد. وكم كان ينظر إليه في إعجاب ومحبة وهو جالس في مركبته وحوله عن قُرب خدمه وكلاب صيده. كم كان يُداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيبته، واستطاع خياله الناشئ واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة، وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يُطأطئ أبوه رأسه أو يخفض صوته أَو يغير لهجته لدى أَي كبير من الحاكمين مهما علا مقامه، ثم إنه يفطن إلى معنى آخر يُحبب أباه إليه، وذلك أَنه على ترفعه واستكباره أَحيانًا على الزُراع، يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب أن يرهقهم بالعمل، فإذا حدث لهم شيء من ذلك كان على غير علم منه، وإذا عَلِمَ بشيء منه نهى عنه واشتد في النهي وأخلص فيه.

وسيرث ليو صفات أبيه فيكون عطوفًا رؤوفًا يكره العنف على الزُراع، ويحب أن يُعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكنه كذلك سوف ينشأ مُعتدًا بذاته، كثير الذهاب بنفسه، سريع الميل إلى ازدراء غيره، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات في طبعه غلبته على أمره في كثير من المواقف فيزهى ويتكبر، ولا يقوم في نفسه إلَّا شعوره بما نشأ فيه من أَيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقة الأصل، وحسبه أن ليس هُناك في ياسنايا بوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه مُنذ عهد بطرس الأكبر إلَّا آل تولستوي.

وأحب ليو إخوته حُبًا شديدًا وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم المربي من

حجرة الدراسة، أَحب أكبرهم نيقولا لأنه يعلمه كل شيء ولأنه عطوف عليه، مرح، فكه الحديث، يراه ليو لا يُباري في سرد الحكايات والقصص الجميلة وفي رسم الصور المختلفة الأشكال والألوان، وأَحب سيرجي لوجاهة منظره، وأَعجبه منه حبه الغناء واللهو وكبرياؤه وعدم مُبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون، أما ديمتري وهو أَقرب الثلاثة إليه سنًا فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة.

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التي ابتكرها نيقولا، فقد أَسر إليه أنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يجعل الناس جميعًا على ظهر الأرض أَحبابًا بعضهم لبعض، وأن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه في مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم، ثم دعاهم إلى الجلوس معًا جنبًا إلى جنب في بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل أخوة النمل وحبة جماعاته، فأقبلوا حيث تلاصقوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسي وتضاحكوا في تعاطف ومودة، وأخذ يُحدثهم نيقولا أنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا إخوة، وهكذا صارت هذه اللعبة من أَحب الأَلعاب إلى الأُخوة، ولكم تجمعوا تحت خوان أو في ركن من الأركان ومثلوا أخوة النمل، وأحدثت اللعبة أثرها في خيال ليو ووجدانه، فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر في نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخوانًا.

استقر هذا الحلم في نفس الطفل وهو دون السادسة وما زال مُستقرًا فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره، فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال: «إن ذلك المثال وهو أخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض مُتحابين بقى قائمًا في نفسي لا يتغير وإن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يُظلل كرسيين عاليين، فهو اليوم عندي تعلق البشر بعضهم ببعض مُتحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء، وكما صدقت يومئذ أَن هُناك عصًا صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التي تمحق الشر كله في نفوس الناس وتُهيئ لهم السعادة العامة، فكذلك أَعتقد اليوم أن هذه الحقيقة مُمكنة،

وسوف تنكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة».

ولقد أوصى تولستوي فيما بعد أَن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء، في تلك البقعة التي صارت حبيبة إلى قلبه من أَجل ذلك الغصن الأخضر الذي أَوحى إلى نفسه أن يتحاب الناس جميعًا ويتآخوا على نحو ما تنطق به قصة أخيه، ولسوف يدفن فعلًا الكاتب العظيم في الموضع الذي عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر، وذلك بعد ستة وسبعين عامًا من قصة ذلك الغصن!

وحدثهم نيقولا حديثًا آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملأها شوقًا وتطلعًا وذلك أنه سيقودهم إلى تل ما وسيبلغ بهم قمته، فإذا بلغوها وطلبت نفوسهم أي شيء فلا يلبثون دون أَن يكون بين أيديهم، ولكنه لن يقودهم إلى ذلك التل إلَّا أن يجيبوه إلى ما يطلب إليهم أداؤه، فعلى كل منهم أن يقف في ركن فلا يتجه ذهنه لحظة إلى دب أبيض؛ أَي عليه أَلَّا يخطر بباله هذا الدب، وعليه أن يمشي مُستقيمًا على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل، ثم عليه أن يمتنع عامًا كاملًا عن رؤية أرنب حي أو ميت أو مُعد للمائدة، ومن أَخذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سرًا لا يفشيه إلى أحد.

وكم اتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخير يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر، وإلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قمته، وما علمه أَخوه إلَّا أُخوة النمل وإلَّا تلك الشروط التي لا بُد من أَدائها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل.

ويتطلع ليو إلى سرجي يريد أن يكون مثله، تُحدثه نفسه إذا قارن بينه وبين نيقولا أنه يُفضل أَن تكون له وجاهة سيرجي، ولو أنه مُعجب بأقاصيص نيقولا وسخره ونكاته، وهو مولع بتقليد سيرجي فيما يعمل، ولكنه يألم أَلَّا يستطيع أن تكون له مثل وجاهته فلن يجدي في ذلك تقليد، وكانت وجاهة أخيه أحب صفاته إليه، فما أشقاه أن تكون هي الصفة التي تستعصي عليه، وإنه مهما حاكاه في الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضاء أَن لم يكن له ما لأخيه من حُسن السمة وجمال

الطلعة، وثمة شيء آخر لا يستطيع ليو أن يُحاكي فيه أخاه، وذلك عدم مُبالاة سيرجي بما عسى أن يقول الناس عنه، فهو لم يكن يومًا معنيًا بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفكير في ذاته، وقد خلق ليو على نقيض أخيه، فهو بنفسه معنى مُنذ صغره، عظيم الاهتمام بآراء الناس عنه، شديد الإحساس بذاته، كثير الانطواء على نفسه، وتلك خلة أتعبته مُنذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه في مُستقبل الأيام.

ويتصف الطفل مُنذ نشأته بصفة لعلها وليدة شعوره القوي بذاته، وتلك هي سرعة بُكائه، وما يبكي من غيظ فحسب، فإن عينيه لتدمعان إذا لقى حنوًا أو مودة ممن هم أكبر منه، وإن عجبًا أن يبكي في موضع السرور ليعبر بدمعه عن امتنانه، فهل كان لذلك سبب آخر هو إحساسه بيتمه مُنذ أن فطن إلى موت أُمه؟ لكنه بكَّاء شكَّاء من قبل أن يفطن إلى ذلك، وهو لا يملك أن يحبس دمعه إذا رأى غيره يبكي وإن لم يدر ما بكاؤه، ولقد يُغضب غيره حتى يبكيه ثم لا يستطيع إلَّا أن يبكي معه، كتب فيما بعد عمّا كان بينه وبين تلك البنت التي كان يربيها أبوه في أُسرته فقال: «أتذكر أني أخذت وقد تعلمت الفرنسية أعلمها حروفها الهجائية، وسار ذلك سيرًا طيبًا أول الأَمر، وكنا يومئذ كلانا في نحو الخامسة من عمره، ولكن التعب أدركها فأمسكت عن نُطق الحروف كما طلبت إليها، فألحت عليها فبكت ثم إذا بي أبكي مثلها، ولما دخل علينا من هم أكبر منا لم نجد ما نقوله بسبب ما كنا نذرف من الدمع».

وكان ليو أَكثر من غيره من الأَطفال حُبًا للثناء عليه وابتهاجًا بما يسمع من عباراته، وذلك أَنه يفطن إلى أن الثناء عليه ينصرف بالضرورة إلى ما يبدي من دلائل الذكاء والنشاط والطموح، إذ ليس يطمع في ثناء عليه بسبب منظره أو ملاحة وجهه، أو رشاقته، كما عسى أن يطمح سيرجي أو نيقولا، فما أبعده عن ذلك كله، وهو شيء ليس في طوقه، وإن كان يتمنى بينه وبين نفسه لو وقعت مُعجزة فبلغ بها ما يريد من وجاهة وحسن، ولن تقع هذه المعجزة أَبدًا، فليس له إلَّا أن يرقى بنفسه ويبدي مقدرته ولهذا كان إذا دُعي إلى عمل جمع عزمه وحرص الحرص كله على أن يكون في

أَحسن حالاته، ومن ذلك ما يكون منه بين يدي أَبيه حين يدعوه إِلى تلاوة قصيدة من شعر بوشكين أَو غيره من الشُعراء، أَو تلاوة أُقصوصة من كتاب أَو من ذاكرته، أَو حين يُناقشه في دروسه ليعلم مبلغ فهمه.

وكان شغفه بالموسيقى عظيمًا يتفتح لها قلبه وتنفعل لها نفسه ويبتهج خاطره، إِذا سمع لحنًا وانشغل غيره عنه، فهو مُقبل عليه بقلبه ولُبه كأنه مسحور به لا يكاد يعي دونه شيئًا.

ويحب ليو الناس جميعًا، لا يضمر سوءًا لأَحد، ولا يتجهم لأحد، ويكره أَن يرى شخصًا يتألم أو تمشي في وجهه كدرة الهم، كما يكره أَن يعبس أَحدهم في وجه صاحبه أَو يتكره له أَو يتجهمه بالقول، فالصفاء والمحبة والمودة من خصائص طبعه ومقومات خلقه.

# صبي نابه

تمكنت من نفس الصبي روح المحبة للناس جميعًا، ولسوف تتوثق على الأيام وتزداد فيكون لها أَثرها البعيد في تكوين آراء الكاتب العظيم في غد، وفي توجيه روحه وتحديد مسلكه في مواطن كثيرة من مواقف حياته.

وكان يحب الطفل فيمن أَحب في طفولته كبيرة الخدم العجوز التي لبثت من عمرها في القصر سنين طويلة لا يدرك مدى طولها، والتي تقص عليه أَحسن القصص عن أَجداده وأَحداث أُسرته وتُلاعبه وتُضاحكه كلما ذهب إِليها أو كلما لقيته في إِحدى ردهات القصر أَو حجراته، وتخبئ له الحلوى في ثيابها لتلاقيه بها، أَو تفتح له خزانتها ليأخذ منها ما يحب، وكان كذلك يحب كبير خدم المائدة لأَنه يهش له دئمًا ويظهر المودة والعطف، والحق أَنه كان يحب الخدم جميعًا وإِنما يختص بمحبته من هم أَكثر توددًا إِليه.

دخل يومًا على العمة تاتيانا يشكو إِليها أَنه رأى منظرًا كدره وآلمه، وذلك أَنه شاهد أَحد الفلاحين يُساق إِلى حظيرة حيث أَوثقه رئيسه وضربه، ولما سأَلته عمته لِمَ لَم يحل بينه وبين الضرب أطرق في خجل ولم يحر جوابًا، وكأَنما يزداد أَلما ألا يستطيع أَن يتدارك ما فاته.

وبينما كان أَفراد الأُسرة كبارهم وصغارهم في الثوى الكبير ذات ليلة من ليالي الشتاء، إِذ أَشار الكونت نيقولا رب الأُسرة بسبابته إِلى الحجرة المقابلة وكانت مفتوحة، فوقعت أَعين الجالسين على منظر أَثار ضحكهم ودهشتهم، فقد عكست المرآة فيها صورة أَحد الخدم يمشي على أَطراف أصابعه، وما زال حتى بلغ صندوق الطباق فسرق منه قدرًا وانصرف، وكان الكونت ينظر إِليه ضاحكًا لم تزل عنه بشاشته، بل لقد صحب تلك البشاشة شيء من التسامح والرفق، ولما رأَى ليو

تسامح أَبيه امتلأ سرورًا منه وازداد إِعجابًا به، وعند انصرافه لثم يده في حماسة ظاهرة، ليريه مقدار ما في نفسه من رضاء على ما أَظهر من رحمة ورفق.

وامتد عطف الصبي حتى وسع الحيوان فقد أَحزنه ذات يوم مرأى كلب مربيه والخدم يشنقونه، وكان ذلك الكلب العزيز الرمادي اللون ذو العينين الجميلين والشعر الناعم الجعد، على خد وصفه، قد أُصيب بكسر ساقه إِذ مرت فوقه عربة، فأَعدم إِذ لم تعد بهم حاجة إِليه في الصيد، وعجب الصبي لما رأى بقدر ما تأَلم منه، وإِنه ليروي هذا الحادث بعد فيما يروي من حوادث الصغر مما يدل على شديد تأثره به، قال: «كان الكلب يُعاني الأَلم وكان مريضًا وقد شنق بسبب ذلك، لقد أَحسست أَن هُناك خطأً فيما يقع، ولكني لم أَجرؤ على الثقة في شعوري، حيال ما أَرى من تصميم ثابت يأَتي من جانب قوم أحترمهم».

ووقف الصبي ذات يوم يمسح بكفه الصغيرة حصانه، وقد وثب عن ظهره إِلى الأرض إِذ نبهه أَحد الفلاحين وقد رآه يضربه أَن لا جدوى من ضربه لأَنه مُتعب، ونظر الصبي إِلى الحصان وهو يلهث ويخرج أَنفاسه في زفرات مُؤلمة مُتقطعة، وجنباه يرتعشان والعرق يتبخر منهما، فبلغ من حزنه أَنه «أَخذ يقبل عنقه الذي بلله العرق ويسأَله الصفح عمّا أَوقع به من أَذى»...

وممن وسعهم عطف الصبي وشملهم بره، أُولئك الفقراء الذين كان يعدهم الناس من الصالحين الأَولياء، وكانوا كثيرين في تلك المنطقة لقربها من كييف حيث يتقاطر الحجيج ليزوزوا مواضعها المقدسة، وكان مرأَى هؤلاء في أَسماليهم البالية وبلاهتهم وتمتماتهم، وعدم اكتراثهم لأَي شيء، أَمرًا يثير الدهشة في نفس الصبي كما يبعث فيها كثيرًا من الرهبة، ويُوحي إِلى خياله أَطيافًا مُبهمة وصورًا غامضة، وكان ينبئه إِخواته أَن في هؤلاء الصالحين سرًا لا يُمكن كشفه يجعلهم على الرغم من حقارة مظهرهم وقذارة أَسمالهم أَقرب الناس إِلى مرتبة القديسين، وقد وصف تولستوي هذه الطائفة في شخص «جريشا» الذي تحدث عنه في كتابه «عهد الطفولة» وقد كتبه وهو في الخامسة والعشرين من عمره قال: «كان جريشًا شخصية مُخترعة، وكان يغشى

منزلنا كثير من هؤلاء البله الطيبين، وقد عُلِّمت أَن أَنظر إِليهم نظرة الاحترام الشديد وهو صنيع أَحفظه لمن قاموا على تربيتي، ولئن كان بين هؤلاء من يعوزه الإِخلاص أَو من قضى فيما سلف أَيامًا في حالة من الضعف والادعاء، فإِن غايتهم في الحياة كانت على ما يبدو من سخفها في الواقع، بالغة السمو، حتى إنه ليسرني أَني تعلمت في طفولتي على غير وعي مني ما وصلوا إِليه بِأَعمالهم من علو، لقد صنعوا ما تحدث عنه ماركس أورليوس حين قال: ليس هُناك أَسمى من أَن يتحمل المرء الازدراء من أَجل أن يحيا حياة صالحة طيبة، إِن الطموح الإِنساني إِلى المجد والعظمة أَمر لا يُمكن تجنبه، وهو كذلك بالغ الضرر إِذ أَنه يفسد كل عمل حميد، فلا يسع المرء إِلَّا العطف على أُولئك الذين لا يقتصرون على بذل جُهدهم لتجنب أَن يحمدوا فحسب، بل ويتعرضون فوق ذلك للاحتقار...».

ومما كان يبهج نفس الصبي ويُحبب إِليه الحياة ما كان تحتشد له الأُسرة من مظاهر الفرح في أَعيادها وبخاصة عيد الميلاد، فكانت تشيع البهجة في البيت كله فترى دلائلها في كل وجه، وتحس روحها في كل ناحية، فرب الأُسرة وسيداتها وأبناؤها وجميع من في القصر من خدم يتبادلون المحبة والمودة ويبدون سُعداء في ثيابهم الجديدة ويستمتعون بما طاب من الطعام والشراب، حتى الفلاحين ينالهم حظ من هذا الفرح فتطيب نفوسهم وهذا ما ينشرح له صدر الصبي.

وكان خروجه إِلى الغابة للصيد مع أبيه وإِخواته في العربات الجميلة أَو على ظهور الخيل المسومة الفخمة يحيط بهم رهط من الأَتباع وعدد من كلاب الصيد، مما يملأ قلب الصبي سرورًا وبهجة، وكثيرًا ما كان يبهجه كذلك الخروج إِلى الغابة لغير الصيد في صُحبة العمة تاتيانا أو في صُحبة جدته أو غيرهما من المربين فيرتع ويلعب ويقتطف ما شاء من الزهر، ويستمع إِلى القصص، حتى يعود إِلى البيت وهو يطفر كما يطفر العصفور من فرط المرح.

وفي ليالي الشتاء كان تحلق الأسرة حول الموقد والاستماع إِلى الموسيقى أَو القصص الممتعة، وتبادل العطف بين الكبار والصغار وبين بعضهم مع بعض مما يحبه

الصبي ويأنس به ويحرص كل الحرص على شهوده.

وليس ثمة إلَّا حجرة الدراسة تخلو من البهجة ويلقى فيها من دروسه عنتًا ورهقًا، على أَن عطف مُعلمه عليه يُخفف عنه، ورغبته في أَن يرقى بنفسه ويكتسب من دواعي الفخر ما يُباهي به إِخوته، يجعله يتكئ على نفسه ويصبر على مكاره الدرس.

وفيما عدا هذا كانت طفولته بهيجة مُحببة إِلى نفسه، ولن تجد وصفًا لهاتيك الأَيام السعيدة الحلوة أَبلغ مما كتبه عنها بعد ذلك في أَول كتاب له وهو كتابه «عهد الطفولة» قال «ما أَسعد هاتيك الأَيام الحلوة، أيام الطفولة التي لا تنمحي ذكراها، وكيف ينسى امرؤ أَن يحب ذكرياتها وأَن ينعم بها، إن هذه الذكريات لتنعش روحي وتسمو بها، وهي المنبع لأَعظم فيض من السرور يغمرني، وأَي وقت هو خير من ذلك الوقت الذي لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما في الفضائل أجمل فضيلتين: اللهو البريء ورغبة النفس في الحب رغبة لا تحد».

كان كلما اقترب ليو من إِخوته سمعهم يتحدثون عن موسكو وعن الرحيل إِلى موسكو، فيرفع بصره إِلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هذا الرحيل، فإِن الهم ما يبرح يهجس في خاطره مُنذ علم بقرب انتقالهم إِلى موسكو، ولكن الغلام لا يجد في وجوههم أية أمارة لذلك الذي يعتلج في نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إِلى موسكو أَو كلما وقع بصره على ما يلمح إِلى الرحيل أَو يشير إِليه، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأَشرطة الزاهية يقلبها إِخوته بين أيديهم فرحين، وإِنه ليشاركهم فرحهم بها، وما ينقم منها إِلَّا أَنها سوف تلبس في موسكو، فعمّا قريب يرحل مع إِخوته ليتعلموا في تلك المدينة الكبيرة، وإِنه ليعجب كيف يطيقون الرحيل عن ياسنايا فيتحدثون عن ذلك الرحيل ضاحكين مُستبشرين، ويقع الحديث من نفسه موقعًا أَليمًا.

وهل كان يطيق البُعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات القريبة التي أَحبها وألف المرح في أَرجائها؟ وهل كان يطيق البُعد عن العمة تاتيانا وهو

لا يجد له أَمًا غيرها؟ ومن ذا يكون مربيه في موسكو مكان تيودور رويسل؟ وهل هو واجد في موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها؟ أيطيق أَلّا يرى الخدم الذين أَحبهم وأَحبوه، والخيل وكلاب الصيد التي أَولع بها وأَحب أن يراها كل يوم! ولكن ما من الرحيل بُد فليس له إِلّا أَن يصبر عليه، بهذا كان يتحدث الغلام إِلى نفسه أَو بهذا كانت تُحدثه نفسه.

وحان يوم الرحيل، ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به وبِأَخوته العربية إِلى موسكو، فما يجدر به أَن يبكي وهو ابن ثمان، وهؤلاء إِخوته حوله لا يبوكن بل لا يكترثون لشيء كأَنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأَمس إِلى الصيد في الغابة!

ونظر الغلام في موسكو إِلى مربيه الفرنسي الجديد سنت توماس، فإِذا هو تلقاء رجل لا يحس في وجهه ما كان يحسه في وجه تيودور رويسل من عطف ومحبة وإِخلاص، وما لبث أَن وجده يعنف عليه أَشد ما يكون العنف، فيحبسه في حجرة ويتهدده بالعصا، الأَمر الذي أَغضبه أَشد الغضب وكره إِليه الغلظة والعنف، ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعًا طيلة حياته، كتب بعد ذلك في مذكراته يشير إِلى هذا الحداث فقال «حبسني سنت توماس أَولًا في حجرة، ثم جاء يتهددني بالضرب بعصاه، ولست أَذكر الذنب ولكنه كأَن أمرًا لا يستحق العقاب أَلبتة، وعندئذ ذقت شعورًا مُخيفًا هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب، ولكن نحو القسوة التي يتهددني بها كذلك».

وأَكبر الظن أَن مربيه ما فعل هذا إِلَا لإِهماله وانصرافه عن الدرس، وعناده إِذا دعاه إِلى العمل، ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أَحد لداته قد تحدث عنه وعن إِخوته فقال: «يرغب نيقولا في التعلم ويقدر عليه، ويقدر سيرجي على العلم ولكنه لا يميل إِليه، ويميل ديمتري ولكنه لا يقدر، أَما ليو فإِنه لا يميل ولا يقدر»، ولكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله «إِن لهذا الغلام رأَسًا.. إِنه موليير صغير».

ماذا كان في رأسه يومئذ حتى يُسميه مُربيه هذا الاسم؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقعان عليه، ونفاذ بصيرته إلى أَفعال إخوته ولداته من التلاميذ وتفطنه إلى خصائص كل منهم، فالغلام على حداثته يقظ مُرهف الحس، دقيق الملاحظة للناس وللأَشياء جميعًا.

وهو وإن لم يتجاوز الثامنة بعد، تطوب بقلبه الغض عاطفة الحب، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذي يحسه نحو العمة تاتيانا أَو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أَفراد الأُسرة ومن الخدم، وإنما كان حُبًا كذلك الحب الذي قلما خلا منه قلب فتى أَو فتاة في ربيع العمر، ويميل بعض عُلماء النفس إلى عد هذه العاطفة في مثل هذه السن الباكرة دليلًا على الموهبة الفنية، ولذلك يرجى لصاحبها أَن يكون في غده من الأَفذاذ.

أَحب ليو تلك البنت الصغيرة التي عاشت بين أَفراد الأُسرة في كنف عميدها الكونت، وكانت تُسمى اسلنيف، وأَحب في موسكو غُلامًا صغيرًا من أَبناء عمومته من آل بوشكين، وقد بلغ من حُبه إياه أَنه كان ينعقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاءه من فرط إحساسه بعاطفته، وكذلك أَحب بنتًا لا تكبره في العمر جميلة زرقاء العينين تُدعى سوشنكا، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأُ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق، صادقة خالصة الصدق، بريئة من كل شائبة أَو غرض، حتى لقد اتخذها في مُستقبل أَيامه مقياسًا يرجع إليه إذا شاء أن يُقارن بين حالات شعوره.

أَما إسلنيف فكان يغار عليها أشد ما تكون الغيرة، لا يطيق أَن تحدث شخصًا غيره كبيرًا كان أو صغيرًا أو تتجه حتى بنظرها إليه، وكان يعنف عليها ويعصف في وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلًا إلى غيره، حتى إنه دفعها ذات مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد بلغت بها الجرأَة أَن كلمت غلامًا أمامه، فسقط ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأَقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التي غدت سيدة أَنجبت بنات وبنين، وأَصبحت أُم زوجته، فقالت له

ضاحكة تُذكره بذلك الحادث «أكبر الظن أنك دفعتني من الشرفة إبان طفولتي لكي تتزوج بابنتي فيما بعد».

وذاق الغلام في موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب، فقد مات أبوه وكان في طريقه إلى مدينة تولا في صيف سنة ١٨٣٧ وسقط في الطريق جسمًا لا حراك به، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب، وآخرون يهمسون أَن السم أودى به على يد فلاح ممن ملكت يداه، ويتسلط على رأَس الغلام خيال عجيب فهو يحس أَن أَباه حي لم يمت، ولا يستطيع أَن يتصور أَنه مات حقًّا على الرغم من أَن أَخاه نيقولا قد شهد دفنه في ياسنايا بوليانا، وإنه لينقل بصره بين وجوه المارة في شوارع موسكو يتوقع أَن تقع عيناه على أَبيه، وظل هذا الخيال بضعة أَشهر مُتسلطًا عليه.

ويتفكر الغلام مرة ثانية في الموت والحياة، فقد تفكر في ذلك حين أَدرك أَن عمته تاتيانا ليست أُمه، وعلم من نيقولا بموت أُمه، ولقد أَحس يومئذ أَن الموت شيء كريه مُخيف، ولكنه لم يدرك كنهه، وهو كلك يحس اليوم مثلما أَحس بالأَمس، وإن كان يصحب إحساسه هذه المرة شيء من التفكير والدهشة، وسيظل هذا شأَنه كلما نظر في الموت حتى يُجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشيء الكريه المخيف، وهو لم يعد من طول النظر في أَمره بشيء.

ولم تكد تمضي تسعة أَشهر على وفاة أَبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها، وجاء المربي يحمل النبأَ إلى الصبية وهم يلعبون، فانقلب مرحهم وزياطهم وجومًا وسكونًا، وأَرهف ليو أُذنيه ودار بعينيه يسسمع ويرى، فكم كره مرأَى الحانوطية على مقربة من البيت في ملابسهم السوداء، وكم بث في نفسه الخوف رؤية التابوت بين أَيديهم، ووجوههم كئيبة عابسة من أَثر ما يتكلفون من الحزن، على أَنه يطيب نفسًا بما يُشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته وبما يسمع من عبارات الرثاء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم، ولقد تندت عيناه ذات مرة مُتأثرًا بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها «إنهم اليوم أَيتام كل اليتم، فقد مات أَبوهم مُنذ قليل، وها هي ذي جدتهم كذلك يأَخذها الموت».

وينظر الصبي إِلى حلته السوداء المخططة الحوافي بخيوط بيضاء وهو يرتديها حدادًا على فقد جدته، وقد صُنِعَتْ لهذا الغرض خاصة ويعجبه منظره في هذه الحلة فينسى بعض ما يمسه من حزن.

وللغلام في هذه السن الباكرة اشتغال بما يعد الاشتغال به من أَعجب الأُمور ممن كان في مثل سنه، وذلك هو نظره في الدين ومسائله، ولندع تولستوي نفسه يتحدث عن ذلك قال في مستهل كتابه «اعترافاتي» إِني أَذكر كيف زارنا ذات يوم من أَيام الآحاد في الحادية عشرة من عمري غلام يُدعى فالرمير موليتين كان في إِحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أَحدث الطرائف من الأَنباء، أَلا وهو كشف اتفق وقوعه في مدرسته، ومُؤدي ذلك الكشف أَنه ليس لهذا العالم إِله، وأَن كل ما لُقناه عنه إِن هو إِلَّا محض اختراع. وإِني لأَذكر مبلغ ما داخل إِخوتي من سرور عند سماع ذلك، لقد دعوني إِلى مجلسهم، وأَذكر أَننا جميعًا شعرنا شعور النشوة لهذه الأَنباء، وتليناها كأَمر سار مُمتع مُمكن الحدوث كل الإِمكان.

وعرف الغلاف مُنذ حداثته بقوته البدنية وحيويته المتوثبة، تبين ذلك من حادثة تقصها أُخته، ومؤداها أَن أَخاها نزل من إِحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأَمر ما، فظل ماشيًا حتى أَوشكت العربة أَن تدركه فأَخذ يعدو عدوًا سريعًا كيلا تدركه، وإِخوته في العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه، ولم ينقطع نفسه إِلَّا بعد ميلين فصعد إِلى العربة وهو يلهث ولكنه يُحاول أَن يخفي تعبنه، ولسوف تُلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أَحيانًا من أَسقام وآلام، حتى يطويه الموت بعد أَن يُجاوز الثمانين.

وكان ليو مُنذ صغره مولعًا بركوب الخيل، وقد تعلم الركوب في سن مُبكرة على الرغم من مُعارضة أُمه إِياه في ذذلك، وقد رأى أخويه اللذين يكبرانه يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بِأَن يمتطي جوادًا كما فعلا فإِذ به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويمسك بجبهته، فلما أعيد إِلى حيث كان لم يبد عليه شيء من الخوف وصمم على أَن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهو

ثابت فوق صهوته، ومن ذلك الوقت أَصبح يجيد الركوب.

وفكر الغلام ذات يوم في أمر: لِمَ لا يطير كما تفعل الطير؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة؟ إنه يرى أَنه مُستطيع بحركة ما أَن يثب طائرًا فيسبح في الجو كما تسبح الطير، وإِن في نفسه مُنذ صغره ميلًا إِلى أَن يضع ما يهجس في خاطره موضع الاختبار، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر في مواطن كثيرة، ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أَن يطير، ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها في سبات عميق، فيفتح عينيه دهشًا مُتحيرًا يُحاول أَن يذكر ماذا كان من أَمر طيرانه فيذكره إِياه ما يحس من أَلم في مفاصله وأَضلاعه.

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث، وأَكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته، ومن ذلك أَنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل في ذلك إِصلاحًا لشكله، ثم عاد فأَطلق شعره حتى استطال، وعمد إِلى المشط فجعل به ذلك الشعر في موضع خاص لعل في ذلك أَيضًا ما يكسبه وجاهة ويظهره في هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون. وعمد مرة أُخرى إِلى حاجبيه فانتزع شعرها بملقط كي يشتد بعد ذلك نماؤه فيكسب ملامحه مظهرًا عاطفيًا شعريًا، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل، الأَمر الذي نغص عنده العيش.

ولقد جاء في كتابه «عهد الطفولة» قوله «كنت أَعلم حق العلم أَني لم أك حسن المنظر، ولذلك كانت كل إِشارة إِلى هيئتي تسيء إِلى إِساءة مُؤلمة، ولقد مرت بي لحظات تملكني فيها اليأَس وخُيل إِليّ أَنه لا يُمكن أَن تتهيأ السعادة على هذه الأَرض لمن كان له أَنف كأَنفي العريض وشفتان كشفتي الغليظتين وعينان كعيني الصغيرتين الشهباوين، وسأَلت الله أَن يُحدث مُعجزة فيجعلني وجيهًا فأَني لأَجود بكل ما هو لدي وبكل ما عسى أَن أَظفر به في المستقبل، في سبيل وجه حسن».

وفي صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام في موسكو مشهدًا استقر في نفسه فلم يبرحها حتى ظهر أَثره في أَحد أَوصافه فيما بعد في قصته الكبرى «الحرب والسلم»، إِذ

وصف موكبًا من مواكب الإِسكندر الأَول على لسان روستوف أَحد شخصيات تلك القصة، أَما المشهد الذي رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف، فهو موكب يقولا الأَول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأَول في بناء كنيسة أُقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون.

ولم يطل بالغلام المقام في موسكو فقد أعيد من أخيه الصغير إلى ياسنايا بوليانا ليكونا في رعاية العمة تاتيانا، وبقى الأَخوان الكبيران في موسكو ترعاهما الكونتس أوستن سيكن عمتهما على الحقيقة، وكانت الكونتس أوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية صالحة لله في السر والعلن، تنفق مالها في سبيل الله فلا رد فقيرًا ولا تتكره لذي حاجة، وكانت بالخدم رحيمة عطوفًا تكره أَن توقظهن إذا أَوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة، وكان أثرها عميقًا في نفس الغلام فكان يشعر نحوها من الإِجلال والإِكبار بقدر ما كان يشعر نحو عمته تاتيانا من المحبة، ولئن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس في الحب، فقد أَوحت إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين.

ولكن هذه العمة قضت نحبها في خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على الأُخوة جميعًا لعمة أُخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أَحد ذوي الثراء من الملاك في قازان، وثم فقد نقل الصبية جميعًا إلى قازان فأَقاموا هُناك حتى ربيع ١٨٤٧، على أَنهم كانوا يقضون إِجازاتهم الصيفية في ضيعتهم المحبوبة بناحية ياسنايا بوليانا.

# فتى حائر

كان ليو في نحو الثالثة عشرة من عمره حينما انتقل مع إخوته إلى قازان، وكان جدهم أَحد حُكام قازان من قبل فكان الصبية ملحوظي المكانة في مضطربهم الجديد، وكان يصحب كل صبي منهم خادم خاص جيء به من بين عبيدهم في ياسنايا، وترفع الصبية عمّن حولهم من الناس إلَّا من كانت لهم مثل مكانتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأَهم قازان.

وكانت عمتهم يوشكافا التي يعيشون يومذاك في رعايتها طيبة القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير، وكان زوجها من ذوي الثراء يجعل أَكثر وقته للموسيقى ولعب الورق وما إليها، ولذلك كثيرًا ما كان يغشى بيته جماعات من صحابه وكثيرًا ما صرف الصبية عن الجد من الأُمور مُشاهدتهم هذه الجماعات وأَوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره في دروسهم.

ولكن ليو لا يسرف في ذلك إسراف إخوته، بل إنه ليميل إلى مُجافاتهم إلى حد ما مُنذ أَن رآهم يتغيرون عمّا ألفهم، ورأَى في أَذواقهم وميولهم ما يحس أَنه غريب عليه جديد عليهم، وما لا يسعه إلَّا أَن ينكره منهم بينه وبين نفسه.

ولعله ما أَنكر ذلك منهم إلَّا لأَنه لا يستطيعه لنفسه، فقد عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أَن يكون وقعها في النفوس، وإنه ليطيل النظر في المرآة فلا تعجبه أُذناه الكبيرتان ولا أَنفه المفرطح الواسع المنخرين ولا عيناه الشهباوان الجاحظتان بعض الشيء، ولا شفتاه الغليظتان بعض الغلظ.

على أَن له في القراءة مصرفًا عن هذا، وعزاء ومتعة غير ما يسعى إليه يده من الكُتب التهامًا، ولن يزال مكبًا على كتابه ساعات طويلة حتى لينسى نفسه؛ لأنه يعيش بخياله فيما يقرأ، وكان مما قرأَه يومئذ كتاب أَلف ليلة وقد أثرت في خياله وحسه

قصة «الأربعين لصًا» تأثيرًا قويًا وكذلك فعلت قصة الأَمير «قمر الزمان»، وقرأ الغلام شعر بوشكين وأعجب بقصيدته عن نابليون، وراقته قصة «الدجاجة السوداء» للكاتب الروسي بوجورولسكي، وقرأ الإنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف فإن أثرها فيه كان على حد قوله هائلًا، ولم يزل بعد ذلك بسنين يصف ما أَعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة حتى أَصبح مسحورًا بجان جاك روسو، وإنه من فرط تأثره به ليكاد ينسى كل شيء غيره، وقد بلغ افتتانه به أنه استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب، وأَقبل على اعترافاته وكتابيه «إميل» و«هلويز الجديدة» وقد سحرته هذه القصة فقرأَها مرة بعد مرة، وكلما أَعاد قراءتها ازداد حب لها واشتد تأثره بها. قال بعد ذلك يصف هذا السحر «كانت صفحات كثيرة منه وثيقة الصلة بنفسي، حتى لقد خيل إلي أَني أنا الذي كتبتها لا ريب».

ويمتلئ ذهن الفتى في السادسة عشرة بكثير من مسائل الفلسفة، بل إنه ليطمع أَن يحل أَلغاز هذا الوجود فيشغل نفسه بالنظر في خلود الروح ووظيفة الإنسان في هذا الكون وصلته به وإمكان وجود حياة أُخرى، إلى أَمثالها من المعضلات والمسائل.

وينظر الفتى في نفسه فيصل إلى رأي، وذلك أَن سعادة ا لمرء لا تتوقف على العوامل الخارجية في ذاتها ولكن على صلة الإنسان بهذه العوامل، ومن ذلك مثلًا أَن الإنسان إذا أَخذ نفسه بالتقشف وتعود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فلن يشقى به ولن يأَلم منه، وعلى ذلك فقد أَخذ نفسه بأَلوان من العنف والشدة كأَن يحمل بعض الكُتب الثقيلة زمنًا ويداه ممدوتان، وكان يضرب جسمه وقد تعرى بحبل حتى تدمع عيناه، ثم إنه يقنع نفسه بأَن التفكير في الموت أَمر لا محل له، وللإنسان أَن يستمتع بالساعة التي هو فيها فالموت أَمر لا بُد منه والحياة أَتفه من أن يُعَنى بها المرء قلبه، فليمرح الفتى ما وسعه المرح ولينصرف عن الدرس وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرها وشرها، وليقض وقته في قراءة القصص وأَكل الحلوى.

ويُحاول أَن يتدسس إلى أَعماق نفسه ليرى ماذا يجري في شعوره فيصل به الأَمر

إلى ما يقرب من الخبل. تجد ذلك في قوله «وكنت أُفكر في أَني أُفكر فيما كنت فيه أُفكر» وإنه ليستغرق في تفكيره هذا حتى ليأَكل ما في يده ذات مرة من ديدان كان أَعدها طعمًا للسمك أَثناء صيده، ثم يمج الديدان من فمه بين الضحك والتقزز.

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أَخذه التشاؤم من جميع أَقطاره، ثم يجد نفسه مُستغرقًا في هذا التشاؤم استغراقًا، فلا فكاك له منه ولا منتدح عنه. تجد ذلك واضحًا في عبارة جاءت له في كتابه «عهد اليفاعة»، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه «عهد الطفولة» وكلاحقه «عهد الشباب» لم يكتب على أَنه تاريخ حياته، فإِن أَكثر ما جاء فيه من وصف كان لشخصيات خلقها وأَكثر ما جاء على أَلسنة هذه الشخصيات يدور حول حياته ومن كان له بهم في هذه العهود صلة. قال «لم تشتد نزعة فلسفية في نفسي كما اشتدت نزعة التشاؤم، تلك النزعة التي أَشرفت بي ذات مرة على حافة الخبل فقد تخيلت أَنه ما من شيء أَو شخص هو قائم في هذا الوجود بجانب شخصي، وأَن الأَشياء جميعًا ليست أَشياء فقط، ولكنها صور فحسب لا تظهر إِلَّا عندما أتجه بفكري إِليها، وإِنها لتختفي حين ينتهي تفكيري فيها، وقصارى القول أَني وافقت شلنج فيما ذهب إِليه من أَن الأَشياء لا وجود لها في ذاتها وإِنما الموجود هو علاقتي بها، ومرت بي لحظات وصلت فيها تحت تأَثير هذه الفكرة المتسلطة علي إِلى حالة من الخبل حتى لأَلتفت في سرعة حولي كي أَدرك اللاشيء.. لقد ازدهتني هذه الكشوف الفلسفية التي بلغتها وأَثارت غروري إِلى حد عظيم، وكثيرًا ما تخيلت أَني رجل عظيم يكشف حقائق لخير بني الإِنسان، وبهذا الشعور الذي انطوت عليه نفسي، شعور الكبرياء نظرت إِلى باقي البشر، ولكني ما واجهت أَحدًا من هؤلاء الفنانين إِلَّا أَحسست بالخجل حياله، الأَمر الذي يحمل علي كثير من العجب، وكلما زدت قدريَ نفسي شعرت أَني أَقل مقدرة لا على إِظهار ما يُخالجني من شعور الرفعة فحسب، بل كذلك على أَن أُعوِّد نفسي أَن أَتجنب الخجل الذي يعتريني من أبسط كلماتي وحركاتي».

وتتوزع فؤاده هواجس الشباب وأَحلامه، فبينما هو مُستغرق في تشاؤمه مُسرف

فيه، إذا به يميل بغتة إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد في تحصيل دروسه وأن يكون خير مثال للطالب المجتهد، ويذهب به التفاؤل إلى أن يعتزم العمل على أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس، فإن لم يتفق له هذا في نواحي الكفاية والبطولة، فليس ذلك بمانعه أن يبلغ مأربه في أن يصبح أغنى بني الدنيا وأشهرهم مكانة.

ولكنه لا تكاد تنقضي أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه وإلى بطالته ولهوه، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده، وهو فتى قوي البدن مُتدفق الحيوية يكاد يلتهب مما يُخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إسرافه فيما يطفئ به هذا الظمأ المتصل، وما يزال به شيطانه يغريه ويُزين له كثيرًا من الإثم، ويسوقه إلى مهاوي الفتنة حتى يوقع في حبائله عذراء من الخدم ذات ملاحة فيغويها ويقضي منها وطره! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاة من البيت إلى حيث تتلقاها مهاوي الرذيلة، ثم يطويها الموت قبل أوانه على صورة مُحزنة نكراء.

وما يعنينا هذا الفعل إلَّا لأنه استقر في أعماق وجدانه، فكان منه حين تجاوز السبعين من عمره صورة فذة لأهم شخصية في قصته «البعث» التي تُعد من أعظم آثاره الفنية وأخلدها.

ويضطرب الفتى اضطرابًا شديدًا بين وساوس الشباب، فما يكاد يُخالجه الندم على ما يعده تفريطًا منه في جنب الفضيلة، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة، ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطُهر والعفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأُمور، ولكنه لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه.

وهكذا ما يزال الفتى يتعلق بالكمال مرة، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة، ويرضى عن نفسه حينًا ويجثم على صدره الندم حينًا، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأي.

وللمرء أن يعجب حقًّا من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأُمور في سن كسنه

يومئذ، ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسى أَن تثير من عجب، بل إِنه كان يخشى أَلَّا يُصدقها المرء أَو أَن يردها إِلى المبالغة في القول كما ذكر ذلك في كتابه «عهد اليفاعة». فما كان التفكير المتصل في الحياة والناس، وما كانت الرغبة في بلوغ الكمال وتلمس السبيل إِلى تحقيق تلك الرغبة مما يُكافئ تلك السن ولا ذلك الوضع الذي كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات، وحسب أَنداده أَن يقرأَ الفتى منهم قصة أَو يلهو بديوان شعر.

ولكنه كان فيما يشبه الحمى يومئذ مما كان يجول في رأَسه من أَفكار وما يهجس في نفسه من خواطر، وما يعتلج في تلك النفس الحائرة من رغبة في السمو ومن طموح نحو المثل الأَعلى، وإِن تولستوي الفتى اليوم لهو صورة مُصغرة لتولستوي الكاتب العظيم في غد، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن وبالدين وبمسائل الاجتماع، ويوم يبحث حائرًا قانطًا أَول الأَمر عن الغرض من هذه الحياة، حتى تنزل السكينة عليه إِذ يرى أَن الغرض من الحياة يتلخص في العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال.

وإِن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بِأَن يبلغ ما يطمح إِليه من رفعة لدليل لا يدع مجالًا للريب على أَنه فطر على البحث عن الحقيقة وأَنه من العباقرة القلائل الذين تفطن بهم الإِنسانية إِلى سر وجودها، والذين يأْتون إِلى العالم على فترات من الزمن ليقيموا الدليل بوجودهم في ذاته على أَنه حياة الإِنسان جديرة بِأَن يحياها الإِنسان.

وإِنك لتجد مثلًا لما كان يُعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه «عهد اليفاعة» قال:

«كنت يومئذ في نحو السادسة عشرة، وكان العرفاء لا يزالون يترددون علي، وكنت أَتهيأ في فتور وكره لأَلتحق بالجامعة.. وفي ذلك الوقت الذي أَعده نهاية اليفاعة وبدء الشباب، كانت تقوم أَحلامي على مشاعر أَربعة: أَولها حُبي «لها»؛ تلك الفتاة الخيالية التي كنت أَحلم بها دائمًا على وتيرة واحدة والتي كنت أَتوقع أَن أَلقاها في أَية

لحظة وفي أي مكان، وثانيها محبتي في أن أَغدو محبوبًا؛ فقد رغبت في أَن يعرفني كافة الناس وأَن يحبوني، وربت في أَن أصرح باسمي فأَجد من الناس جميعًا ما يدل على اهتمامهم بما أصرح به وأَراهم يحيطون بي فيسمعوني شكرهم إياي على أَمر ما، وثالثها أَملي في حظ عظيم غير عادي، وقد بلغ من تسلط هذا الأَمل على أَن أشرف بي على الجنون، ورابع مشاعري وهو أَهمها كان إحساسي باشمئزازي من نفسي واستشعاري الندم، ولكنه كان ندمًا مُمتزجًا بالأَمل في السعادة ولذلك لم يُخالطه الحزن.. ولقد أَحسست السرور في نفوري من الماضي وحاولت أَن أَجعله أَكثر اسودادًا مما كان عليه في واقع الأَمر، وذلك أَنه كلما كانت ذكرياتي عن الماضي أَكثر سوادًا، ظهر لي الحاضر الناصع الواضح أَكثر وضاءة ووضوحًا، وتراءت لقلبي أَحلام المستقبل أَكثر جمالًا وبهجة، ولقد كان ذلك الصوت المنبعث في نفسي صوت الندم والرغبة القوية الحادة في بلوغ الكمال هو الإِحساس الرئيسي لروحي في تلك الحقبة من نموي، وكان هو الذي رسم لي أَساس نظراتي في نفسي وفي البشرية وفيما خلق الله من كون».

وكان له يومئذ صديق في قازان، وهو فتى طويل القامة، عريض المنكبين حسن الهيئة، في وجهه ملاحة ورقة، يبتسم عن أَسنان جميلة دقيقة، ويزين رأسه شعر مسبل ناعم، ولكنه كان على الرغم من ذلك خجولًا كصاحبه إذا لقى الناس، بل لعله كان أَشد منه خجلًا وأَكثر حساسية.

وقد حبب هذا الفتى إلى تولستوي إخلاصه لما يعتقد من رأي وتحمسه له وصراحته في التعبير عمّا في نفسه مهما يكن من أَمره، وقد سأل دياكوف ذات مرة — وهذا هو اسمه — صاحبه تولستوي قائلًا أَتدري لماذا أَحبك أَكبر مما أَحب غيرك؟ ذلك لأَنك صريح لا تكتم شيئًا في نفسك، وهكذا يجتمع الفتيان على الصراحة فتربط بينهما، وإِنهما ليتقاربان في كثير من ميولهما، ويتضح لهما ذلك فيما يدير إنه بينهما من حوار في أُمور كثيرة، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأَركانه من حكومة وتعليم ونُظم مالية وما إِليها.

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير في حياة صاحبه، فما فرغ من محاورته مرة إلَّا قويت في نفسه الرغبة في العمل على الكمال المنشود، والانطلاق من حياة اللهو والعبث، تلك الحياة التي يذهب فيها العمر سدى، ولئن لم يك لتولستوي ما لصاحبه من حُسن الهيئة فليس ذلك بمانعه أَن يعمل على كسب ما يحمل الناس على الإعجاب به، مما هو أَهم وأَجدى من المنظر وحسن الطلعة، بل إِنه لحافزه إِلى ذلك العمل الذي يعقد عليه عزمه.

على أَنه عزمٌ كأَكثر ما يعتزم الشباب، فما يلبث أَن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومغرياتها، ولكم اضطرب تولستوي بين عزمه وبين لهوه، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه.

وكان دياكوف هو شخصية ديمتري في كتاب «عهد اليفاعة»، فما يفوت كاتب الغد أَن يصور أَشخاصه كما رآهم في مُضطرب الحياة، ولن ينسى شيئًا مما رأَى أَو يسهو عن أَمر يتصل بما يقوم في رأَسه من فكرة مهما بلغ من ضآلة هذا الأَمر، وتلك ناحية من أَهم نواحي مقدرته الفنية يوم يغدو أَعظم من كتب القصة في أَدب قومه وأَحد أَفذاذها القلائل في أَدب أُوربا كله.

وستمضي الأَعوام ويبقى أَثر دياكوف في نفسه، فقد كان مما أَوحته إِليه صحبته عبادة الفضيلة، وأَن غاية الإِنسان في الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أَبدًا، وسوف يظهر أَثر دياكوف في قصة الحرب والسلم فيما جاء على لسان «أَندري» أَحد شخصيات القصة قبل معركة أولسترلتز إِذ يقول «إِني أَرغب في المجد، أَرغب أن أكون معروفًا عند الناس وأن يبني الناس وما لي رغبة غير هذه، وما أَعيش إِلَّا من أَجلها.. وإِني وإِن كان ذلك مني أَمرًا مروعًا غير طبيعي لأُضحى حتى بأَعز الناس عندي في سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أَعرفهم من الناس ومن سوف لا أَعرفهم بعد أَبدًا».

# طالب فاشل

لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أَراد أَن يلتحق بجامعة قازان، واختار قسم اللغات الشرقية إِذ كانت بغيته أَن يكون في غده من رجال السياسة، وكان لا بُد لمن يلتحق بهذا القسم أَن يجتاز امتحانًا في اللغات العربية والتتارية والتركية، مُضافًا إِليها بعض اللغات الغربية وبعض فروع المعرفة العامة، ونجح الفتى في بعض مواد هذا الامتحان وأَخفق في بعض، وقد حصل في اللغة الفرنسية على أَعلى درجة وتفوق في الأَلمانية والعربية والتركية، وكان أَقل من ذلك جودة في المنطق والرياضة واللغة الإِنجليزية والأَدب الروسي، أَما التاريخ والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إِلى حد بعيد، وقد ذكر عن نفسه أَنه سئل أن يعدد الموانى الفرنسية فما استطاع أَن يذكر منها واحدة، ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح وقبلته الجامعة مُنتسبًا.

وجلس بين صفوف الطلاب، مُنصرفًا أَكثر وقته عمّا يقول الأساتذة، يقلب عينيه في أَقرانه حينًا فيعجبه منظر هذا وتضحكه هيئة ذاك، وينظر إِلى الأَستاذ حينا فيسخر مما يقول أَو يرسم له صورة هزلية، ثم ينشغل عمّا حوله حينًا كأَنما أَخذته عن نفسه حال فما يفيق إِلَّا على نهوض الطلاب ينطلقون من درسهم، فيسرع في انطلاقه منه لأَنه ضائق به.

وكيف يجعل الفتى للدرس باله وإِنه لفي شغل تارة بما يطوف برأَسه من أَحلام الشباب وأَوهامه، وآونة بما يهبط على خاطره من أَفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة.

أَما عن الشباب وأَحلامه فقد كان له في قازان مجال أَي مجال للهو واللعب، وألفى الفتى نفسه وقد أَخذ حب اللهو عليه كل مذاهبه وطالعته مفاتن الحياة ومسراتها من جميع أَقطاره، وهو فتى متوثب الشباب تعتلج في نفسه عواطف شتّى من

الحب والطموح والشهوة وكل ما هو بسبيل من هذا، ولذلك ألقى بنفسه في متع الحياة صالحها وفاسدها وأرخى العنان لشهواته ونزواته، حتى لينسى في تلك المسرات كل ما عني به نفسه من قبل من رغبة في الكمال.

والكمال عنده يومذاك أَن يلبس أَحسن الثياب وأَجملها وأَن يفتنَّ في اختيار الأَلوان حتى يحمل الناس على الإِعجاب بذوقه، ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أَدى به إِلى كثير من الإِسراف في هذا السبيل، ثم إِنه يلعب الورق ويشرب الخمر في جماعات من لداته، ويدخن الطباق في غليون جميل يحرص أَن يكون ثمنه أَغلى ثمن، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللمعان، ويتكلم الفرنسية في أَناقة مُتكلفة، وإِنه لشهد كل حفلة يقيمها أرستقراط المدينة وذلك بدعوة من أَصحابها فما يفوت أَحدًا أن يدعوه وقد أمسى شخصية من شخصيات المجتمع، وإِنه ليبذل قصارى جهده أَن يلفت الأَنظار إِليه، ولكم يبهجه أَن يتحقق له ما يريد وبخاصة إِذا ظفر بنظرات الأوانس، ولكم يؤلمه ويكدر عليه عيشه أَن يُصادف حد عدم الاكتراث له أَو الفتوة في تحيته، وإِنه ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويُخالف ويُعارض ليبرهن على أَصالته وقوة شخصيته.

وإِنه ليغشى دور اللهو جميعًا، فيتكلف أَكثر ما يستطيع من مظهر أَرستقراطي في حديثه وتحياته ومشيته وجلسته، ويدلي بآرائه فيما يشهد من تمثيل أَو يسمع من موسيقى، ويأَخذ بقسط من الرقص، وإِن كان لا يحسنه كما يجب أن يحسن.

وإِنه ليحسب أَكثر من مرة أَنه نضوحب، فيُخيل إِليه تارة أَنه أَسير هوى لشقيقة صاحبه دياكوف، وتُحدثه نفسه أَنها خير ما يختار من زوجة، ثم إِذا به يتجه بخياله وقلبه إِلى صديقة زلأُخته ماري إِذ يراها وهي طالبة في معهد عالٍ تجمع إِلى جمال الخلقة حسن الخلق وسعة الثقافة، ولكنه لا يلبث أَن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثًا، على أَنه يُؤثر أَن يموت بين يديها على أَن يُكاشفها بما يحس نحوها من حب.. ولن تزال أَحلام الحب تطوف بقلبه شأَنه في ذلك شأَن غيره من الشباب، ولا تزال الرغبة في الزواج تلح على نفسه وتُوحي إِليه كثيرًا من الأَماني العذاب، ولكنه لا

يستقر على رأي، وقصاراه أَن يحلم بمن يتوق إِلى أَن يحبها لتكون له زوجًا تجمع بين صدق العاطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلما يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها، وأَنّى له أَن يظفر بهذه الزوجة التي لا يجدها إِلَّا فيما يحلم من حلم؟

ولم يقتصر الفتى على الأَحلام، فقد كان طِلْبَ نساء يسعى إِليهن ويسعين إِليه ولا يتورع أَن يتسلل إِلى بيوت يتهامس الناس بأَسمائها ويتغامزون إِذا مروا بها، ولن تخرج المرأَة في رأَيه عن إِحدى اثنتين، فإِما واحدة يلهو بها ويطفئ لهيب جسده، وإِما ثانية يحلم بين يديها أَحلام الزواج والعفة ولا يستطيع خياله أَن يتجه لحظة أَمامها إِلى معنى من معاني السوء، ومن عجيب أَمره أَنه على تنبله بالثياب والمال وعلى حيويته وقوة بدنه كان خجولًا شديد الاضطراب إِذ وجد نفسه بين أَوانس أو سيدات مهما بغت ألفته لهن، أَو إِذا تحدث إِلى فتاة أَو سيدة، فما يزول عنه خجله أَو يُبارحه اضطرابه إِلَّا بعد حين.

ومن كان يحيا حياة كهذه مطلق العنان مسرفًا في اللهو كان حقيقًا أَن يفشل في طلب العلم، ولذلك فشل تولستوي فشلًا كبيرًا، على أَنه يُحاول أَن يُبرئ نفسه فيرد سبب إِخفاقه إِلى اضطغان أستاذ التاريخ الروسي عليه — ويزعم — أَنه كان حسن الإِلمام بهذه المادة، كما يعلن أَن هذا الأُستاذ أسقطه كذلك في اللغة الأَلمانية على الرغم من أَنه يجيدها أَكثر من أَي طالب آخر في قسمه، بما لا تجوز معه المقارنة.

وترك تولستوي كلية اللغة الشرقية إِلى كلية القانون، ولكنه في عامه الثاني بالجامعة لم يك أحسن حالًا منه في عامه الأول، فقد ظل مسرفًا في لهوه لا يقف فيه عند حد، يسهر أَكثر لياليه في مجونه حتى يسفر الصبح، ولبث على هذه الحال حتى انتصف العام الدراسي أو جاوز المنتصف.

وكان في الجامعة يتنبل بماله وثيابه، يصل إِليها على جواد جميل وحوله بعض الخدم، ولا يُجالس أَو يُصاحب إِلَّا من يراه في مثل طبقته، ويترفع على من يراهم دونه، ولذلك كان بغيضًا إِلى هؤلاء ثقيلًا عندهم، قال أَحدهم يصف شعوره نحوه

«لقد كنت أبتعد عن الكونت، ذلك الذي نفرني من أَول الأمر تظاهره بالجفاء، كما نفرني شعره القصير الخشن وما ينبعث من عينيه نصف المقفولتين من معانٍ تخز النفس، الأَمر الذي يُعد غريبًا كما أَنه لا يفهم، وقلما كنت أقابل الكونت أول الأمر، ذلك الذي على الرغم من قميئ منظره وخجله قد اتخذ له رفقة ممن يدعون الأرستقراط، وقلما عني بِأَن يرد تحيتي كأنما يريد أن يشير بذلك إِلى أَننا أَبعد من أَن نتساوى حتى في هذا المكان، حيث أَنه يأتي إِليه في عربة أَو على ظهر جواد وآتى أنا راجلًا». وذكر هذا الزميل مرة أُخرى أَنه تصادف أَن حبس في حجرة بالكلية هو وتولستوي بعض الوقت عقابًا لهما على تقصير، فرأَى تولستوي في يده كتاب تاريخ، فقال إِن التاريخ في رأَيه أَتفه موضوع، فما هو إِلَّا مجموعة من الخرافات والتفاصيل العديمة الجدوى تتخللها طائفة من الأَرقام وأَسماء الأَعلام، وتطرق الحديث إِلى الشعر فتهكم تولستوي وسخر من الشعر، ثم تحدث عن التعليم الجامعي بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إِلى أَن قال «ويحق لنا أَن نتوقع أَننا نترك الجامعة حقًا، وأي شيء نصلح له ولمن من الناس نكون ضروريين؟».

هذا هو رأي زميله عنه، ولكن الذين عرفوا تولستوي وقد نسى تكلفه يجدونه شخصًا غير هذا، فهو ذكي الفؤاد مُحبب العشرة إِلى رفقائه، طيب القلب، واسع الأُفق، متوثب الروح، صادق الحماسة لما يعتقد أَنه حق أَو صواب.

وهو في أَثناء إِجازته الصيفية في ياسنايا، ينسى ما كان منه في المدينة من تكلف يبعد به عن طبيعته، ولو أَن أَحدًا من خلانه رآه هُناك لأخذه العجب من أَن يكون هذا هو الطالب الأرستقراطي الذي عرفه في الجامعة، فهو هنا في القرية يستحم في النهر ويجلس تحت شجرة يُطالع قصة فرنسية، ويصيد السمك أَو الطير ويمشي في الغابة ما وسعه المشي وقد أَطلق نفسه على سجيتها، فلا أَناقة في ملبس ولا تكلف في مشية أَو جلسة أَو حديث، وإِنه لينام في شرفة ويأكل حيث يحب ويلبس ما يُلائم لبسه الحر فحسب، حتى إِذا عاد إِلى المدينة رجع إِلى تكلفه وأرستقراطيته.

وتجده بعد إِسرافه في لهوه يعود بعد مُنتصف العام الدراسي الثاني إِلى شيء من

الجد، ويجد لذة في دراسة القانون المقارن والقانون الجنائي وعقوبة الإعدام ويقبل على القراءة إقبالًا شديدًا حتى ليتجاوز المقرر كثيرًا في هذه الموضوعات، ويأنس منه أُستاذه هذا الإقبال فيُكلفه أَن يقارن بين كتاب منتسكيو «روح القوانين» وبين قانون كاترين الثانية، فيجد الفتى في هذه المقارنة مُتعة عظيمة حتى ليميل إلى ترك الجامعة كي يستطيع أَن يقرأ ما يحب أن يقرأ في غير قيد بما يتطلب المنهاج، فإنه إذا أَقبل على قراءة شيء أَحبه لا يحب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفي منه ما يريد. ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتابين بأَن كاترين في كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها، وأَن هذا الكتاب قد أجدى على كاترين من الصيت أكثر مما أجدى على روسيا من الخير.

وفي شهر مارس من سنة ١٨٤٧ يصيبه المرض ويلح على بدنه القوي فيحمل إلى مستشفى يقضي به أيامًا، وهُناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أَهم مصادر تاريخ حياته، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره، ولم ينقطع عنها إلَّا بضع سنين ثم عاد إليها.

وكانت أَول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله: «ليس يصحبني خادم هنا ولا يُساعدني أَحد، وعلى ذلك فن يُؤثر مُؤثر خارجي في ذاكرتي أَو حُكمي على الأَشياء، ويجب تبعًا لذلك أَن يزداد نشاطي العقلي.. وإن أَهم ما كسبته من ذلك هو أَن أَرى في وضوح أَن تلك الحياة المضطربة التي يعزوها الناس عرفًا إلى الشباب إنما مردها في الحق إلى فساد روحي مُبكر، إن من يعيش في جماعة يجد في العزلة من الفائدة مثلما يجده في الجماعة من كان يعيش في عزلة، وما على المرء إلَّا أَن ينسحب من الجماعة وينطوي على نفسه ليرى كيف يطرح عقله ذلك المنظار الذي كان يرى خلاله كل شيء حتى ذلك الوقت في ضوء مهوش.. ولأَن يكتب المرء عشرة مُجلدات في الفلسفة أَهون عليه من أَن يُحقق فكرة واحدة تحقيقًا عمليًا».

وفي مُنتصف أَبريل من تلك السنة كتب في يومياته يقول: «لقد فشلت مُنذ

قريب في أَن أجعل سلوكي كما أريد، وكان مرد ذلك بادئ الرأَي إِلى أَنني تركت المستشفى، ثم بعد ذلك إِلى من أَجدني أَعود إِلى مُخالطتهم من رفقة يومًا بعد يوم، وأختتم ذلك بأَنه ينبغي أَن يقودني تغيير المكان إِلى أَن أفكر في جد كيف تؤثر فيَّ الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع».

ويتفكر في مُستقبله فيعاوده ما كان يطمح إِليه من كمال على الرغم مما أسرف فيه من عبث ولهو فيقول: «إِني أجدني دائمًا بحيث يُطالعني هذا السؤال: ما الغرض من حياة الإِنسان؟ وبغض النظر عمّا بلغته بطول تفكيري من نتائج وعمّا أَعده في رأيي منبع الحياة، فإِني ما أزال أصل إِلى خاتمة لا تتغير ومؤداها أن الغرض من الوجود الإِنساني إنما هو أَن نبذل أَكبر عون نستطيعه في سبيل أَن يرقى كل شيء حي رقيًا عالميًا عامًا، وإِني لو لم أجد غرضًا لحياتي لكنت أَشقى بني الفناء، على أَن يكون غرضًا نافعًا عامًا.. وعلى ذلك فيجب أَن تكون حياتي مُنذ اليوم كفاحًا دائبًا نشطًا في سبيل تحقيق هذا الغرض الذي ليس لي غرض سواه».

ويعود الفتى إِلى اعتزامه وما يقطعه على نفسه من مواثيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد في عاميه القادمين بالقرية، فسيدرس القانون كله ليتهيأ للامتحان النهائي بالجامعة، وسيدرس الطب العملي وقسطًا من ناحيته النظرية واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والإِنجليزية والطليانية واللاتينية، والزراعة النظرية والعلمية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية، وسيدون ما يعن له من مُلاحظات وسيبلغ درجة الكمال في الفن والموسيقى، وسيكتب في المقالات في شتّى المواضيع التي يدرسها، إِلى غير ذلك من أَلوان الجد والدأَب.

ثم إِنه يقطع على نفسه عهدًا أَن ينجز ما عقد عزمه عليه مهما تكن العقبال وأَن ينجزه على خير وجه وأَلَّا يرجع إِلى الكتب فيما نسى من أَمر بل يعمل على أَن يسترده من ذاكرته، وأَن يحرص أَن يبذل عقله أَقصى ما في وسعه من طاقة، وأَلَّا يخجل من أن يُصارح من يقطعون عليه عمله بأَنهم يعوقونه عنه، وليدعهم أَول الأَمر يشعرون بذلك، فإِن لم يفهموا فليصارحهم به في شيء من الاعتذار.

وحق للمرء أَن يعجب من هذا الذي يعتزمه الفتى بعدما كان من لعبه وبطاته، ولعل إسرافه على نفسه هو الذي يُوحي إليه ما عسى أَن ينسيه ذلك لاعبث ويعوضه عمّا فاته من جد، وفيم العجب والشباب يتخيل أَنه قادر على كل شيء، فلننظر ماذا أَنجز الفتى من هذا الذي جمع العزم عليه.

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما، ففي سنة ١٨٤٦ خرج أَخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش، وعاش ليو مع أَخويه الباقيين في بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمتهم فلا رقيب عليه، وبعد أَشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت ياسنايا بوليانا من نصيب ليو، مُضافًا إليها أربع ضياع أُخرى تبلغ أربعمائة وخمسة آلاف من الأفدنة، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلثمائة من الفلاحين الذكور ومن ورائهم أُسرهم، وفي يناير سنة ١٨٤٧ يحس ليو بكثير من الضيق بعد أَن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدنية وملاهيها وغرورها، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبعد اسمه من سجلاتها مُعتذرًا بسوء صحته وبأُمور تتصل بمطالب أُسرته وينطلق من الجامعة إلى غير عودة، فهل هو فاعل في غده ما تخيله في قازان من ضروب الجد؟

# بين الجد واللهو

ودع تولستوي قازان وفي نفسه أَنه ودع اللهو والعبث فما إِليهما من عودة، وبلغ ياسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها أَنها غدت من نصيبه، وإِنه ليشعر أَنه أَصبح مسؤولًا عنها وعمّن يعيش فيها من الناس، ولقد زاد هذا الشعور لا ريب في نفسه العزم أَن يطلق حياة اللعب والعبث.

ثم إِن فكرة تُسيطر على لبه اليوم وتملأُ جوانب نفسه، ومؤداها أَن يعمل في جد على إِصلاح حال الفلاحين في الضيعة وما جاورها، فما يليق به أَن يذرهم فيما هم فيه من جهل وبؤس.

وتستمع إِليه العمة تاتيانا دهشة مُبتسمة فما يخرج الأَمر عندها عن أَن يكون نزعة جديدة من نزعات الشباب، ولكنه يعود كل يوم إِلى هذا الحديث وإِنه لأقوى عزمًا وأكثر جدًا، وإِن تفكيره في هذا الأَمر ليصرفه عن القراءة وعن الموسيقى التي أَحبها حُبًا عميقًا خبرته عمته، وإِنها لتجلس إِلى البيان تُحاول أَن تُمتعه بلحن مما يحب، فما يروعها إِلَّا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث إِصلاح الفلاحين.

وتعجب عمته ويزداد عجبها إِذ تراه يتخذ لنفسه زيًا خاصًا به، يعتزم أَن يلبسه في كل وقت وفي كل مكان لأَنه يظهره في مظهر الفيلسوف، ولكن الفتى لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقي به لأَن أحد الزائرين لم يتمالك نفسه ذات مرة من الضحك من مظهره، وكره الفتى أَن يكون موضع استهزاء، وهو الذي طالما تأَنق وتنبل بالثياب.

وما الذي أَلقى في قلب الفتى هذه الرغبة القوية في إِصلاح حال الفلاحين؟ أَهي مُجرد نزعة من نزعات الشباب حقًا؟ أَم هي خيال أَلقاه في نفسه قراءة قصة حديثة تُسمى «القرية» ألفها قصصي يُدعى جريجوروفتش وصور فيها حياة الفلاحين صورة

مُؤلمة تبعث في النفوس شعور الرثاء لحالهم؟ أَم أَن مرد ذلك إِلى تلك العاطفة التي عُرِفَ بها مُنذ طفولته وهي أَنه يحب أَن يرى الناس جميعًا حوله سُعداء؟ الحق أَن الفتى ما كان ليستطيع أَن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لها قلبه الإِنساني الرحيم، وكيف كان يطيق أَن يسمع فيما يسمع أَن امرأة قضت نحبها من الجهد، وأَن المرض يفتك بالناس فلا يستطيعون له دفعًا، وكيف كان يطيق أَن يخروا على قدميه سجدًا يسألونه القوت، لقد كان ذلك يُؤلمه أشد الأَلم أو كما يقول «إِن ذلك كان يُؤلمني كما تُؤلمني ذكرى جريمة ارتُكبت ولم يكفر عنها».

على أَنه يعجب أشد العجب من إِعراض الفلاحين عن إِصلاحاته، ويأَلم إِذ يرى في وجوههم الشك والإِنكار والعناد، وإِذ يسمع أَنهم يصفون ما بنى لهم من أَكواخ جديدة بِأَنها سجون، وأَنهم برمون بالمدارس التي افتتحها لأَبنائهم والتي كان يُعلمهم فيها بنفسه أَحيانًا، فعندهم أَن هذه المدارس تحرمهم من معاونة أَبنائهم إِياهم في أَعمال الزراعة، ويقلب تولستوي كفيه حائرًا من أَمرهم، وفي نفسه شعور الغضب ومرارة الخيبة.

ولا يلبث اليأَس أن يصرفه عمّا شرع فيه، فينصرف عنه مكرهًا لأنه كان شديد التعلق به، يدلنا على ذلك ما جاء في قصة كتبها بعد سنوات قليلة، هي القصة المسماة «صباح أَحد المالكين» فقد صور فيها أميرًا يحلم بِأَن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أَقواتهم، ويصلح رذائلهم التي تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات، ويجعلهم يحبون الهدى والحق، وفي هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليعود إِلى القرية ويكتب إِلى عمته برغبته في إِصلاح حال الفلاحين في ضياعه قائلًا بعد أَن يصف مبلغ بؤسهم: «أَليس واجبي الواضح المقدس أَن أعنى بحال هذه الأَنفس السبعمائة التي سوف يسألني الله عنها حسابًا، ثم أليس من الإِجرام أَن أجري وراء أَنماط من اللهو والطمع بينما أَدعهم لمشايخ أَو رؤساء، هم عليهم خشن غلاظ؟ ولم أَبحث في نواحي أُخرى عمّا عسى أَن يظهرني بمظهر الرجل النافع الخير في حين أَن أمامي هذا الواجب الوضيء النبيل الذي أَعرفه عن وثوق وخبرة؟».

ولم يكن يدور بخلده أَن يجد من الفلاحين هذا الجمود، فما أَشد ما كره ما كان فيه من جد وما أَسرع ما أَقبل على لهوه وعبثه، وقد نما إليه أَن أَخاه سيرجي يعيش مع غجرية مُغنية عيشة مطلقة من كل قيد في ضيعته، فحبب إليه عبث أخيه أَن يعود هو كذلك إلى عبثه، فأَقبل على المجون واللعب وأَسرف في ذلك إسرافًا شديدًا وبخاصة في مُخالطة النساء مُخالطة لا تأَثم منها ولا تورع فيها، حتى لقد أَحدثت أثرها في بدنه القوي أو كادت، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف ندمه فإنه يكتب في يومياته في مُنتصف شهر يونيو سنة ١٨٤٧ يقول «ما أَصعب على من يقع تحت تأثير الشر أَن يزيد ما تنطوي عليه نفسه من خير.. هل أبلغ بعد الأمد الذي أجدني فيه مُستقلًا عن المؤثرات الخارجية؟ إن ذلك معناه في رأيي الوصول إلى كمال عظيم، حيث أنه في حال الرجل الذي يتخلص من العوامل الخارجية، تسيطر الروح على الجانب المادي منه بالضرورة فيبلغ ما يريد، وسأَضع اليوم لنفسي قاعدة جديدة وهي أَن الاجتماع بالنساء إن هو إلَّا شر من شرور المجتمع لا بُد منه، وعلى المرء أَن يتجنبه ما استطاع، وممن نتعلم في الواقع الشهوة والخنوثة والتفاهة في كل شيء إن لم نتعلمه من النساء؟ وعلى من تقع تبعة فقداننا تلك المشاعر الغريزية فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتصبر والعدالة إن لم تقع على المرأَة؟ إن المرأَة أشد استجابة من الرجل للمؤثرات، وكانت في عصور الفضيلة خيرًا منا، ولكنها الآن في عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا وأرذل».

ولتمح إليه العمة تاتيانا ذات يوم بقولها «إنه لا شيء يكون الشاب خيرًا مما يكونه ارتباطه بفتاة ذات خُلق»، ولكن توثب حيويته وعرامة فتوته وحبه الاستقلال، كل أُولئك يميل به عن أَن يركن إلى ما تقول.

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيكون له من ذلك مادة لفنه وسيفيد من لهوه هذا كما يفيد من جده، فما ينسى شيئًا مما تطالعه به الحياة، وسوف نرى نظرته هذه إلى المرأة سنة ١٨٤٧ وهو في التاسعة عشرة، تتجدد في قصة يكتبها سنة ١٨٨٩ وهو في الحادية والستين، وهي قصة كروتزرسناتا.

لم يعد للفتى أَمل في إِصلاح فلاحيه وأحس أنه يقضي أَيامه في ياسنايا عبثًا فصمم على الرحيل منها، وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٤٨ سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة مطلق العنان لا يلويه عن العبث واللهو شيء، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جموحه ويمد في حبال غوايته، ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعتها ليدرس القانون ثانية وليحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية.

***

وأَقبل الفتى على الدراسة في جد وعزم كأَن لم يعرف اللعب يومًا، وكتب إلى أَخيه في فبراير سنة ١٨٤٩ يخبره بما هو فيه من جد، وينبئه بِأَنه سيبقى في بطرسبرج إلى الأَبد، ويصف له في كتابه مبلغ ما للحياة في هذه المدينة من أثر في نفسه، فكل شيء يبعث على الجد والدأب، وكل امرئ يسعى سعيه حتى لن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة، ولن يستطيع المرء أَن يحيا هذه الحياة وحده، إلى أَن يقول لأخيه «أَعلم أَنك لن تصدق أني غيرت ما بنفسي وأَنك ستقول إنها المرة العشرون ولكن في غير جدوى، كلا.. لقد تغيرت الآن.. وفوق ذلك فإنني اليوم يُداخلني إحساس بِأن المرء لا يستطيع أَن يعيش بالنظريات والتفلسف، ولكنه ينبغي أَن يحيا حياة واقعية، أَعني أَنه يجب أَن يسلك سلوكًا عمليًا.. وهذه خطوة واسعة نحو التقدم».

وفي شهر أَبريل يجتاز ليو امتحانًا في القانون المدني والقانون الجنائي بتفوق ملحوظ، على أَن ذلك لم يكن في الواقع ثمرة جُهد مُتصل، وإنما كان ثمرة أُسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أَن يستوعبه من هاتين المادتين.

وفي شهر مايو يكتب لأَخيه فإذا به يقول في كتابه «أي سير يوشا.. أتوقع أَنك سوف تقول إني أكثر من عرفت ضعف عزيمة، ولكي أَكون أَمينًا، ينبغي أَن أَقول إن الله يعلم ماذا كنت أفعل هنا! لقد جئت بطرسبرج بغير سبب مُعين، ولم أَعمل هنا عملًا ذا عائدة، وقصاراي أني أنفقت مالًا كثيرًا حتى لقد تورطت في الدين، يا للغباء!

وأي غباء؟ لن تستطيع أن تصدق كيف يُؤلمني ذلك، وبخاصة تلك الديوان التي يجب أَن أُؤديها بِأَسرع ما في وسعي؛ وذلك لأنني إن لم أفعل فلست أفقد المال فحسب، بل أَفقد معه شرف سمعتي. أَعلم أَنك ستضج بالشكوى، ولكن ماذا عسى أن أصنع؟ إن الإِنسان يقترف مثل هذه الحماقة مرة في مدى عمره.. وإني لأَركن إلى عطفك إذ أرجو منك أَن تتدبر في إِخراجي من هذا الوضع الكريه حيث أجدني مُفلسًا يحيط بي الدين من كل جانب».

ويعتزم الفتى أَن يلتحق بالجيش في فرقة الفرسان مُتطوعًا في الحرب، وأَن يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل وكانت الحرب التي يريد أَن يتطوع فيها هي تلك الحرب الظالمة التي قذفت بها النمسا الأَحرار المجاهدين في المجر، أُولئك البواسل الذين رغبوا في الاستقلال عنها وردوا جيشها، وقد عصفت العواصف بِأَنحاء الإِمبراطورية حتى استعانت بالجيش الروسي فجاء لمعونتها خمسون ومائتا أَلف من هذا الجيش، وكانت روسيا تريد أَن تطفئ نار الثورة في المجر حتى لا تمتد إلى بولندة، وكانت تحت حكمها، فتخلع عنها نير الاحتلال، ومن عجب أَن يتجه تولستوي إلى التطوع في حرب ظالمة كهذه الحرب وهو الذي سوف يكون في غده من أَكبر الساخطين على العدوان وعلى الحرب أَيًا كانت بواعثها.

وكان لزامًا على من يتطوع أَن يقضي سنتين في صُحبة الجيش العامل قبل أَن يسمح له بحمل السلاح والقتال، ولكن تولستوي كان يطمع أَن يتخذ مكانه في الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أَن يبدي من مهارة وقوة، وإن خياله ليسهل له كل شيء، فما إن يُفكر في أَمر حتى يحسبه حقيقة واقعة، وإنه ليحدث نفسه بِأَن عمله في الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس، وسوف يخلق منه شخصًا جديدًا، إذ أَنه بهذا العمل ينجو مما يغريه به الفراغ والشباب من عبث ولهو.

ولكنه لا يلبث إِلَّا قليلًا حتى يكتب لأَخيه يقول له: «أثبت في كتابي الأخير إليك كثيرًا من اللغو، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة في التحاقي بفرقة الفرسان،

وسوف لا أَفعل ذلك إِلَّا إِذا فشلت في امتحاناتي أَو إِذا كانت الحرب ذات خطر».

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة في كل حي، وطافت بخيال الفتى مجاليه في أَسحاره وآصاله، هُناك في ضيعته المحبوبة يا سنايا بوليانا، فسرعان ما انطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان، وسرعان ما أَبعد عن فكره وخياله العمل في الجيش وفي الوظائف المدنية جميعًا، ثم أقبل على يا سنايا، وليس في نفسه هذه المرة من عزم إِلَّا تعلم الموسيقى!

# بين العبث والندم

لن يصبر الفتى على المقام طويلًا بيسنايا، فإن المدينتين: موسكو وبطرسبرج ما تزالان تدعوانه إلى مفاتنهما وزينتهما، وما إن يأخذ الفتى حظه من اللهو في إحداهما أو في كليهما حتى ينطلق إلى ياسنايا يطلب الهدوء ويأمل في التوبة، ويرجو أن يتفرغ لشؤون ضياعه، وعلى هذه الحال قضى الفتى ثلاث سنوات يلقي به طول عبثه إلى الندم، ويؤدي به سأمه من ندمه إلى ما كان فيه من عبث، وكان في حاليه يُمثل حياتي أخويه، فإذا أَمعن في عبثه ومجونه وعدم اكتراثه لشيء مثل حياة سيرجي، وإذا ندم وتقشف وزهد في الحياة الدنيا وزينتها عاش عيشة ديمتري.

ولم يقف عبثه عند حد في العاصمتين؛ فهو في ليله يسرف في الميسر ويغشى أمكنة اللهو وينتقل بين «صالونات» الأرستوقراط وأماكن الغجريات المغنيات، يقضي أرب مشاعره من الجمال والبهجدة، وغاية بدنه من الفسوق والرجس، وهو في نهاره يستمتع بالصيد أَو بركوب الصافنات الجياد، أَو يملأ فراغه بلعب الورق أَو الشطرنج أَو بكتابة ما يُداخله من ندم في دفتر يومياته، أو باللعب ساعة على البيان، وهو في ليله وفي نهاره يشرب الخمر ويصيب ما يلذه من طعام في أَشهر مطاعم المدينة وأَغلاها ثمنًا، يفعل ذلك في رفقة من صحابته يعبثون ويلهون كما يعبث ويلهو، ويفوزون منه بما ينفق عليهم من ماله.

ويُحاول أَحيانًا أَن يصنع ما نصحت به عمته تاتيانا إليه، وذلك أَن يرتبط بفتاة ذات خُلق وكرم مُحتد، فيدور بعينيه في سهرات الأرستوقراط يُطالع وجه الأوانس، ويخفق قلبه لهذه أَو لتلك، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الظُلمة إلى حيث يلقي بنفسه بين ذراعي إحدى الغجريات!

ويحلم تارة أَحلام الزواج فيهفو قلبه إلى الآنسات في صُحبة أُمهاتهن وقد تبرجن

وأبدين زينتهن، ويتظرف في حديثه ويظهر أكثر ما يستطيع من مظاهر الاستوقراطية والنُبل، ولكنه سرعان ما ينصرف عن هذا إلى ما يُوسوس به الشيطان من فجور وإثم يطفئ به ضرام بدنه القوي الذي ما يزال يلتهب من شهوة.

ويعود إليه تارة تخيله أَنه مُحب وأَنه أَسير هوى غادة عرفها في موسكو هي الأميرة شرباتوف، وإن كانت هذه الغادة لتجهل كل الجهل ما تحدثه به نفسه من حب، ولا تفطن إلى ما يخيل إليه أَنها بعثته في نفسه من عاطفة.

وكذلك تُساوره أَحيانًا رغبته في الكمال، تلك الرغبة التي تسلطت عليه زمنًا في قازان، ولكن الكمال هنا يتخذ منحى جديدًا غير منحى الثقافة والمعرفة، فهو يريد اليوم أَن يكون رجل مُجتمعات، يُشار إليه في المنتديات والصالونات، ويريد أَن يكون حدِيث مجالس ينصت إليه ذوو المكانة ويصفونه بِأَحسن أوصافهم من النُبل والتهذيب والظرف واللباقة، ولكنه لا يستقر على هذا الاتجاه وما هو إِلَّا أَن توسوس له أَقل المغريات حتى يعود إلى مجونه وجنونه، ليعب منهما ما يشاء له شبابه، ثم يعمد إلى دفتره فيثبت فيه ما يُخالجه من ندم ومن تأنيب منه لنفسه، وهكذا يحيا الفتى في المدينتين حياة لا تختلف عن حياته في قازان إِلَّا بما يكون من إفراط في اللهو وإسراف في المال.

ولن يزال الفتى كالفراش الهائم يطير من زهرة إلى زهرة، ومن ثمرة إلى ثمرة، أَو يقع على اللهب ليرتد عنه ثم يجذبه الضوء فينجذب إليه، ولا يجد ما يبثه خلجات شعوره ونوازع وجدانه إِلَّا دفتر يومياته، كتب في هذا الدفتر سنة ١٨٥٠ يقول وقد كان في موسكو «إن هذه ثالث سنة لي أقضي شتاءها في موسكو دون أَن أَكون في منصب ما، هنا حيث أقضي حياة سخيفة لا غناء فيها، حياة فارغة لا تهدف إلى غرض، ولم أحي هذه الحياة لأَن كل امرئ في موسكو يفعل مثلما أفعل، ولكن لأَن مثل هذه هيأَت لي أسباب المسرة».

وبلغت حالة من السوء في أَواخر تلك السنة بما أَسرف على نفسه في الميسر أَن أصبح يطلب القليل من المال فلا يكاد يجده، ولذلك فكر في أَن يشغل منصبًا يُرتزق

من وظيفته، واتجه إلى منصب مدير البريد في مدينة تولا، ولكنه لم يجد في نفسه المقدرة على أن يعمل عمل الموظفين فانصرف عن هذا المتجه.

ولكن ماذا عسى أن يصنع وقد اشتدت به الحاجة إلى المال وفدحته أعباء الدين؟ يا عجبًا! إنه يريد أن يحذق لعب الورق ليكسب المال من الميسر، عسى أن يعوض شيئًا مما خسره فيما سلف من لعبه، ولكنه ما لبث أن رأى أن الميسر ما كان وسيلة لكسب المال، وإنما هو كما عرف من قبل وسيلة لإتلافه، ثم إن الفتى يضيق بحياته هذه حتى ما يطيق صبرًا فيعود إلى ياسنايا بوليانا.

ويقضي الفتى في ضيعته بضعة أشهر لا يكدر عليه صفوه ولا يقطع هدوءه إلَّا إلحاح عاطفته الحيوانية عليه وظمأ بدنه ذلك الظمأ الذي لا يفتر، ولكنه يُغالب تلك العاطفة بكل ما في طوقه من عزم، ويصبر على ذلك الظمأ ما وسعه الصبر، ثم لا يلبث حتى يجد نفسه وقد غلب على أمره فعاد أكثر مما كان نهمًا وطمعًا. والحق أنه كان يُعاني كثيرًا من الضيق من جراء فشله كلما فشل في مُغالبة هذه العاطفة، أشار إلى ذلك مرة لأحد مُترجمي حياته بعد أن تقدم به العمر فذكر أنه ما من شيء كان أشق على نفسه من مُحاولته قهر هذه العادة التي تسلطت عليه فلم يقو على دفعها، ولقد كان يتأثم منها ويندم أشد الندم كلما مني بفشل جديد، تجد ذلك في مثل قوله سنة ١٨٥٠ «إني أعيش عيشة بهيمية، ولقد هجرت كل ما عسى أن يشغلني من عمل، وإن ذلك ليكدر روحي كدرًا شديدًا».

ولا يكاد الفتى يجمع من المال قدرًا حتى يعود إلى موسكو في مارس سنة ١٨٥١، وفي نفسه هذه المرة أن يبتعد عن كل ما يشين لأنه اليوم يريد أن يصل إلى مكانة مرموقة في المجتمع وأن يشغل منصبًا ذا خطر وأن يتزوج من ذات ثراء ومحتد.

وراح يغشى أواسط الارستوقراط يشهد الحفلات والولائم، يهمه أن يتعرف إلى العلية وذوي المكانة والنفوذ، إذا جلس في حلقة أخذ بقسط موفور من الجدل والحديث، وحاول ما استطاع أن يكون هو الذي يدير الكلام ويصرف وجوهه،

وحرص على أَن تكون آراؤه مُثيرة للدهشة أَو للانتباه أَو للمعارضة، واجتهد أَن يبرز أَقصى ما لديه من علم فيما يتشقق إليه الحديث من مسائل فيفيض ويشرح وجهة نظره ويسرد الأَمثلة ويبسط الحجج في لهجة المتمكن القادر.

وعادت تطوف برأسه أحلام الزواج، وعاد يتذكر ما تمنته له عمته تاتيانا، فقد كان أَجمل ما تمنته له أَن يتزوج بفتاة عظيمة الثروة وأَن يمتلك من رقيق الزراع أَكثر ما يُستطاع أَن يمتلك، ولكنه يرى أَن مثل هذا الرباط لن يكون إِلَّا بالحب، وهذا ما لا يحس أَنه انتهى فيه إِلى رأَي.

وكان لا يزال يطمع أَن يعينه بعض ذوي النفوذ والجاه من أَقربائه أَو أَصدقائه على أَن يظفر بمنصب من مناصب الدولة ينعم فيه بالمال والجاه، ولكنه لم يصل من ذلك إِلى كل ما يريد.

وكان قد صمم عند مجيئه إِلى موسكو أَلَّا يقرب الميسر وقد أَوصته عمته أَن يتحرر من هذه العادة المتلفة للمال الموبقة للروح، ونفذ الفتى أَول الأَمر ما عقد عزمه عليه وابتعد عن الميسر كل الابتعاد كأَنه أَمر ينفر منه بطبعه، ولكن ما كان أعجب عودته إِليه بعد قليل يأَمل من جديد أَن يجد فيه مخرجًا مما هو فيه من عُسر، ولعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة، ولكن الخسارة لم تزده إِلَّا إِسرافًا في اللعب وعدم اكتراث لما يكون للعب من عاقبة، حلوة كانت وكانت مرة قاسية المرارة، ولقد بلغ به الأَمر أَن رهن ساعته يومًا ليدفع ثمن معطف ذي فراء أَراد أَن يدخل على روحه بعض البهجة بلبسه والتنبل به وإِن صفرت من المال يده.

وضاق صدره بحياته على هذه الصورة وعزا هذا الاضطراب إِلى ضعف عزيمته، كتب في دفتره يقول «إِني أُلاحظ أَن أهم عاطفتين تتسلطان علي هما الميل إِلى اللعب ثم الغرور»، وراح يتهم نفسه كل يوم في دفتره ويندم ما وسعه الندم، وجعل لكل يوم من أَيام الأُسبوع في دفتر آخر فضائل يُؤديها وأخذ يشير بعلامة إِلى ما قصر في أَدائه حتى لا يعود إِلى التقصير في مثل ذلك اليوم من الأُسبوع التالي، ثم لاذ الفتى بالدين

فزهد الحياة أَيامًا وصام وصلى وأَلَّف دعاء يدعو به الله ليخرجه مما هو فيه.

ولمحت للفتى بارقة أمل، لم لا يجعل الأدب حرفة له؟ ألم تكن عمته تاتيانا على حق حين قالت له ذات يوم «إِني أعجب يا عزيزي ليو كيف لا تكتب رواية ولك مثل ما لك من خيال؟».

وكان الفتى يقرأ القصص أَكثر ما يقرأ، ولم ينقطع عن القراءة مهما شغلته الشواغل أَو ملأَ حياته اللهو، ولا يزال إِعجابه بروسو عظيمًا، وكذلك لا يزال يجعل لدكنز منزلة عظيمة في نفسه، أما الكتاب الروس فقد كان يقبل منهم على بوشكين وجوجول إِقبالًا شديدًا، وكان لثانيهما تأثير قوي في خياله وعقله، وبدأ يلتمع اسم ترجنيف وكان أَكبر من تولستوي بعشر سنوات، وقد نشر أَول كتبه سنة ١٨٤٧ وهو «مُذكرات رجل صيد»، وكان لهذا الكتاب كذلك تأثير عميق في خيال ليو ووجدانه، وبخاصة ما أَظهر مُؤلفه في فنه القوي المحكم من حياة رقيق الأَرض.. وقرأ الفتى لغير هؤلاء الكُتاب كُتب شلر وكُتب ستيرن وغيرهما من فحول القصة والشعر.

وتصادف أَن كانت قصة دكنز العظيمة دافيد كوبر فيلد تُنشر يومئذ تباعًا في إِحدى المجلات فأحدثت في نفسه أثرًا لم تحدث مثله قصة غيرها وظلت لها في نفسه المكانة الأُولى حتى آخر حياته.

وماذا عسى أَن يكتب الفتى؟ ذلك ما حيره أول الأمر حيرة شديدة، أيصف حياة الغجر كما فعل بوشكين وإِنه اليوم بهم عليم؟ أيكتب قصة عمته تاتيانا؟ لا، إِنه لا يميل إِلى هذه ولا إِلى تلك.. فماذا يكتب؟ ليصف زيارته بالأَمس لتلك الأَميرة شيرباتوف التي ظن أَنه يحبها، وأَقبل الفتى فوصف هذه الزيارة، ولقد نشرت هذه القصة الصغيرة حديثًا بعد أن عثر عليها، ورأى الناس أول عمل أدبي لنابغة كتاب القصة في القرن التاسع عشر، فإِذا بهذه الباكورة تنطق بكثير من دلائل عبقريته.

ويقول ليو في دفتره «إِن الوصف ليس كل شيء .. كيف ينقل المرء إِلى القارئ شعوره؟». قال ذلك لأَنه كان قد اعتزم أَن يجعل الوصف غايته من الكتابة فيصف

كل ما تقع عليه عيناه.

ثم بداله وكان أثر دافيد كوبر فيلد قويًا في نفسه أن يكتب أيام طفولته، وانكب على الكتابة كل صباح من الساعة الخامسة إلى الحادية عشرة، حتى أتم باكورة آثاره التي كتب لها الخلود.

ولكن حياة اللهو وا أسفاه تعود فتصرفه عن هذا الجد، فيقبل على لذاذاته ويسرف من جديد في مجونه وعبثه، ثم لا يجد آخر الأمر خيرًا من أن يلوذ بضيعته من هذه الحياة التي سئمها وسئم نفسه بسببها فيعود إلى ياسنايا في صيف عام ١٨٥١ ولم يتزوج من ذات ثراء ولم يظفر بمكانة في المجتمع ولا بمنصب خطير من مناصب الدولة، ولم يتحرر من الميسر ولا مما يوهن عزمه من نوازع بدنه القوي الذي لا تهدأ حيوانيته.

وأقام في القرية أيامًا يُخالجه شعور الندم على ما كان من عبثه الذي أسرف فيه على نفسه وشعور الحسرة على ما آلت إليه حاله من عسر ومن دين، وينظر اليوم إلى هؤلاء الرقيق الزراع الذين أراد إصلاحهم بالأمس فيؤلمه أنه انقلب اليوم مُبددًا لما تنتجه أيديهم من خير، فلا هو أصلحهم ولا أفاد من كدهم إلَّا ذلك المال الذي يذهب هباء في الميسر والترف والغرور والفسوق.

وينقاد إلى جموح بدنه في القرية كما كان يفعل في المدينة، لا يهدأ هذا البدن ولا ينطفئ لهبه، ولكنه يشعر باشمئزاز شديد ذات ليلة إثر فعلة من فعلات الشباب فعلها تحت جُنح الظلام، وكأنما استيقظت في نفسه مشاعر جديدة في تلك اللحظة جعلته ينكر هذا الذي فعل إنكارًا شديدًا كان أكثر قيمة من ذلك الندم الذي كان يُخالجه كل مرة ثم لا يلبث أن يموت.

كره الفتى حياته كُرهًا شديدًا، وضاق بالمقام في ياسنايا وفي موسكو وفي بطرسبرج، وما له غير الرحيل شفاء لنفسه ومنجاة لروحه، فليرتحل إلى حيث لا يجد شيئًا يذكره بالذي كرهه أشد الكره وأنكره كل الإنكار من مواطن مجونه وعبثه وفراغ حياته.

# روسيا لا تزال في الغسق

أهل على أُوروبا نور القرن التاسع عشر وروسيا ما تزال في الغسق، ولئن لاحت في أُفقها بشائر الفجر لحظة على يد قيصرها الإِسكندر الأول الذي ولى أمرها في أول أعوام هذا القرن فإِنها ما لبثت أن علمت أنه الفجر الكاذب!

كان الإِسكندر يريد أن يوجه همه إِلى النهوض ببلاده في الداخل، وقد اعتزم أن يجنبها ويلات الحرب في الخارج، ولكن سرعان ما فعلن أن طوفان الحرب لا بُد مدركه فحالف إنجلترا والنمسا وظاهرهما على نابليون، ومن ثم ذهبت بشائر الفجر أباديد في حلكة الليل العابس.

وما لبث أن ساق نابليون الجيش الأعظم ليذل به روسيا، ولكن حملته عليها كانت بداية نهايته، ولما حُمل بعد وترلو إِلى سنت هيلانة، أصبح القيصر في القارة مرموق المكانة عظيم الخطر.

ولكن هذا الوضع الذي هيأته الظروف لروسيا في سياسة القارة كان يتطلب رجلًا غير الإِسكندر، فلقد حار هذا الرجل بين دُعاة الرجعية وأنصار الحرية، كما أضله زمنًا تصوفه وحلمه اللذيذ الذي خُيل إِليه أن في الإِمكان أن تجعل أُوروبا تسامح المسيحية أساس العلاقات الدولية، وأخيرًا تغلبت عليه سياسة مترنح، فصار من أكبر أنصار الرجعية في القارة وفي روسيا، وفقد دعاة الحرية أملًا عللوا به أنفسهم برهة على يديه.

وأخذت أوروبا تُقاوم الرجعية، فكانت تلوح بشائر النور مرة وتختفي مرة، ولكنها كانت ترى كل مرة أسطع منها في سالفتها نورًا وأطول أمدًا حتى ذهب الليل وانهل النور فأضاء كل ركن في القارة ومحا كل ظلمة.

ولكن ليل روسيا قائم قاتم وآفاقها عابسة دامسة، وكان يدب تحت هذا الليل

نحو تسعة وأربعين مليونًا من الأنفس كلهم عبيد، ومن هؤلاء زهاء ثلاثة وعشرين مليونًا تابعون للقيصر، ومثل هذا العدد تابعون لملاك الأراضي، وما تبقى بعد ذلك للكنيسة، أو أوزاع وخدم.

ولم يكُ هؤلاء الملايين يملكون من أمرهم شيئًا، إذ كانوا في كل أمر خاضعين لمشيئة سادتهم لا ينتقلون من جهة إلى جهة غيرها ولا يمتلكون شيئًا أو يبيعونه إلَّا بإذن من هؤلاء السادة، وهم فوق ذلك مُكلفون بأَن يُؤدوا للسيد ما يطلب من المال ضريبة أو منحة وأن يعملوا مسخرين في أرضه، وللسيد إذا باع أرضه أن يبيعهم كما تُباع القطعان والسلع، وهو ينزل بهم ما شاء من أَنواع العقاب كالجلد والحبس والنفي إلى سيبيريا.

وكان السادة الأرستوقراط يعيشون عيشة مترفة، ولهم في قصورهم كل ما في الحياة الأُوروبية من مظاهر النعيم، فالموائد والحفلات الساهرة والأثاث والخدم على اختلاف أعمالهم ومراتبهم كل أُولئك على النمط الأُوروبي، وأخذت العادات وآداب المجتمع الأُوروبي تتغلب على عادات الروس وعرفهم في هذه البيوت الأرستوقراطية التي تجعل قياس التمدن الأَخذ بأَكبر قسط من كل ما هو أُوروبي حتى اللغة، فإنهم في هذا الوسط يتكلمون الفرنسية في حفلاتهم التي تجمع بين الرجال والنساء وفق الأُسلوب الأُوروبي.

وانحطت الحكومة، فلا أَمانة ولا عدالة ولا إصلاح، وكانت وظائف الدولة لمن يدفع من المال أكثر مما يدفع غيره، أَو لمن كان له بذوي الجاه صلة، فأَصبحت الرشوة أَمرًا لا غرابة فيه، وتفشت حتى تسللت إلى المحاكم دانيها عاليها، ولم يكن للحكومة منهاج أَو شبه منهاج للإصلاح، وحسب رجالها في المقاطعات أَن يجمعوا لأَنفسهم المال بكل ما وسعهم من حيلة وواتاهم من بطش.

وكان الملايين من الزُراع أَضعف من أَن يشتكوا؛ لهذا حملوا آلالام كما تحملها الدواب فلم يكونوا صابرين على حالهم وإنما لم تكن لهم فيه حيلة! ولقد كانت حال

هؤلاء المساكين أَسوأَ كثيرًا من حال المزارعين في فرنسا قبل ثورتهم الكُبرى، ولكن أُولئك الفرنسيين كانت بينهم طبقة امتلكت وتعلمت وتأَثرت بكتابة المفكرين والفلاسفة وهي الطبقة الوسطى، ومن بين صفوف هذه الطبقة انبعثت الشكوى ثم رجفت بعد ذلك الراجفة!

أَما في روسيا فلم يكن غير كُبار الملاك وهم السادة وملايين الزراع وهم العبيد، على أَن مقاومة الاستبداد في روسيا جاء على يد نفر من هؤلاء السادة المتملكين، الأَمر الذي يبدو عجيبًا لما فيه من تناقض، ولكن للمسألة وجهًا يُفسر هذا التناقض، وذلك أَن هؤلاء السادة لم يكرهوا الاستبداد ولكنهم كرهوا أَن تعتمد الحكومة القيصرية على طبقة الموظفين والحُكام ومُعظم رجالها من عنصر أَلماني، وتَمَلّ أَعيان الروس رغبة في القضاء على طموحهم نحو التسلط، ومن ثم رحب هؤلاء بكل شكوى تنبعث ضد القيصر وحكومته.

وثمة فريق آخر يعطف أَشد العطف على كل رغبة في الإِصلاح وهؤلاء هم رجال الجيش العائدون من فرنسا والقارة بعد سقوط نابليون وبخاصة الشُبان، فلقد امتلأَت قلوبهم بآمال وأَحلام، وعادوا إِلى روسيا آملين أَن يطلع على بلادهم نور يزيح عنها هذا الغسق، كما عاد لافاييت وأَقرانه من شباب فرنسا الذين تطوعوا في صفوف الأَمريكان في حرب استقلالهم إِلى وطنهم يحملون مبادئ الثورة ويرتقبون الميلاد الجديد.

وتسامع هؤلاء الرجال بالجمعيات السرية في القارة كالكاربوناري في إِيطاليا والهيتيريا في اليونان، فأَسسوا لهم في روسيا رابطة الخير العام، وجعلوها سرية بالضرورة، وتفرع من هذه الجمعية فرع في الشمال كانت وجهته الملكية الدستورية، وفرع في الجنوب كان لا يرى غير الجمهورية، كما نبتت في الجنوب جماعة سرية أُخرى جعلت منها جها ضم جميع السلاف في اتحاد عام.

ولكن هذه الجمعيات كانت كما وصفها أَحد الكُتاب «جيلًا لا آباء له ولا

أَبناء»، فظلوا لبعد أفكارهم ومبادئهم عن أذهان مُعاصريهم محصورين لا يكاد نطاقهم يتسع، ولم يأَتوا عملًا ذابال إلَّا في سنة ١٨٢٥، فإنه لما مات الإِسكندر ترك ثلاثة إِخوة كان أَكبرهم قسطنطين ولذلك فهو وارث الحكم، ولكن الذي ارتقى العرش كان نيقولا بدعوى أَن أخاه تنازل له عن حقه كما أراد القيصر المتوفي، وأحيط ارتقاء نيقولا العرش على هذا النحو بشبهات فانتهزت الجمعيات السرية الفرصة ورفضت فرقة جيش موسكو أَن تقسم يمين الولاء للقيصر الجديد، ووقعت بعض القلاقل في الجنوب، ولكن القيصر ما لبث أن تغلب على هذه الحركة في يُسر وتُعرف بحركة الديسمبريين لأَنَّها وقعت في ديسمبر من ذلك العام، ولقى بعض أَفراد الجميعات حتوفهم ونفى البعض إِلى سيبيريا. قال أَحد زعمائهم عند إعدامه «لقد كان خطأي أني حاولت أن أجمع الحصيد قبل أن أبذر الحب»، وقال آخر «لقد عرفت من قبل أن لا أمل لنا في النجاح، كما عرفت أَنه لا بُد أن أضحي بحياتي! إِن ساعة الحصاد آتية فيما بعد».

ولقد كان الحصاد الذي يرجون هو الحكم الدستوري والمساواة لدى القانون وتحرير الزراع، ولئن قضي عليهم اليوم فلم تذهب دماؤهم عبثًا، وما يقدم عبثًا دم دهو مهر للحرية الزهراء.

واشتدت حلكة الغسق في عهد نيقولا الذي عُرِفَ مُنذ البداية بالصرامة القاسية، وامتدت يد الطغيان إِلى كل مكان، فعلى كل ما يطبع من الكُتب والصحف وما يرد منها من الخارج رقيب عتيد له من السلطان ما يُمكنه من إِلقاء أَي شخص في غيابة السجن أَو نفيه بغير مُحاكمة، والشباب سُجناء في روسيا لا يسمح لهم بالتعلم في أُوروبا مخافة العدوى، ورجال الشرطة السرية يبثون عيونهم في كل ركن، ولا يحد سلطانهم قانون ولا عرف، ولا تقل آثامهم وفظائعهم عن فظائع محاكم التفتيش الإِسبانية في العصور الوسطى إِن لم تزد عنها فحشًا وهولًا، والقيصر مهيمن متربع على عرشه يحسب سكون الناس رضاء وولاء، أو لا يجري في حسابه شيء من عصيان أو ولاء.

ونسي القيصر أو لم يدر بخلده أَن الحرية يعمل لها أعداؤها وأنصارها على سواء،

فأُولئك يذيقون الناس لباس الذل والخوف ليزدادوا له مقتًا ويحتالوا على النجاة منه، وهلاء يذيقونهم الأَمن والسلام ليلذهم طعمه ويحرصوا على الدفاع عنه.

ونعم القيصر بالا بما يرى من هدوء، ولكن دوى العاصفة يسمع من خارج روسيا لا من داخلها، فها هي ذي حرب القرم تضعه وجيشه مُنذ سنة ١٨٥٣ تلقاء جيوش إنجلترا وفرنسا وتركيا مُجتمعة، ويتلفت القيصر باحثًا عن حماسة الروس فينقلب إليه البصر خاسئًا، إذ أن كل ذي رأي في البلاد ينقم على الجيش ضعفه ويعزو ذلك إلى ما شمل الحكومة كلها من فساد.. ويحرم الطاغية من الاحترام كما حُرِمَ من المحبة، ويوشك أن يسمع دويًا آخر من داخل بلاده، وأي دوي كان إذا مس أُذنه أشد إزعاجًا له مما احتواه ذلك المخطوط الذي تداوله الناس فيما تداولوا من المخطوطات على غفلة من الرقيب والشرطة السرية. قال مؤلفه فيما قال «يقول القيصر: لقد جعلني الله حيث أنا مُهيمنًا على روسيا، فعليكم أَن تنحنوا راكعين أمامي فإِن عرشي هو كرسيه، ولا تعنوا أنفسكم بالمصالح العامة فإِني أُفكر من أجلكم وأسهر على مصالحكم كل ساعة، إن عيني الساهرة تنفذ إلى المساوئ الداخلية وإلى ما يعده لنا في الخارج أَعداؤنا، وما أنا في حاجة إلى من يشير علي فإن الله يلهمني الحكمة، فافخروا إذًا أيها الروس بِأَنكم عبيدي واجعلوا مشيئتي قانونكم. ولقد أنصتنا معشر الروس إلى هذه الكلمات في خشوع عميق وسلمنا بها طائعين. فماذا كانت العاقبة؟ كانت عاقبة ذلك أن دفنت المصالح الحقيقية تحت جبال من أكداس الأوراق الحكومية، وصار يُستمسك بحرفية القانون في كل ما يصدر منا، بينما يترك الإهمال والجريمة بغير عقاب إذا جاءت من أَعوان الحكومة، هؤلاء الذين يتمرغون في التراب أَمام الوزراء ثم يسرقون في غير حياء.. لقد باتت السرقة أَمرًا مألوفًا حتى أَصبح أَكثر الناس احترامًا أَكثرهم سرقة، وصارت تُقرر كفايات الضباط بمجرد النظر، وإذا حصل شخص على منصب قائد فإنه في نفس اللوقت يُمكن عده حاكمًا قديرًا أَو مُهندسًا مُمتازًا أَو سياسيًا حكيمًا. وإِن هؤلاء الذين يختارون حُكامًا في الجملة هم طُغاة حقًا يُوكل إليهم عذاب الناس في الأَقاليم، وكذلك تملأَ المناصب الأُخرى دون أَقل مُراعاة

للاستحقاق، فسائس ا لخيل مثلًا يعين رقيبًا للمطبوعات! والماجن الأَحمق من حاشية القيصر يعين أَميرًا للبحر! وماذا صنعنا نحن معشر الروس طوال ذلك الوقت؟ لقد نمنا! أدى الفلاح ما فرض عليه وهو يئن ورهن المالك نصف ضيعته وهو يئن، وأدينا جميًا ما يطلب منا لرجال الحكومة ونحن نئن، ولقد هززنا رؤوسنا أَحيانًا في جد هامسين إن هذا عار وهوان، كما تهامسنا أَن لا عدل في ساحات العدل، وأَن الملايين يقضون حياتهم عبثًا في سبيل تمتع القيصر بسياحاته وجواسق حرسه ومباني أبهته وسرادقاته، إن كل شيء حولنا خطأ، ومع ذلك فإنا بضمير هادئ يُشاغب بعضنا بعضًا ليحظى بالتقدم خطوة ليُلحق بهذه الخدمة التي نمقتها كل المقت.. فإذا صاح أَحد بنا بغتة في هذه الغفلة الشاملة أَن أفيقوا وجاهدوا في سبيل الحق وفي سبيل روسيا فما أَعظم ما يبدو لنا من سخفه، ثم إنه يتعلم في سجن مُظلم في سيبريا أي إثم عظيم ارتكبه بمحاولته إقلاق ما يغط فيه من نوم عميق الغافلون من العبيد. ولكننا مع هذا كله كان لنا عزاء واحد، أمر يحق أن نفخر به وذلك هو قوة روسيا، وها نحن أولاء وا أسفاه بعد تفاخرنا قد أخذنا على غرة وأحيط بنا ونحن غافلون.. أفيقي يا روسيا! التهمك الأجانب من أَعدائك وحطمتك العبودية، واضطهدك واخجلاه الحمقى من ذوي السلطة ومن الجواسيس.. أفيقي من نومك هذا الذي امتد في جهل وغفلة، وقفي ثابتة هادئة أمام عرش الطاغية واسأليه أن يُقدم حسابًا عن الكارثة القومية».

وكان رجال الحكومة يشعرون أَن كثيرًا من الأَنظمة القائمة يومذاك إنما تقوم على ما يحسه الناس في أَنفسهم من اطمئنان إلى قوة القيصر أَو قوة الدولة، فلما سقط حصن سباستبول زلزلت القيصرية زلزالًا عنيفًا، حتى لقد تناثرت الإشاعات أَن القيصر نيقولا حين قضى نحبه إنما مات مُنتحرًا. ولقد كان حكم ذلك القيصر الذي حكم روسيا ثلاثين سنة أَشبه بظلمة الليل إذا تشتد حلكته قبيل الفجر، وكان لروسيا آخر عهدها بالظلمة، فلما مات تنفست الصعداء، وتلفتت تتلمس مطلع النور.

# خيوط من النور

لئن اشتدت حلكة الليل في عهد نيقولا، وأَحاطت بالناس المخاوف مما كان يتهددهم من المهالك، فإِن خيوطًا من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأُفق فتكون لأنفس الأحرار أُنسًا وشفاء وعزاء.

حالت القوة بين الروس وبين أي عمل يتصل بالسياسة، فقام الفكر والأدب مقام العمل، ولكن أي فكر هذا وأي أدب؟ وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورائهم محيط، وسلطته لا يحدها قانون ولا تقومها نصفة؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم، وقد اختاروا من صور الفن: القصة والشعر والموسيقى.. وراحوا يهمسون بهذا الفن همسًا سوف يكون له في روسيا دوى عظيم.

كانت القصة الروسية على حد تعبير أَحد الكتاب «صرخات من فوق خشبة الصلب»، ولكنها كانت صرخات القوى الذي أنطقه الألم الهائل على رغمه، لا صرخات الخائر الذي يستعطف ويبكي.

ولما كانت القصة في مقدمة الوسائل التي عبر بها الروس عمّا في نفوسهم، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد في أُوروبا يسلمون لروسيا بالسبق في هذا الميدان، فعندهم أن فن القصة بلغ أَوج كماله في القرن التاسع عشر في روسيا، فقد سبق الروس في هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والإنجليز والألمان حتى غدوا هم الأساتذة، وأحدثوا في هذا القرن أَثرًا بعيدًأ في فن القصة في هذه الأمم الثلاث وفي غيرها ممن نقلوا القصة الروسية إِلى آدابهم.

وليس بعجيب أَن ينبغ الروس في هذا النوع من القصة، فأمام غيرهم مجال القول مُتسع في غير هذا الفن، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة عاكفين زمنًا

طويلًا فتهيأت لهم أسباب التفوق، وتعددت في القصة مذاهبهم وأساليب تعبيرهم، واتضحت هذه المذاهب واستقرت، وطُوعت هذه الأساليب وأُسلس قيادها.

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولكن على ألَّا يفطن إلى ما يريدون المنصتون من الحُكام والرقباء، وكانت القصة في ذاتها كعمل فني خير معين لهم على ذلك، ولكنهم أَضافوا إليها ما أضافوا من صور الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة وآلامها، وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلكوا وإن لم يقصدوا، مذهب الفن للفن، فلم يدعوا إلى شيء إيجابي أو يقترحوا علاجًا لداء، وإنما اكتفوا، أو اضطروا في الحق أن يكتفوا، بتصوير الحياة الروسية كما هي بما فيها من خير وشر، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقعي هو الغالب في القصة الروسية.

وكان ما أتقنوه من وصف أعلى في الآذان صوتًا وأعمق في النفوس أثرًا من كافة صور التعبير التي أتيحت لغير الروس، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث، وتلك هي ميزة الفن عامة وفن القصة خاصة، وقد بلغت أقصى ما يبلغه الفن كأداة للتعبير على أيدي أساطين القصة الروسية.

وثمة صفة أُخرى للقصة الروسية، وتلك هي انطواؤها على كثير من النُذر، ويُشاركها في ذلك الشعر إلى حد كبير، حتى ليمكن القول إن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر كان أكثر من أَدب أية أُمة تنبؤا بالمستقبل المخيف، بل لعل هذا التنبؤ هو خاصته التي مازته من غيره، فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر المستطير، وقل أن كان بشيرًا بشيء إلَّا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من معنى الثورة التي تذهب بالمساوئ القائمة وتفتتح في تاريخ البلاد عهدًا جديدًا.

ولقد كان الأدب الروسي في الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدبًا ثائرًا، لا بما كان ينذر به من هول فحسب، ولكن بما كان يصف من سوء الحال، فإن ذلك الوصف على ما يبدو من هدوئه كان متنفسًا للنفوس مما كانت تنطوي عليه من ثورة، أو كان

شكاة وأنينًا أو «صرخات من فوق خشبة الصلب».

والفرق واضح بين هذا الأدب الروسي وبين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أَيدي فلتير وروسو وديدرو وأضرابهم، فقد تفلسف أُولئك الفرنسيون وسخروا وبينوا سُبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مواجهة مُباشرة فكانوا في الغالب فلاسفة مُفكرين، ولكن الروس صوروا فحسب، فلم يُبينوا لنا المعايب الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعوامله، وإنما خلقوا لنا أُناسًا أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون.

ولقد أَحدث هذا الأدب أثره العميق في النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء، حتى انتهى الأَمر إلى ثورة نفسية جارفة كانت في الواقع من صنع الفن وحده، وليس في هذا الذي نذكر شيء من الغلو، فبالفن لا بالأفكار المجردة، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا، هدم أُدباء الروس صرح العهد القديم، وعلى أَلسنة أَشخاصهم التي خلقوها، وفي ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها، عبر الكتاب عمّا يريده كل روسي وأَفصحوا دون أَن يقولوا قولًا صريحًا، عمّا كان يشغل الأذهان من آراء في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان ليسمح بها الرقيب.

وفي الأَدب الروسي جانب روحي أكسبه صفة إنسانية عامة، بها وجد سبيله إلى قلوب الناس في كل أُمة، وهذا الجانب الروحي فيه هو مُحاولة الوصول إلى خلاص للإِنسان عامة من شرور الحياة وشقائها، وتوقعه حياة أُخرى أسمى من هذه الحياة، ومرد ذلك في الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظُلم وما ذاقوا من ألم وشقاء. ومن عجب الأُمور أَن كثيرًا من الأُدباء الروس على ما بلوا من شرور الحياة حولهم وآثامها، كانوا يُؤمنون في كتابتهم بالخير وأَنه هو الأَصل في الإِنسان، وأَن الشر يأتيه من الحياة ومُلابساتها، فكان هؤلاء الأُدباء مُتفائلين مع ما كانت تريهم الحياة من دواعي التشاؤم.

وكفر أُدباء روسيا بمدنية الغرب وثقافة الغرب، فلم يروا أَنهما حق كلهما، وإِنما أَحسوا فيهما بكثير من صور الباطل، وارتابوا في كثير من المبادئ التي أخذ بها العالم

الغربي واطمأن إِلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة، وساورهم كثير من القلق فيما عسى أَن تفضى إِليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بها وبمدنية الغرب جميعًا، وقد أَضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إِلى الأَدب الروسي والقصة الروسية نغمة ارتاحت إِليها النفوس القلقة، وزادت هذه النغمة ثورة هذا الأَدب ظهورًا، وجعلت له خطرًا كبيرًا في تاريخ الفكر البشري.

وأَدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربي إِلى اتساع أُفق الأدب الروسي، فبات يتعمق النظر في مسائل الحياة والموت وما عسى أَن يكون وراء هذا الكون العجيب من أَسرار ود الأُدباء لو استطاعوا أَن يهتدوا إِلى شيء منها، وقد صبغ هذا الاتجاه الأَدب الروسي بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها في أَدب الغرب.

***

كان الشعر أَسبق من النثر في هذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أَولًا عمّا كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده، وقد تجلى هذا الأَثر في شعر شاعرين كانت لهما، أَو على الأَصح كانت لأولهما زعامة الشعر  الروسي الحديث وهما بوشكين ونيرمونتوف.

وقد وُلِدَ أولهما سنة ١٧٩٩ ومات في الشهر الأول من سنة ١٨٣٧، ووُلِدَ ثانيهما سنة ١٨١٤ ومات سنة ١٨٤١.

وتمثلت الروح الجديدة في حياة بوشكين وفي شعره، ولقد كان لهذا الشاعر الفذ الذي مات في الثمانية والثلاثين من عمره، أَعمق الأَثر في الأَدب الروسي في القرن التاسع عشر.

يُعد بوشكين بحق أَحد عباقرة الشعر في جميع عصوره وعلى اختلاف بيئاته، فقد خُلِقَ موهوبًا كما يُخلق أفذاذ هذا الفن وفحوله، فله قوة الشعور وعمق الفكرة وحدة الإِحساس وسمو الروح وحرارة الأيمان وجمال النفس، وله إِلى جانب ذلك ا لأداة الطيعة من التعبير الجميل القوي والموسيقى الرائعة الحلوة.

على أَن ما يعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن، ولقد كان أَكبر تأثيره في حياة قومه بما تغنى به من أغاني الحرية، تلك الأغاني التي هزت النفوس هزًا.

تأثر بوشكين بشاعر عظيم مُتمرد ثائر هو اللورد بيرون الذي قضى نحبه سنة ١٨٢٤ في حصار مسولنجي مُصابًا بالطاعون، وقد كان يُدافع مع المدافعين عن حرية اليونان، وأعجبت بوشكين حمية بيرون كما أعجبته طريقته في الشعر، وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد أصالته، ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أُسلوب بيرون.

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد، وغنى بمثل البكاء حياة فلاحيها وشقاءهم، وكان شعره مليئًا بالنذر، فكان منذرًا للطاغين، مُبشرًا بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب، تجد ذلك في قوله «إنا منتظرون، وقلوبنا المتلهفة تخفق بالأمل في الحرية المقدسة كما ينتظر العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته».

وتأثر بوشكين كذلك بمبادئ الثورة الفرنسية، وكان صديقًا للديسمبريين ولكنه كان قد نُفي إلى ضيعة أُمه قبيل حركتهم فلم يُشارك فيها، ونجا بذلك من الموت لينظم لروسيا خير ما أخرجت من شعر، وليوقظ مشاعرها ويطبع أدبها بطابعه، وليكون شعره حداءها الممتلئ بالأَمل والسحر.

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء، كان ليرمنتوف الذي بدأ يُنظم العشر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقواهم موهبة، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر ببوشكين أولًا ثم بشلر، وأخيرًا باللورد بيرون ذلك الذي أَحبه ليرمونتوف حُبًا كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه.

وكان ليرمونتوف في شعره منذرًا أكثر مما أنذر بوشكين، وقد أذاع قصيدة غفلاء من اسمه سنة ١٨٣٠ تنبأ فيها بالثورة، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة البلشفية من صحة نبوءته، فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب، وتغنى ليرمونتوف بالحرية

كما تغنى بوشكين، وكان ينظم الشعر في يسر فيجيء قويًا مُتدفقًا كالسيل ولكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مدها فمات وهو في السابعة والشعرين.. على أنه قبل وفاته بسنة أخرج قصة نثرية سنة ١٨٤٠ تُعد أول قصة تحليلية في الأدب الروسي الحديث وهي القصة المسماة «بطل من أبطال عصرنا»، ولذلك يُعد هذا الشاعر الفذ طلعة في فن القصة.

***

ونعود بالحديث إلى القصة فنجد أَن الكاتب الذي يعد مقامه في القصة كمقام بوشكين في الشعر هو جوجول المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفى سنة ١٨٥٢؛ وليس معنى ذلك أَنه لم يوجد قبل جوجول قصصي، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية في القرن التاسع عشر وكان زعيمًا من أَكبر زعمائها غير مُدافع.

قام فن هذا القصصي الموهوب على أَساس السخرية من المعايب الاجتماعية في عصره، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات، وترفق بهم، وتضحك مع الضاحكين، كسخرية شارلز دكنز مثلًا، وإنما كانت سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة، كأَنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوايته.

كان يُؤلم جوجول أَن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل، وماتت فيها روح العدالة والخير، وكان يقول دائمًا إنها مُمتلئة بالأقنعة الكاذبة حتى ما تقع العين على آدمي واحد فيها، والحق أَنه قلما اطمأن إلى وجود شيء من الخير في الحياة الروسية فقد استشرى الشر في رأَيه حتى لم يدع للخير مجالًا.

وقد أَنتج جوجول عددًا غير قليل من القصص والصور الاجتماعية ويهمنا فيما نحن بصدده ثلاثة منها هي «المفتش العام» و«الأنفس الميتة» و«العباءة». أَما القصة الأُولى فهي ملهاة تهكمية تدور حول نبأ أُذيع بأَن مُفتش الحكومة العام قادم للتفتيش في مدينة من مُدن الأقاليم، ولما كان المفتش غير معروف، فقد أَخذ الموظفون مُسافرًا

من المسافرين على أَنه المفتش المرهوب الجانب، فأَكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزلفى وأَعطوه المال والهدايا، ولما رأَى ذلك المسافر أَنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فر هاربًا، ويُسدل الستار عقب إعلان أَن المفتش الحقيقي قد وصل فعلًا! ولقد أحدثت هذه الملهاة ضجيجًا كبيرًا وأثارت من حنق الحكومة على مُؤلفها ما اضطره إِلى مُغادرة روسيا إِلى إِيطاليا حيث أَتم قصته الكُبرى «الأَنفس الميتة».

تُعد هذه القصة الثانية من أَعظم الآثار في أدب أُوروبا جميعًا ولم تكن لها عقدة مُعينة أَو حكاية غرام، وقد أَتمها جوجول في عِدة سنوات، وفيها سخر أَشد السخرية من كل ما عده معيبًا في الحياة الروسية، وتهزأ بمن ساء من الأَشخاص الذين صور أَمثلة لهم في قصته الكُبرى، وقد نفذت عيناه نفاذًا عجيبًا إِلى كل معيب شائن في جوانب تلك الحياة وإِلى كل و ضيع مرذول من صور الناس وأنماطهم، لم يغادر شيئًا من ذلك إِلَّا أَحصاه.

ولو أَراد النُقاد أَن يعدوا عشرة كُتب في فن القصة لها أَثرها في توجيه هذا الفن، ولها خطرها فيما تُقاس به رسالة هذا الفن لكان كتاب جوجول «الأَنفس الميتة» أَحد هذه الكُتب العشرة بلا جدال، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأَدب أَعظم ملحمة للضعة الآدمية في أدب العام كله، وذلك حسب ما يُفهم من معنى الملحمة كعمل فني، وليس كما قد يذهب إِليه الذهن من معنى المعركة. فما في القصة معركة ما، وإِنما نقصد معنى الملحمة كما تُسمى ملهاة دانتي المقدسة، أعني أنها عمل أدبي شامل يحيط بكل شيء مما هو منه بسبب.

وبطل هذه القصة التي هي في الواقع مجموعة فصول أقوى مثال للصعلوك الذي لا يكترث لشيء والذي لا يتأثم من شيء، والذي يرضى كل الرضاء عن أَعماله جميعًا لا يشعر بأي أثر في نفسه مما يُسميه الناس وازع الضمير، وفكرة القصة الرئيسية التي تدور حولها حوادثها هي أَن هذا الصعلوك المسمى شيشكوف قد اعتزم أَن يشتري من مُلاك الضياع من يموت من رقيق الأَرض قبل أَن يسجل في سجل الموتى اسمه، لكي يرهن هؤلاء للمصرف على أَنهم أَحياء ويربح من وراء ذلك ربحًا كبيرًا، وينتقل

من مالك إلى مالك يتواطأ معهم على الإقرار بوجود هؤلاء الرقيق، وفي أَثناء ذلك يصف المؤلف حال هؤلاء التُعساء الذين يقول عنهم إنهم لا يحيون كما يحيا الخلق وإنما يوجدون فحسب! وكان هؤلاء الرقيق يسمون في روسيا وقتذاك الأنفس وكان الواحد يُسمى نفسًا، فإذا سأل أحد الملاك صاحبه عن عدد رقيقه قال له كم نفسًا تمتلك، ومن هنا جاء اسم القصة «الأنفس الميتة»، والقصة مليئة بتلك السخرية القاسية وذلك الضحك الشيطاني الذي يتميز به فن جوجول.

ونشر جوجول في نفس الوقت الذي نشر فيه «الأَنفس الميتة» قصة كان لها أَثرها في النفوس، وهي ثالثة ما أشرنا إليه من قصصه، أَلا وهي قصة «العباءة» أَو «المعطف» أَو ما يُؤدي معنى الرداء الخارجي الذي يُلبس فوق الملابس جميعًا اتقاء للبرد، وخلاصة هذه القصة أَن أحد الكتبة الفقراء وهو شيخ ضعيف كانت أَعظم أُمنية له أن يشتري معطفًا، فما زال على خصاصته يقتصد من ماله القليل حتى اشترى المعطف المنشود، ولكنه مني في أَول يوم فرح فيه بمعطفه بفتية من صعاليك الشوارع سرقوا منه المعطف فقضى نحبه من فرط غمه ويأَسه، والقصة على بساطة موضوعها تصف البؤس والشقاء وسوء الحظ أَقوى تصوير وأَصدقه.

ولجوجول كما أسلفت القول غير الذي ذكرت كثير من القصص الطويلة والقصيرة والمسرحيات والنبذ الوصفية وما إليها، وإنما اخترت هذه القصص الثلاث لأَنها أكثر صلة بما نريد بيانه، وأعني به كيف عبر أُدباء الروس بالفن عن ثورة نفوسهم المكبوتة.

وهكذا كان بوشكين وجوجول ومن دار حولهما من النوابع يلقون على الأُفق الحالك في حكم نيقولا الأول خيوطًا من النور كانت لأنفس الأحرار أُنسًا وشفاء وعزاء.

***

بقيت بعد ذلك كلمة عن تياريت فكريين قوى ظهورهما في عهد نيقولا، وأعني بهما المدرسة الشرقية والمدرسة الغربية، أَو بعبارة أُخرى الاتجاه نحو أُوروبا والإبقاء

على سلافية روسيا.

وكانت المدرسة الشرقية أو السلافية تُؤمن بِأَن مدنية روسيا غير مدنية أُوروبا، وأَن على الروس أن يحذروا مادية الغرب الوضيعة وأَن يعودوا إلى تلك الجماعات التعاونية التي أَقامها السلاف الأَقدمون في قُرى روسيا، وكان قادة هذه المدرسة يعتقدون أَن بطرس الأَكبر لم يخدم روسيا بقدر ما أَساء إليها بمحاولته صبغها بالصبغة الأُوروبية، وكذلك كان أَنصار السلافية يعدون الغرب في طول انحلاله لأَنه بعد عن الجانب الروحي من الحياة، ذلك الجانب الذي اتصفت به روسيا السلافية والذي يجب أَن يعيده الروس اليوم سيرته الأُولى فينعموا بالإِيمان والمحبة والتعاون فيما بينهم، ثم يذيعوا هذه المبادئ حتى تشمل الإِنسانية جميعًا فيكون ذلك رسالة روسيا إلى العالم.

أَما أَنصار المدرسة الغربية، فكانوا يعزون ما في روسيا من شقاء العيش وطغيان الحُكام إلى عُزلتها عن أُوروبا وفلسفة أُوروبا وعلم أُوروبا وثورات أُوروبا، فإِذا أَرادت روسيا أَن تخرج مما هي فيه فعليها أَن تأَخذ بمدنية أُوروبا في كل شيء، فهذه سبيلها التي لا سبيل لها غيرها.

ومهما يكن من خلاف بين المدرستين فقد أَفادت روسيا من دفاع كل منهما عن وجهتها، وكان لها من خلافهما يقظة، وبخاصة لأَن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على أَمر جوهري، وذلك أَنه في أَي الوضعين لا يُرجى لروسيا خير إِذا أسلم أَمرها إلى رجل واحد يستبد فيها بالأَمر، ويصرف شؤونها كما لو كانت ضيعة من ضياعه.

هذه لمحة إلى الحال الأَدبية في روسيا حتى أَواخر حُكم نيقولا الأَول؛ أَي حوالي سنة ١٨٥١ عندما بدأ الفتى ليو تولستوي يتجه في جد إلى الأَدب ليغدو بعد أَمد غير بعيد أعظم كتاب القصة في القرن التاسع عشر، لا في روسيا وحدها بل في أُوروبا جميعًا.

# هجرته إلى القوقاز

كان لا بُد للفتى من هجرة إلى بلد ما فقد ضاقت نفسه بيسنايا وبموسكو وببطرسبرج جميعًا، ومل حياته بين العبث والإسراف فيه، والندم والركون إليه حتى لم يعد يطيق شيئًا من هذا، بل إنه لم يعد يصبر حتى على التفكير فيه.

واتفق أَن جاء من القوقاز أَخوه الضابط نيقولا إلى ياسنايا في إجازة عيد الميلاد فنصح لأَخيه نصحه في كثير مما كان يشغل باله، ومن ذلك أَن يدع الزواج حتى يطمئن إلى ارتباطه برباط الحب، ثم حبب إليه أَن يصحبه إلى القوقاز، فما أسرع ما أخذ ليو برأي أخيه وتأهب للرحيل! واتفقت الأُسرة أَن يصرف زوج أُخته أُمور ضياعه في غيابه وأَن يدفع عنه ديونه وذلك على أَن يقنع ليو بخمسين ومائة جنية كل عام حتى يُؤدي الدين كله، وقبل ليو هذا الشرط وسافر في صُحبة أَخيه.

ووقفت بهما العربة عند أَول محطة على بُعد أَربعة عشر ميلًا فما راعه إلَّا كلبه الأسود المحبوب قد أَقبل يلهث من شدة الحر ومن سرعة العدو حتى لحق به، وعلم بعد ذلك أَنه كسر لوحًا من زجاج إحدى نوافذ الغرفة التي كان محبوسًا بها وانطلق يعدو ليدركه لأَنه لم يطق أَن يرحل عنه.

ويذكرنا هذا الرحيل برحيل «تشايلد هارولد» أَو اللورد بيرون حين اضطر إلى مُغادرة إنجلترا إذ ضاق بها وضاقت به بعد أَن أَسرف على نفسه فيما أَنكره المجتمع منه، وقد وجه بيرون الخطاب إلى كلبه في أَول قصيدته التي وصف فيها رحلته هذه، يقول إنه لا يجد من يأَسف على رحيله حتى كلبه هذا فلسوف ينساه وينكره حتى ليثب عليه ويعضه إن قدر له أوبة من غربته.

كانت رحلة بهيجة سارة، فقد قطعا جانبًا منها إلى استراخان في زورق على صفحة الفلجا، وقد عرجا على موسكو وقازان وقضيا بضعة أَيام في كل من المدينتين،

وكتب ليو من موسكو إلى عمته تاتيانا يخبرها في لهجة الفخر أنه استطاع أَن يقهر نفسه حين زار ناحية الغجريات، ويصف لها مقدار ما بذل من مُغالبة منه لنوازع نفسه حتى أَمكنه أَن ينتصر بعد جُهد بالغ.

وفي قازان قابل تلك الفتاة التي عرفها مُنذ نحو خمسة أَعوام صديقة لأُخته ماري وأَحس يومها بميل شديد نحوها وهي زنايدا مولستفوف، ولقد أَحس أنه على الرغم من تلك الأَعوام الخمسة لم يزل بها مُتعلقًا. قال في يومياته بعد ذلك بشهرين «لم أَفه بكلمة من كلمات الحب، ومع ذلك فقد كنت واثقًا أَنها كانت تدرك مشاعري، ولئن كانت بادلتني إياها فذلك لأَنها كانت تفهمني.. كانت صلاتي بزنايدا يومذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة، مرحلة انجذاب روحين كل منهما نحو الأُخرى، أَيُداخلك الشك في أَني أحبك يا زنايدا! إن كان الأَمر كذلك فإني أَسألكِ الصفح فإن الخطأ خطأي، إذ كان عليّ أَن أُؤكد لكِ ذلك بكلمة.. أَتذكرين حديقة كبير القساوسة يا زنايدا وممرها الجانبي؟ كان على أثلة لساني ما أفصح به عمّا في نفسي كما كان على لسانك، ولكن كان علي أَن أَكون أنا البادئ، أتدرين لماذا فكرت ثم لم أَقل شيئًا؟ ذلك لأَنني كنت من السعادة بحيث لم يبقَ ما أَرغب فيه، وخشيت أَن أفسد لا هناءتي وحدي بل هناءتينا.. وسيبقى هذا اللقاء أَعز ذكرى إلى نفسي حتى نهاية حياتي».

غادر ليو قازان إلى القوقاز مُستمتعًا بصحبة أخيه، مُبتهج النفس بما تركه فيها لقاء زنايدا، مرتاحًا إلى ما يهجس في خاطره من أنه انطلق من حياة العبث انطلاقًا لا رجعة فيه، ويجد القارئ وصفًا لهذه الحال النفسية في شخصية أولينين بطل قصة «أهل القوزاق» التي كتبها بعد ذلك، وكان أولينين كذلك مُسافرًا قال «في مثل هذه الحال العقلية السعيدة التي يحدث فيها نفسه فجأة شاب يستشعر أخطاءه الماضية قائلًا إن ذلك لم يكن حقيقيًا، فكل ما حدث في الماضي كان عرضًا عديم الأهمية، وإنه حتى ذلك الوقت لم يكن حاول مُحاولة جدية أن يعيش، ولكن حياة جديدة بدأت تتهيأ له أسبابها، حياة لا شيء فيها من خطأ ولا من ندم، فليس إلَّا السعادة. وكان من الأُمور البينة أَن تلك الأَخطاء لن تعود بين الجبال ومساقط المياه والأَخطار والشركسيات الحسان».

وجد المسير بهما جده حتى بلغا ستاري يورت في القوقاز وأقاما في خيمة أول الأمر وأعجب ليو بمنظر الرواسي الشامخة من الجبال، وكان لا يفتأ يقلب عينيه فيها ويتأمل فيما يبعثه منظرها من رهبة في نفسه، وكتب إِلى عمته تاتيانا يصف لها تلك الأطواد في نشوة وحماسة، ويشرح لها البيئة التي سوف يقضي في قراها قرابة ثلاثة أَعوام، وإِن المرء إِذ يقرأ ما جاء في قصة «أَهل القوزاق» من وصف للجبال، ليمتلكه العجب من روعة ما جاء فيها من وصف، ومرد ذلك الوصف البليغ الساحر إِلى معيشته سنين في سفوح هاتيك الجبال الشاهقة.

ولم يكد يمضي أسبوعان عليه في ستاري يورت حتى عاد إِلى إِحدى عاداته السيئة التي كم ا عتزم أن يطلقها أَلا وهي الميسر، فجلس يلعب ذات ليلة فخسر في هذه الجلسة خمسية وثمانمائة روبيل أو ما يُساوي سبعة وعشرين ومائة من الجنيهات، وكدرت نفسه هذه الخسارة لا ريب، وكدرها كذلك عودته إِلى هذا الذي طلب الهجرة ليتخلص منه وهو من أرذل نزعات نفسه، ولكن الندم عقب ذلك أَخذ يتغلغل في أَعماق نفسه. وآية ذلك أَنه استطاع أَلَّا يقرب الميسر بعد هذه الليلة ستة أَشهر كاملة، كان يقضي فيها أوقات فراغة في الصيد والكتابة والقراءة «وتعقب حسان القوزاق».

ولفت إِليه ببسالته القائد العام في تلك الجهة للجيش الروسي وذلك أَثناء تطوعه ذات مرة في حملة على بعض القبائل، كانت مهمة ذلك الجيش هناك مطاردتها، وقد اقترح القائد أن يلحقه بالفرقة ليكون أَحد رجالها، ووقع ذلك من نفسه موقعًا حسنًا، ولعله تخيل لنفسه ما تخيله أولينين بطل قصته من البسالة والقوة، وحلم كما حلم أولينين بأَن يكون قاهر القوزاق وبأَن يعزي إِليه وحده الفضل في إِخضاع القبائل الثائرة هناك.

وأَرسل إِلى تفليس ليمتحن هناك نوعًا من الامتحان يهيئه النجاح فيه للالتحاق بالجيش، ورأَى في تفليس ما يشبه الحياة في قازان، فحن إِلى حياة المدن بعد تلك الأَشهر التي قضاها في القُرى والأَماكن البرية، وأَوشك أَن يعقد النية على أَن يعود أَدراجه إِلى

موسكو، وصار يحس أنه يحيا في تلك القُرى حياة أَشبه ما تكون بحياة المنفى.

وظل في تفليس أَيامًا يستمتع بمثل ما كان يستمتع به في موسكو أَو في قازان ويترقب بقلب نزوع وصبر فارغ إلحاقه بالفرقة الرابعة متطوعًا، فإن ذلك كفيل أَن يخرجه من تردده ويجعله يركن إلى البقاء في القوقاز.

وتم له ما أَراد فعاد إلى ستاري يورت والحق بفرقة المدفعية الرابعة في شهر فبراير سنة ١٨٥٢، وهناك توثقت عُرى الصداقة بينه وبين فتى يُدعى سادو، وكانا يتعاونان في السراء والضراء ويطمعان معًا كلما واتتهما فرصة لذلك، ويقتسمان المال بينهما ويتبادلان الهدايا، وقد أعجب ليو بصاحبه وبما رأى من بسالته وجميل مودته وإخلاصه له، ذلك الإخلاص الذي أَدى به أَكثر من مرة إلى أن يعرض نفسه للأخطار لينجي صاحبه، وطاب الفتى نفسًا بهذه الصداقة وأَحب من أَجلها الحياة في القوقاز.

وكان سادو مِقدامًا لا يهاب شيئًا، يهجم على قُرى الأَعداء فيأتي منها بما يبيعه وبذلك يحصل على المال، فهو متلاف يبسط يده كل ابسط، وأَبوه على ثرائه يضن عليه إلَّا بالقليل الذي لا ينقع غلته.

وكان على ليو أَن يُدافع عن سادو كما يُدافع هذا عنه، ولذلك كان يتعرض لكثير من الخطر من أَجله، حتى لقد أَوشك ذات مرة أَن يُؤسر هو وصاحبه، ونجا مرة أُخرى من الموت وهو على حافته؛ إذ انفجرت قذيفة مدفع على مقربة منه.

ويعنينا ذكر هذا الذي نذكره عن حياته في القوقاز لصلته بنفسه، فلسوف يصف هذه الحياة وصفًا يكسبه على حداثته ذيوع الصيت في دنيا القصة، ويضفي على عمله من الأَصاله والروعة والدقة ما يسلكه وهو حدث في القلائل الأَفذاذ.

# الحرب والسلام

هذا العمل الفني الفذ أجل وأوسع مدى من أن يعد قصة فحسب، فهو حياة بكل ما في الحياة من معانٍ وصور وحركة.. هو صورة كاملة حية للشعب الروسي أثناء حروب نابليون من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٥.

وعلام يقوم هذا العمل الفني؟ ألا إن المسرح هائل، فهو يشمل روسيا كلها ورقعة كبيرة من أُوروبا، أَما الممثلون ففي مقدمتهم ثلاثة أَباطرة ومع كل منهم وزراؤه وحاشيته وكبار قواده وضباطه وجيشه، ثم يأتي بعد ذلك الشعب الروسي كله نبلاؤه وفلاحوه.

على هذا المسرح الهائل تتابع الصور وتختلف، فمن صالونات بطرسبرج إلى ميادين القتال، ومن موسكو إلى أَنحاء القُرى.

وفي هذه القصة، إن جاز أَن نسميها قصة، أَشخاص حقيقيون هم الإِسكندر الأَول ونابليون بونابرت، وكوتوزرف، واسبرانسكي، وأَشخاص خياليون صور المؤلف كلا منهم وفق مثال ممن عرف في محيط حياته، أَما البطل فهو الشعب الروسي مُجتمعًا في كفاحه المجيد في وجه العدو الفاتح.

وفي هذا العمل الفني روح الملحمة، فهي في مجموعها قصيدة كُبرى.. هي إِلياذة حديثة، وذلك من حيث بنائها ووقعها في النفس، وإِنك لتستشعر روح هوميروس إذ ينتقل بك الكاتب في غير جلبة ولا صخب من مشهد إلى مشهد فيريك ما يفعل القدر بالأفراد مرة، وما يفعل بالجيش مرة، ولما كانت تصور ذلك الكفاح الوطني الذي نهض له الشعب الروسي في وجه نابليون، فقد أَبرز ذلك فيها روح الملحمة، وإِن أكثر فصولها لتترك في النفس نغمة عامة أَشبه بنغمة النشيد، ولا يسع المرء في أَكثر الأَحيان إِلَّا أَن يقول عن كاتبها، هذا شاعر وإِن لم يصطنع الشعر، وكثيرًا ما

يذكر المرء نظرة جيته حين يلمس بعبقريته المشاهد المألوفة، فكأَن القارئ يرى فيها ما لم يره من قبل.

***

في صيف سنة ١٨٦٣، نزع تولستوي كما أسلفنا، وقد استقرت حياته بالزواج إلى كتابة قصة كبيرة، وكان أول ما اتجه إليه خياله موضوعًا لقصته المنشودة مُؤامرة الديسمبريين من أَجل الدستور والحرية سنة ١٨٢٥ في عهد الإسكندر الأول.

وأَخذ تولستوي يقرأ تاريخ هذه الحقبة من حياة روسيا، فأدت به دراسته إلى أن يرجع القهقهري إلى حروب نابليون سنة ١٨١٢ أَثناء حملته على روسيا، ليرى كيف كان يعيش في شبابهم أُولئك الأشخاص الذين أَراد أَن يصور على شاكلتهم ما يخلق من شخصيات خيالية لعهد الديسمبريين.

ورأى تولستوي الفرق عظيمًا بين كفاح روسيا في وجه الفاتح، وبين جهلها إلَّا فئة قليلة بالدستور والحكم الدستوري أَيام الديسمبريين، فاختار عهد ذلك الكفاح المجيد، ونبذ مُؤامرة الديسمبريين.

ولما كان يعتقد تولستوي أَن نجاح روسيا في رد نابليون على أَعقابه لم يكن وليد المصادفة وإنما كان مرده إلى روح الشعب الروسي والجيش الروسي، ولما كان كذلك يُؤمن أَن هذا الكفاح لم يخل من أَخطاء ومآس، فقد حمله ذلك على أَن يبدأ تاريخه قبل سنة الغزو ليعرض صورة صاديقة لروسيا المجاهدة، فجعل سنة ٨٠٥ بدءًا لذلك التاريخ أَو لهذه القصة.

ودرس تولستوي تاريخ هذه الفترة دراسة مفصلة، ولقى في ذلك رهقًا شديدًا، كان يُخففه عنه فرط تحمسه لقصته وصدق إخلاصه لفنه، وتصوره السار ما عسى أَن تكون حين تتم، وعندي أنه ما من كاتب عظيم يكتب كتابًا عظيمًا إلَّا وفي نفسه القدرة على أَن يتصور هذا الكتاب جُملة قبل أَن يبدأَ في تفصيله، وعلى أَساس هذه الصورة المجملة الكبرى التي تخلقها عبقريته في لمحة، يجيء ذلك التفصيل الذي يرد إلى

قريحته الفنية.. وما أَظن أَكثر الآيات الفنية إِلَّا خُلِقَتْ على هذا النحو، وهذا موضع من مواضع امتياز العباقرة عن بقية الناس.

هذه الصورة المجملة هي التي تُحبب العمل إِلى رجل الفن، وهي التي تُوحي إِليه كيف يجمع الأشتات ليتم له ذلك الصرح وفق ما تخيل، وفي سبيل ذلك يهون كل جُهد، بل ويُستحب كل عناء.

كان يكتب تولستوي قصته، وكانت تتلون الحياة كما أَسلفنا حسمًا يستشعره في نفسه من رضاء أَو سخط على ما يكتب، وكان يقول مازحًا إِذا ألقى القلم إِلى غد «لقد تركت كعادتي قطعة من لحمي في المحبرة».

كتب إِلى صديقه فت سنة ١٨٦٤ يقول «أَنا غارق إِلى ذقني ولست أَكتب شيئًا.. إِنك لا تستطيع أَن تتصور مشقة ما أَنا فيه من عمل؛ ذلك العمل الإِعدادي الذي يقتضيني أَن أَحرث حرثًا عميقًا قبل أَن ألقي البذور، ومن أَصعب الأُمور أَن أُفكر وأن أَعيد التفكير فيما عسى أَن يكون في المستقبل حظ الشخصيات جميعًا في ذلك العمل الواسع الذي أضطلع به، وأَن أُوازن بين الآلاف مما يُمكن من صور الاشتباك والتداخل لأختار منها جُزءًا من أَلف.. وهذا ما أَعمله الآن».

وكان يذهب تولستوي إِلى موسكو لينظر في السجلات، وكان يقرأ من الكُتب والمخطوطات كل ما عسى أَن يكون فيه وصف لحياة تلك الفترة من تاريخ روسيا ومعيشة أَهلها على اختلاف طبقاتهم، وصور ملابسهم وعاداتهم وأُسلوب حديثهم وميولهم وأَلوان ترفهم ولهوهم وأَغانيهم، وكان يشخص بنفسه إِلى الأَماكن التي كانت ميادين للقتال، وكان يكتب للأَخصائيين يسأَلهم في كل مسأَلة يستعصي عليه فهمها، وكان يستشير أَصحابه ويستعينهم في كثير من المسائل كما كان يستنبئ عما عسى أن يكون من الأسر مُحتفظًا بسجلات أَو وثائق أَو صور تاريخية أَو أَي شيء يزيده علمًا وفهمًا لحياة ذلك العصر.

وقد كان للكاتب العظيم خير عون من زوجته كما ذكرنا، وكان ثناؤها على ما

يكتب وإعجابها بفنه خير حافز له على المضي في عمله، كما كان يتبين وقع حوادث القصة في نفسها مُتخذًا من ذلك مقياسًا لقارئيها في الجملة حين تتم.

ودأَب على عمله سنوات ست، يقضي فيه كل يوم نحو ثمان ساعاتٍ، وهو في كل آثاره كاتب لا يجري قلمه حيثما اتفق له، وإنما هو يطيل النظر فيما يكتب ويتناوله بالحذف، فيضع كلمة مكان كلمة، ويستبعد من هنا فقرة ويضيف هناك فقرة، ولا يعجبه هذا الفصل أَو ذاك فيعيد كتابته كله، ويقع بعد حين على شيء كان يصح إضافته إلى ما سلف من وصف فيعود إليه فيضيفه، أَو يخطر له خاطر فيثبته حيث كان يجب أَن يثبت، ويقرأ بعض أَوصافه جهرًا فيحس في الصورة غموضًا أَو في اللفظ تعثرًا، فما يزال بالصورة حتى تشرق وباللفظ حتى يسلس.. وعلى هذا النحو كتب هذا الكتاب كله، ولا عجب بعد ذلك أَن يشبه الكتابة بالوضع وأَن يقول إنه كان يترك كل مرة قطعة من لحمه في المحبرة، وإن الذين يُعانون البيان من أئمة البُلغاء الذين يتفطنون إلى مواقع الكلم لهم وحدهم الذين يدركون مبلغ ما كان في عمل هذا الفنان العظيم من مشقة.

ولم تتم القصة إلَّا في سنة ١٨٦٩، وقد نشر القسم الأَول منها تحت عنوان «سنة ١٨٠٥»، ثم ظهرت أَخيرًا في مُجلدات ستة باسم «الحرب والسلام»، وسرعان ما ظفرت بنجاح هائل لم يظفر بمثله في روسيا كتاب قبلها، لا في الأَوساط الأَدبية والفنية فحسب، ولكن في جمهور القراء جميعًا، وأَصبح بها ليو تولستوي عند بني قومه أُستاذًا عظيمًا، وبات في سماء الفن والأَدب أَعظم الكواكب تأَلقًا.

***

يجدر بنا قبل أَن نتحدث عن القيمة الفنية لهذا الكتاب وعن آراء النقدة فيه، أَن نلقي نظرة فيما عبَّر عنه مُؤلفه من آراء كان يمتلئ بها رأَسه، وخواطر كانت تجيش بها نفسه، ولما كان سبيله في مثل هذا العمل الفني أَن يجري آراءه على أَلسنة ما خلق من أَشخاص، وأَن يلمح إلى خواطره فيما يأْتون من عمل أَو يسلكون من مسلك،

كان خليقًا بنا أن نلم إلمامة بقدر ما يتسع هذا المجال بأَهم شخصياته، وهي إلمامة إن لم تكن تغني شيئًا عن قراءة هذا الأَثر الفني الفذ والاستمتاع به، إلَّا أنَّها على أَية حال تتصل بما نحن في صدده من دراسة هذا المؤلف العظيم.

خلق تولستوي أَكثر شخصياته وسواها على مثال من عرفهم في حياته، فأُسرته وأُسرة زوجته يُمثلهما في القصة أُسرتا رستوف وبولكنسكي، وعمته تاتيانا تُمثلها سونيا في القصة، كما تخيلها وهي شابة، وليزابيرز تظهر واضحة في فيرا، وبولفانوف هو بعينه دينسوف في القصة، وتانيا تلك الشيطانة الصغيرة تظهر ظهورًا لا ينقصه إلَّا الاسم في نتاشا، وأخوه سيرجي هو البرنس أَندرو.

أَما شخصه هو فقد استطاع في براعة فنية عجيبة أَن يبرزه في عدد من شخصيات قصته، فناحية منه تظهر في جانب من شخصية البرنس أَندرو الذي يُمثل أَخاه، وناحية أُخرى في جانب من شخصية بيير بزخوف، ونواح أُخرى في غير هاتين من الشخصيات، ولقد بلغ من دقة تفطنه إلى نفسه أَنك حين تُصاحب هذه الشخصيات على شدة ما بينها من اختلاف، لا يسعك في كل شخصية إذا أَخذتها على حدة إلَّا أَن تقول هذا هو تولستوي نفسه، وإن كانت هذه الشخصيات ذاتها في مواقف أُخرى تُمثل أَشخاصًا آخرين.. ولن يدخل مثل هذا العمل إلَّا في طوق فنان عظيم، وما الإنسان؟ أليس هو مجموعة شخصيات تألفت فهي على صورة ما، تبعد أو تقرب من صورة تألفها في غيره؟ ذلك ما قصد إليه تولستوي حين صور جوانب شخصه في أَشخاص كثيرين.. وإنك لتجد صورة له في كل كتاب غير هذا من كُتبه العديدة.

أَبرز تولستوي في بيير صفاته الطيبة من أَصالة ورجاحة عقل، وطيبة قلب، ورغبة في السمو بالنفس، ونزوع قوي نحو التفكير العقلي المجرد، وأَبرز في البرنس أَندرو جوانب ضعفه كالتردد، والكبرياء، والغرور، وسرعة الغضب، واللجاج في الجدل وما إليها.

أَما الأَشخاص الحقيقيون فقد أَرانا تولستوي كيف كانوا يعملون ويُفكرون مُستندًا إِلى ما أَلم به من تفاصيل عن تلك الحقبة من حياة روسيا التي هي موضوع القصة.

وأَضاف تولستوي إِلى القواد المعروفين شخصيات من خلقه تُمثل روح الشعب الروسي وتبرز أَهم خصائصه، ومن أَهم هذه الشخصيات كارتايف الجندي الساذج الصابر المؤمن، وكوتوزوف القائد الذي يذعن للقدر، فلا يحاول أَن يقف في سبيله وإِنما يجعل سلوكه جميعًا وفقًا لأَحكامه، وذلك في صبر وإِيمان ومصابرة طويلة للعدو.

***

أجرى تولستيو على لساني بيير وأندرو آراءه الخلقية وفلسفته القائمة على جهاده المتصل في سبيل مسألة حيرته كثيرًا واستغرقت تفكيره طويلًا، هي فهم الغاية من الحياة.

وقد أَتاح له هذا العمل الفني الواسع مواقف كثيرة للحياة والموت، والميلاد والمرض والصحة والحب والكدح وغيرها مما يتقلب فيه بنو الدنيا من أَلوان العيش وما يعترض لهم من أَلغاز الوجود، وهو إنما خلق أكثر هذه المواقف خلقًا ليقول عندها ما يريد أَن يقول.

وتتيح هذه القصة بطبيعة موضوعها الأصلي فضلًا عن ذلك دراسة كثير من المسائل الكُبرى فيما يتصل بالحرب والتاريخ والإِنسانية بوجه عام.. وفي هاتيك الآراء جميعًا وفي طريقة أَدائها الجانب الأهم من عظمة القصة، تلك العظمة التي يكملها ما سوف نعقد له فصلًا خاصًا من براعته الفنية في خلق الحوار وحسن سوقه وروعة التصوير وتفصيله، وانسياب ذلك كله هادئًا طبيعيًا في قصصه جميعًا في تناسب وتوافق، انسيابًا يشعرك أنك تنظر فعلًا إِلى مشاهد وأَشخاص من الحياة لا تقرأ لكاتب على صفحات كتاب.

وأَما عن المرأَة وما يتصل بحياتها من آراء وما يُمثل سلوكها وعواطفها وضعفها

وقوتها ونظرتها إلى الحياة، فقد خلق المؤلف لذلك فئة من الشخصيات من أَهمها نتاشا والبرنسس ماري.

***

حارب البرنس أَندرو في معركة أوسترلتز الهائلة حيث وقف إمبراطور النمسا وقيصر الروسيا في جانب ووقف نابليون في جانب آخر، وجرح البرنس في المعركة، وعاد أَثناء مرضه يتفكر في الغرض من هذه الحياة، وقد أَرته الحرب كثيرًا من غرور هذه الدنيا وأَكاذيبها، وكان يكبر نابليون وهو عدوه إلى حد العبادة، فتبين له سخف عبادته. ولما شفى من جراحه أَراد أَن يجد معنى للحياة في تحرير رقيقه وإصلاح حالهم، ولكنه ما لبث أَن رأَى في ذلك ضربًا من العبث، وعاد إلى القتال فعاد إلى ما لا طائل منه من تأَملاته.. وأَخيرًا حين كان يلقى الموت في طريقه من موسكو، أَضاءت في نفسه فكرة الحب في أَعظم صوره، وتبين في هذه الفكرة مغزى الحياة «أَجل ... الحب! ولكنه ليس ذلك الحب الذي يقوم في النفس من أَجل شيء، أَو صفة ما، أَو غرض، أَو سبب، ولكنه ذلك الحب الذي استشعرته وأَنا بين براثن الموت حين رأَيت عدوي ومع ذلك أَحببته.. لقد جربت هذا الضرب من الحب الذي هو خلاصة النفس والذي لا يحتاج إلى موضوع مُعين، وإني لأَستشعر الآن هذا الإشراق.. هذا الحب الذي تشعر به نحو جارك ونحو عدوك ونحو كل شيء؛ حب الله في كل مظاهر وجوده؛ إن من الممكن أَن تحب أَي شخص قريب منك وهذا هو الحب الإنساني، ولكن أَن تحب عدوك فهذا ما لا تستطيعه إلَّا بالحب الإلهي.. وإذا أَحب المرء حُبًا إنسانيًا جاز أَن يتغير حُبه إلى كُره، ولكن الحب الإلهي لن يتغير.. لا فلا الموت ولا أَي شيء آخر بقادر على أَن يقضي عليه.. إنه خلاصة النفس وجوهرها».

تلك هي فلسفة أَندرو في القصة أَو فلسفة تولستوي في الحياة، وليس من فرق بينهما إلَّا أَن البرنس أَندرو قد اطمأَن قلبه، ولن يزال تولستوي يتأمل ويتفكر حتى ليكاد يقتله اليأس فيما هو مُقبل من أَيامه.

أَما بيير فما برح كذلك يشقيه البحث عن الغرض من الحياة وهو لا يفتأ يسأل نفسه «ما الخير وما الشر؟ ماذا ينبغي على المرء أَن يحب؟ وماذا ينبغي عليه أَن يكره؟ ومن أَجل أَي شيء يعيش المرء؟ وما عسى أَن أَكون أَنا؟ وما الحياة وما الموت؟ وأَية قوة تُسيطر على ذلك كله؟».

ويرتاح بيير إِلى الماسونية، ويفهمها على أَنها إِعداد للنفس لتتلقي الحكمة، فلن تأْتي الحكمة عن دراسة العلوم مهما أَحاط بها المرء، ولا بُد أَن يُطهر المرء نفسه ويسمو بها سموًا روحيًا، ثم لا بُد من الإِيمان، وسبيل النفس إِلى بلوغ هذا الكمال هو الضمير؛ أَي ذلك النور الذي أَلقاه الله فيها.

ويعمل بيير على تطهير نفسه والسمو بها صوب الكمال المنشود، ويُفهم من الماسونية معنى آخر يزيده تحمسًا لها وهو أَن يعيش الناس إِخوة بعضهم لبعض يتعاونون في طريق الفضيلة.

ولكنه لا يُخالط الماسونيين حتى يشك فيما يقولون؛ وذلك لأَنهم يقولون ما لا يفعلون، ثم لا يلبث أَن يكفر بهم ويرى أَن بضاعتهم زخرف ولغو، وأَن أَكثرهم يسعى وراء المطامع ويرى في الانضمام إِلى جماعاتهم سبيلًا إِلى قضاء المآرب وجلب المنافع، بالزلفى إِلى ذوي الجاه منهم باسم التعاون على البر.

ويعظم يأسه وتسود في وجهه الدنيا، ويلوذ بالقراءة والدرس فلا يجد شفاء، فيلوذ بالخمر لينسى، ويكاد يسلم نفسه إِلى الانحلال إِذ يطلب معنى للحياة في شهوات بدنه مُنطلقًا من كل قيد، ولكنه لا يلبث حتى يسأم ذلك.

ويزحف نابليون على موسكو فتتجه نفسه إِلى معنى للحياة هو البطولة في مدافعة هذا العدو ويخيل إِليه أَن القدر اختاره ليقضي على «قوة هذا الوحش»، ويتمكن منه هذا الخيال فيعود إِلى نفسه الأَمل، ولكنه يقع أَسيرًا وينجو بأَعجوبة من القتل بتهمة التجسس، ويرى ذات مرة فرقة من الجيش تطلق النار كارهة مُكرهة على فرقة من عدوها لتنفيذ حُكم الموت في هؤلاء وهو ليسوا أَقل منهم براءة وسمو غرض،

فتنفر نفسه من الحرب والبطولة ويعود إِليه يأَسه من فهم معنى الحياة.

ولكنه في أسره يخالط جُنديًا قرويًا من بني قومه هو كارتايف، فتضيء في نفسه فكرة الحب كما أَضاءت من قبل في نفس أَندرو، وقد أَوحى بها إليه كارتايف الذي يتمثل فيه هذا الحب البريء، ويعجب بيير كيف يعجز من قبل عن وجود معنى للحياة مُستعينًا بالماسونية والدراسة والإِباحية والبطولة وبحبه نتاشا قبل ذلك، ثم لا يجد آخر الأَمر شفاء لنفسه إِلَّا فيما يرى من هذا القروي الذي تنطوي نفسه على الفضيلة والنُبل.

ويحلم بيير في أَسره بالحرية، ولما أَطلق سراحه وجد أَن السجن علمه ما لم تعلمه من قبل الحياة، فقد تعلم «أَنه لما لم تكن هناك حال يكون فيها المرء سعيدًا كل السعادة، حُرًا كل الحرية، فكذلك لا توجد حال تقتضيه أَن يكون غير سعيد وغير حر.. إن لكل من العذاب والحرية حدوده وتكاد تتلاقى حدود هاتين الحالين، وليس في الحياة مواقف أَصعب من أَن يُواجهها المرء».

وتعلم من كارتايف شيئًا آخر هو الإِيمان بالله الحي الباقي، وما كان بحثه عن معنى الحياة إِلَّا بحثًا عن الله، وقد هداه إِيمان كارتايف إلى ربه هدى عجز عن مثله كل شيء من قبل.

هذا هو تولستوي في بيير، ولكن بيير اهتدى في القصة، ولن يزال تولستوي حائرًا يبحث عن الله، ولشد ما سوف يلقاه من حيرته.

***

ومن أَحب الشخصيات في القصة وأَقواها بروزًا شخصية نتاشا، وقد خلقها الكاتب مزيجًا من تانيا ومن أُختها سوفيا زوجته، فهي تانيا قبل زواجها في القصة وهي تشبه سوفيا بعد أَن تزوجت بيير.

كانت تانيا بيرز توحي – كلما زارت أُختها في ياسنايا – إلى تولستوي شيئًا مما

هو بسبيله من بناء قصته، وكان ينظر إليها أبدًا نظرة رجل الفن الذي يستخرج من الحياة مادة فنه.. قال لها ذات مرة «أتظنين أنكِ تقيمين هنا في غير جدوى؟ كلا إني أُراقب كل شيء فيكِ وأثبته». وكان تولستوي شديد الإعجاب بروحها، كتب إليها ذات مرة يقول «حقًا إن من الصعب وجود تانيا أُخرى، لا وليس من يقدرها كما أُقدر». ونصح إليها مرة أُخرى بقوله «تانيا، يا صديقتي العزيزة! إنكِ صغيرة ظريفة، موهوبة، حلوة، فاحذري على نفسكِ وعلى قلبك فإن القلب إذ مُنح مرة لا يُمكن استرجاعه، والقلب المعذب يحمل إلى الأَبد أَثر الجراح».

أَحب تانيا وهي في الرابعة عشرة حبها الأَول، وكان الذي أَحبته ابن عم لها ربته أُسرتها كما لو كان أَخًا وهو ألكسندر كوزمنسكي، ثم فتنت بعد ذلك فتى جميلًا حسن الهيئة يُدعى أَناتول شوستاك، وكان تولستوي يُراقبها ويُحذرها كما لو كان له الولاية عليها، ولقد صرف أَناتول ذات ليلة في عنف من بيته لأَنه ذهب في مُغازلة تانيا إلى أَبعد مما يبيحه الذوق والعرف.

وفي سنة ١٨٦٣ ربط الحب بين تانيا وسيرجي، ولكن سيرجي كان يعيش سرًا في ضيعة مع غجرية جميلة الصوت مُنذ خمس عشرة سنة وقد ولدت له أَولادًا، ولما علمت الغجرية بحبه تانيا برح الأَلم والحزن بها حتى ما يطيق سيرجي أَن يرى عذابها، وأطلع سيرجي أُخته على ذلك، وأَنبأَت به أَخاهما، واعتزم أَخوهما أَن يظهر عليه تانيا في كياسة يتطلبها دقة الموقف، ولما علمت تانيا بالأَمر أَطلقت سيرجي من كلمته على الرغم من أَنها كانت لا تزال تحبه حُبًا شديدًا.

ونال ذلك من نفسها ومن بدنها حتى لتذوي كما تذوي الزهرة يلفحها الهجير، فقد تهامس الناس أَنها خدعت وأَن سيرجي فضل عليها الغجرية، وعلى الرغم من تغييرها المكان عملًا بنصيحة تولستوي، فقد أَلح عليها السقم حتى لتخرج بعض الدم في سعالها، ووضعت في موسكو بين أَيدي ثلاثة من الأَطباء.

وكانت نواسيها زوجة دياكوف صديق تولستوي، ودعتها لقضاء الشتاء عندها،

ولما مرضت هذه السيدة الرحيمة، سهرت نانيا ليالي إلى جانب سريرها، فلما دنا منها الموت طلبت إلى زوجها أن يتزوج تانيا بعدها، فهي خير من تصلح له، وقال دياكوف إنه كان يعد نفسه سعيدًا بها لولا بُعد ما بينها وبينه في العمر.

وعادت تانيا إلى ياسنايا بوليانا، وعمل تولستوي في مهارة حتى قرب بينها وبين ابن عمها ألكسندر حتى كان ذات يوم فسأله ألكسندر عمّا إذا كانت تقبل يده إذا تقدم بالخطبة فقال تولستوي «عجل فإني أظنها تعود الآن إلى حبها الأول»، وتقدم ألكسندر فقبلته تانيا وأصبح لها زوجًا.

ظهرت تانيا في شخصية نتاشا رستوف التي أحبت وهي صغيرة فتى يُدعى بورس، ثم خطبها البرنس أندرو ولكنها وقعت في حب فتى جميل يُدعى أناتول كوراجين وكادت تفر معه، وتسامع الناس بذلك فنال منها وأثر في صحتها وقال لها بيير ذات مرة أنه كان يسعد بها زوجة له لولا بُعد ما بينها وبينه في العمر. ولما مات أندرو، تقدم بيير فخطبها وصارت له زوجة.

وغدت نتاشا بعد زواجها أُمًا أحسن ما تكون الأم، ونسيت لهوها وعبثها ومرحها، ولكنها تريد من زوجها أن يجعل لها فرغه كله، وطلبت إليه ذلك فأدهشه، ولكنه قبله لأن فيه ملقًا لعواطفه، وفي هذه الحياة الزوجية صور تولستوي كثيرًا مما كان بينه وبين وزوجته.

وصف تولستوي حياة نتاشا وصفًا دقيقًا وأظهرها في مواقف كثيرة من مواقف لهوها وحبها، وانقيادها لعاطفتها، وتقلب صروف الزمن عليها، وبلغ من ذلك ما لا يبلغه إلَّا فنان موهوب، فأنت تأنس إلى هذه الصورة وتألفها وتعرفها أكثر مما لو رأيتها حقًا في الحياة، وينقضي زمن طويل بعد قراءتك القصة ولا تزال نتاشا حية في حسك ونفسك.

أما البرنسس ماري فهي صورة على نقيض نتاشا، وهي فتاة دينة تقية تبذل جُهدها لإرضاء أبيها الشيخ في أواخر أيامه، وقد رفضت يد أناتول لأنه طلبها من

أجل ثروتها، وهو الذي افتتنت به نتاشا بعد ذلك، وتحب ماري بعد ذلك نيقولا رستوب، وإِذ تراه يفتر في تودده إِليها بعد وهن ثروة أُسرته، مخافة أن تحسبه يطلب مالها، تحب ذلك منه فتفضي إِليه بحبها وينتهي الأَمر بزواجها منه.

وعلى الرغم من أَنها زوجة صالحة، فهي لا تجد السعادة في هذه الدنيا، ولا تزال تعني نفسها بالمجهول وتُفكر في اللانهاية وفي الأَبدية فلا تكاد تحس الهدوء.

وفي نيقولا رستوف جانب من شخصية أَبيه كما تخيلها، وفي البرنسس ماري كذلك جانب مما تخيله عن أُمه.

وفي القصة غير هذه الشخصيات حشد عظيم خلقهم الفنان الكبرى خلق المتمكن القادر، فليس أَكثر منهم فيمن خالطت من الأَحياء ألفة إِلى نفسك ولا وضوحًا في ذهنك.

***

كان أَكثر ما عني تولستوي بإِبرازه من فلسفته في حياة من ذكرنا من شخصياته هو الغرض من هذه الحياة ومغزاها وكيف يعيشها الإِنسان!

ولكن في القصة غير حياة الأَفراد والأُسر، معارك حربية اشترك فيها بعض هؤلاء الأَفراد وشغلت أأَذهان الشعب الروسي كله، ولقد كان لتولستوي في هذا الجانب الحربي من القصة عملان: عمل الفنان الذي يصور وعمل الفيلسوف الذي يفكر.

أَما عن عمله المتصل بالفن، فلديه الموهبة ولديه التجربة، فقد شهد المعارك في القوقاز وفي القرم، وجاء الوقت الذي يفيد فيه من حياة الجندية، ولذلك جاء وصفه ما وصف من حياة الجند ومن المعارك وعليه طابع الخبير الذي يجعل الفن أداة فحسب للتعبير عن خبرته، لا طابع المتخيل الذي يحتال بالصنعة لتقليد الحياة، لذلك يصف تولستوي الجيش كأَنك تعيش معه، فيطلعك على نزعات الجند وميولهم وأَفكارهم، وكيف يأكلون وينامون، وكيف يزخفون للقتال، وما نظرتهم إِلى ضباطهم

وقوادهم، وهؤلاء الضباط والقواد ما خطبهم وما تفكيرهم وما دسائسهم وما أَطماعهم وما حظ كل منهم من روح من روح البطولة وما حظه من الأنانية، إلى غير هذه من الأُمور التي لن يحدثك عنها إِلَّا من خبرها، وبقدر ما يتوافى له من الفن يكون وقع حديثه في نفسك وخيالك.. ثم تأتي بعد ذلك أَوصاف القتال وما يحدث فيه، وهذه في طوق كل ذي خيال على قدر ما أُوتي من قوة التخيل.

وأَما عن عمله المتصل بالفكر فما يغني عنه إِيجاز ولا إِسهاب، فإِن المجال كله مجال فن، وإِن رجال الفن هنا يخفي الفيلسوف ويبرز بالفن فلسفته، ولا يعمل عمل الملقن الذي يُباغت النظارة فيظهر بين مُمثليه فوق المسرح ويحطم التمثيل بذلك تحطيمًا.

يعرض رجل الفن عليك الحياة، ويخلق من الحوادث ما يُساير ما يريد أَن يقول، وأَنت تستخرج لنفسك معانيه، فإِن كان لا بُد من تفسير فعلى أَلسنة أشخاصه لا على لسانه هو، وهذا هو الفن وشتان بين هذا وبين مؤرخ يكتب أو صاحب مقال يحلل ويشرح.

وماذا يستخرجه المرء من فلسفة التاريخ في القصة مُجردًا من لباسه الفني؟ في هذه الملحمة الكُبرى التي سماها بعد النقدة إِلياذة تولستوي معانٍ في فلسفة التاريخ يرد إِليها جانب كبير مما لهذا العمل الفني من عظيم الخطر.

تدور فلسفة تولستوي التاريخية حول فكرة سماها «قانون ما ليس منه بُد»، فقد لاحظ تولستوي في حياة الأَفراد، أَن أموراً لا دخل فيها لإِرادتهم تتحكم في مصائرهم لأنها تؤثر في اتجاهاتهم من حيث لا يشعرون ولا يريدون.

وليس الأمر قاصرًا على الأفراد، فهذا القانون يعمل عمله في الحوادث العامة فيأتي بها على صورة لم تكن وليدة إِرادة سابقة، بل كثيرًا ما تأتي على عكس ما دُبر وقُدر، وأوضح ما يكون ذلك في ميادين القتال حيث يقع من الحادثات ما ليس له صلة قط بما أحكم من خطة قبل.

وكم شاهد تولستوي فيما شهد من حروب قوادًا يحسبون أنهم مُسيطرون على اتجاه الحوادث إذ هم في الواقع يجرفهم التيار، وكثيرًا ما يرجعون نتيجة ما، إلى كيت وكيت من الأسباب، إذ مردها في الواقع إلى مُصادفات لم تكن في الحسبان أو إلى الإهمال أو الخطأ أو النقص في تنفيذ ما أمروا من أمر، بحيث لو نفذ كما شاءوا لجاءت النتيجة على غير ما يحبون.

ويأتي تولستوي بأمثلة لهذا من أوسترلتز فيعرض طائفة من المصادفات أتت بعضها في إثر بعض فجعلت أخذ الضباط يؤمن بأنه «مثل الحصان ربط إلى عربة ثقيلة وهو يجري في منحدر، فليس يدري أهو يجرها أم أنها هي التي تدفعه، ولكنه يجري قدمًا في سرعة وليس لديه وقت لينظر إلى أية غاية تمضي به حركته».

من هذا القانون «قانون ما ليس منه بُد» أو قانون الضرورة كما يصح أن يُسمى، يستخرج تولستوي طائفة من الآراء، فعنده أن في التاريخ كثيرًا من الأباطيل وهي مع ذلك تُسمى علمًا، وفي زعمه أن ما يذكره المؤرخون من أسباب للحروب بوجه عام إن هو إلَّا وهم من الوهم، إذ لا يُمكن وفق ذلك القانون أن تعين أسبابًا بذاتها تجزم أنها هي لا غيرها التي أحدثت ما حدث؛ لأن هذه الأسباب المزعومة إن هي في ذاتها إلَّا وليدة حوادث ماضية مُشتبكة مُتداخلة لولاها ما كان لها مغزى.

ويستخرج تولستوي كذلك أنه ما من شخصية كبيرة من شخصيات التاريخ تُمثل إرادتها الإرادات الفردية لآحاد الشعب الذي ترى في قمته تلك الشخصية، وما يتحرك التاريخ ويتشكل إلَّا بتحرك هذه المشيئات الفردية التي يتألف منها التيار العام.

وإذا كان الأمر كذلك، مُضافًا إليه ما تفرضه طبيعة الأشياء في بعض المواقف وما يقضي به منطق الحوادث في بعض، مثل إحراق موسكو المبنية من الخشب وقد هجرها أهلها، ومثل تراجع نابليون من عمل فرد أيًا كانت قدرة هذا الفرد، وبناء على هذا فما أسخف ما يُسميه المؤرخون «العظمة الشخصية»، فما هذه إلَّا ضرب

كذلك من الوهم.

وما تكون أسماء هؤلاء «العُظماء» مقرونة بالحوادث الكبرى التي يتخليون ويتخيل معهم المؤرخون أنها من صنعهم إلَّا كالطابع أَو «الماركة» التي تُكتب على السلعة، وليس لهذه الأَسماء العظيمة من أَثر في خلق الحوادث إلَّا بقدر ما يكون لتلك «الماركات» التجارية من أَثر في خلق البضاعة.

ونحن إذا نظرنا في الحوادث التاريخية التي يعزوها القائلون بالعظمة الشخصية إلى العبقرية وحُسن الحظ، فإنّا نجد أَنفسنا من هذه الحوادث تلقاء أَحد احتمالين: فإما أَنها حوادث مفهومة الغرض والمغزى، وفي هذه الحالة يُمكن ردها إلى قانون الضرورة؛ أَعني أَن جُملة حوادث مُشتبكة أفضت إليها، وعِدة أشخاص وظروف عملوا فيها، ولا فضل هنا لفرد واحد، وإما أنها حوادث غير مفهومة الغرض والمغزى، وفي هذه الحال لا يُمكن ردها لا إلى عبقرية ولا إلى حظ حسن.

وليس ينكر تولستوي المواهب والقوى الذاتية، وإنما ينكر أَنها هي التي تخلق الحوادث وتُشكلها وتسوقها في مجراها، وما هذا الذي نُسميه عظيمًا إلَّا رجل هيأه القدر على هذه الصورة دون إرادة له ليقترن اسمه بالحوادث، وما يكون تأثيره فيها إلَّا جُزءًا من كثير من المؤثرات وإنما يعزى إليه كل شيء.. وكذلك كان نابليون.

ولقد أدى الإيمان بالعظمة الفردية إلى خطأ، بل إثم يقترفه المؤرخون وهو عدم اكتراثهم للقيم الخلقية والأدبية، فما يعزى إلى العظيم من عمل فهو فوق الخطأ والصواب، ولو جاء على نقيض ما تسلم به الإنسانية من أُصول العدالة والحق، فغزو نابليون أُوروبا وروسيا مع ما صحبه من جرائم يُوصف بأَنه عمل رجل فذ من ذوي العظمة والمجد، ويُؤخذ على أَنه مظهر من مظاهر العبقرية.

ولا يقل خطأ المؤرخين في تصور أثر السلطة أَو القوة في خلق الحوادث، عن خطأهم في تصور أثر «العظمة الفردية»، فهم يزعمون أَن السلطة هي إرادة الأفراد مُجتمعة قد نُقِلَتْ إما بالموافقة المعلنة أو بالقبول الضمني إلى يد فرد أو أَفراد ارتضتهم

الأُمة لحكمها، وهؤلاء الأَفراد بما لهم من قوة الأمر يوجهون الحوادث بأوامرهم فيخلقون التاريخ.

ويرى تولستوي أَنه ما من حادثة تاريخية إلَّا وقد نجمت من حادثة أو جُملة حوادث قبلها وهي في ذاتها حلقة تصل ما بعدها، وإذا كان نابليون قد أَصدر أَمره بغزو روسيا، فهذا ما أفضت إليه جُملة اعتبارات من قبل، وليس معنى أَنه أَمر بهذا، أَن الغزو كان نتيجة لهذا الأَمر وحده، فما فعل نابليون أَكثر من أَنه دفع إلى الحركة جُملة أوامر سارت بعضها تحت بعض حسب درجات القواد والضباط الذين يصدر كل منهم أوامره من أجل غرض محدود، وعلى قدر ما يتم من تنفيذ هذه الأَوامر المشتبكة يكون مصير الغزو من النجاح أَو الفشل.

ولا بُد من جُملة شروط وظروف تجعل تنفيذ أَي أَمر من الأُمور مُمكنًا.. وما يأمر آمر إلَّا وهو يعتقد أَن أمره سوف يُنفذ حسب صدوره، ولكن غالبًا ما يأتي الحال بخلاف ذلك؛ إذ أَنه لكي يضمن آمر تنفيذ أمره يجب أن يعلم سلفًا أن من الممكن تنفيذه، وهذا العلم المطلوب في الأَكثر غير مُستطاع.. ذلك أَنه بجانب الأمر الذي ينفذ حسب الخطة المقررة أوامر أُخرى تُنفذ تنفيذًا ناقصًا أَولا تنفذ ألبتة، وإن الأمر الذي لا يُساير ما فرضه منطق الحوادث وما حتمه من اتجاه لا يُرجى له تنفيذ، وما ينفذ في الأكثر من الأوامر إلَّا تلك التي تُطابق ما عساه كان يحدث حتى ولو لم تُصدر.

وعلى هذا الأَساس كانت جيوش نابليون ظافرة طالما أدت جُملة حوادث مُشتبكة مُتداخلة إلى ظفرها، فلما تغير وضع تلك الحوادث وتغيرت وجهتها، صار موقف نابليون من مجراها موقف من يطلب إلى موج البحر أَن يرتد، وظلت أَوامره تترى ولكن في غير جدوى.

ويجهل المؤرخون جهلًا شديد حين يعزون الحوادث إلى إرادة الشخصيات التاريخية كما تبدو في أَوامرهم، إذ الواقع أَن هؤلاء وأَوامرهم إنما يخضعون للحوادث.

وخلاصة ما يذهب إليه تولستوي ومرده إلى قانون الضرورة، هو أن حركات الأُمم لا تُسببها القوة ولا النشاط العقلي ولا اجتماعهما كما يظن المؤرخون، وإنما يُسببها نشاط الأُمة كلها مجتمعها في صورة يكون فيها أُولئك الذين يتصلون بالحوادث بِأَكبر قسط صلة مُباشرة أَقل الناس في الواقع نصيبًا من تحمل المسؤلية أَو أَبعدهم عن إسنادها إليهم.

وماذا يُسبب اجتماع هذا النشاط؟ ذلك ما لا نستطيع أَن نعرفه، ومن هنا لا نستطيع أَن نعرف أَسباب الحروب ولا الثورات، ومهما فكرنا فلن نستطيع أَن نذهب إلى أَبعد من قولنا إن ذلك الاجتماع إذا حدث فهو ضرورة أَو هو أَمر لم يكن منه بُد، وعلى ذلك فهو قانون.

وما كانت قصته التاريخية الكُبرى إلَّا معرضًا لهذا الرأي، فليس فيها كما أَسلفنا من بطل قط إلَّا الشعب الروسي مُجتمعًا في نضاله ليتخلص من الغُزاة.

ويرى تولستوي أَن تكون وظيفة التاريخ النظر في الحوادث على أَساس قانون الضرورة إلَّا كان عمل المؤرخين مُجرد البحث عن مُبررات لما يحدث، فيثني على فلان وهو في الواقع لا يستحق ثناء، ويُعاب على فلان وهو بريء من العيب.

وبقدر ما يكون نقص الإنسان في الثقافة والمعرفة بوجه عام، يكون اعتقاده بحريته في العمل أعني الاختيار، فإذا اتسع أُفقه وعمقت نظرته واستطاع أَن ينظر في نفسه وفي الحوادث استطاع أَن يرى ما فيها من الضرورة، وهنا تتناقص عقيدته في الاختيار، وكلما ازداد معرفة بالبواعث والظروف ازداد نبذًا للاختيار وإقبالًا على التسليم بالضرورة.

ولن يكون التاريخ علمًا إلَّا إذا درست الحوادث على أَساس ذلك القانون الذي يرد إليه تولستوي كل فلسفته التاريخية، فإننا بذلك نستطيع أَن نصور أَحكامنا على الحوادث عن بينة بقدر ما يتسع له علمنا بما أَحاط بها، وفي هذه الحال لا يكون عمل التاريخ البحث عن أَسباب الحوادث، وإنما يكون عمله استخراج القوانين على أَساس

علمي والتكهن بما يحدث على أَساس قياسي، إِذ أَن مرد الحوادث جميعًا إِلى ما ليس منه بُد، إِلى ذلك القانون الذي لا نعرف كيف يحدث.

***

تلك هي خلاصة فلسفة تولستوي التاريخية عرضناها في إِيجاز كما عرضنا من قبل ما جاء في قصته من نظراته في الحياة والغرض منها، وشتّان بين هذه المعاني المجردة نعرضها على هذه الصورة، وبينها في القصة حيث يعرض عليك تولستوي بأُستاذيته وعبقريته الحياة نفسه فتستخرج منها هذه المعاني وكثيرًا غيرها، وكأَنك تعيش تلك الحقبة مع أَهلها تحس إِحساسهم وتفكر تفكيرهم، فهذا الكاتب العظيم لا يقول لك باللفظ وحده ما يريد أَن يقوله عن الحياة، وإِنما عماده الفن فهو يوحي إِليك ويبهرك ويحبب إِليك عمله ويملأَك إِيمانًا، وقد يسحرك عن نفسك فتسلم معه بما لا تعتقد، ولا يسعك في كل حالة إِلَّا أَن تقول لنفسك: ما أَصدق هذا، إِن هو إِلَّا حياة كما تكون الحياة.

أَما عن قوام فنه فسوف نعقد فصلًا خاصًا نُبين فيه خصائص هذا الفن ومبلغ ما توافى له فيه من الابتداع والروعة.

وإِن المرء ليشعر بالسرور والأَسف معًا إِذ يفرغ من قراءة هذا الكتاب العظيم الضخم، أَما سروره فلما تركه من عظيم الأَثر في نفسه، وأَما أَسفه فعلى مفارقته تلك المشاهد التي استمتع بها زمنًا طويلًا وأُولئك الأَشخاص الذين أَحبهم وعرفهم ولمس دخائل نفوسهم وأَحس إِحساسهم، وكم يشعر المرء بالرغبة في الرجوع إِلى قراءته مرة ومرة، والعودة إِلى تلك الصالونات الحافلة بالحياة والبهجة والزينة، والناس من كل نمط، وإِلى ميادين القتال في أوسترلتز وفريدلند وبورودينو، وما تزخر به من مشاهد وحركة، وإِلى قلوب أُولئك الأَشخاص من رجال ونساء، وإِلى أَطواء نفوسهم وما يعتلج فيها من عواطف وانفعالات.

***

بقي أَن نشير إِلى قيمة هذا العمل الفني الفذ.. وما اكتسب الكتاب من منزلة بين آثار القلم عامة، والرأَي الشائع بين نقدة الأَدب، إِن هذه القصة تُمثل أَسمى ما وصل إِليه الفن القصصي في روسيا في القرن التاسع عشر، عصر نبوغ هذا الفن، وهي إِحدى آيات هذا الفن في العالم كله، وأَية تولستوي الكبرى وإِن كان بعض النقدة يُفضل عليها قصته «أَنا كارينيا»، ويكاد يتفق النقدة على أَنها أَعظم قصة أَخرجها القرن التاسع عشر، وذهب جولزورف إِلى أَنها أَعظم قصة ظهرت في أَدب الدنيا قاطبة.

والحق أَنها كأثر من آثار تولستوي قد اشتملت على أَكثر مُميزاته، ففيها تجارب شبابه، وفيها مظاهر وجدانه وسمو عاطفته وحِدة ذكائه ونفاذ بصيرته، ويقظة حواسه، ودقة خياله، واستقلال رأيه، وشاعرية روحه، وحرارة قلبه، وفيها خبرته بحياة الجندية وصدق علمه بالحياة المدنية في صالونات الأَرستوقراط وأَكواخ الفلاحين، وفيها ما ذاقه من اللهو والعبث أَيام عرامته، وفيها عواطفه ربًا لأُسرته، وفيها أَثر تأَملاته ودراسته، وفي الجملة تجد فيها شخصيته بما تحتويه تلك الشخصية العجيبة من تقلب وتناقض.

وهي كعمل فني في ذاته، فضلًا عمّا فيها من مقومات الفن وأُصوله، فيها صورة كاملة للحياة الإِنسانية، وفيها صورة كاملة لروسيا في ذلك العهد، وفيها فلسفة الموت والحياة والسعادة والشقاء، والحب والأَمل، وفيها خصائص شعب ومشاعره وروحه العامة، وكل أُولئك ومضات ذهن عبقري وصنعة فنان موهوب، ولم يجرها تولستوي على غرار القصص بقصرها على حادث رئيسي واحد، وإِنما بناها كما تبنى الملاحم، فهي إِلياذته أَو إِلياذة الشعب الروسي في جهاده، قال يشير إِلى ذلك «أَبطال؟ إِن هذا لأَكذوبة، وإِنه لاختراع.. ليس في قصتي إِلَّا ناس فحسب.. ناس لا شيء أَكثر من ذلك». وقد برع تولستوي في تصوير مشاعر هؤلاء الناس فيما أجراه من أَحاديثهم، العلية منهم والعامة.

ولما نشرت هذه القصة لم تلق أَول الأَمر ما لقيته بعد ذلك من إِجماع على

امتداحها، بل لقد هاجمتها بعض الصحف هجومًا شديدًا، ولم يدافع عنها في تحمس إلَّا ستراخوف أَحد كبار النقاد، ولقد عقد لدراستها جُملة فصول.

وتلقى فت من ترجنيف كتابًا أَرسله من باريس يقول فيه «إن القصة كلها متكلفة وأَن قسمها الثاني ضعيف»، وكتب بعد ذلك بسنة يقول «إنها قصة رديئة».

أَما دستويفسكي فقد أَرسل إلى صديق له يقول «قرأَت نقدًا لقصة الحرب والسلام، وكم ذا أَحب أَن أَقرأَها كلها، لقد قرأَت نصفها فقط، لا بُد أَنها شيء معجب، ولو أَن مما يُؤسف له أَنه ليس فيها قدر كاف من التفصيلات السيكلوجية، ومع هذا فإنه بسبب ما فيها من التفصيلات كم يقع المرء فيها على ما هو جيد».

وغير ترجنيف رأَيه في نفس السنة فكتب إلى فت يقول «لقد فرغت لساعتي من قراءة المجلد الرابع من القصة.. إن فيها أَشياء لا تُطاق، وفيها أَشياء هائلة، وقد بلغت تلك الأَشياء الهائلة فيها من الروعة بحيث لم يسبق أَن كتب أَي كاتب عندنا خيرًا منها، وأشك في أَنه قد كُتب نظير لها».

وامتدح فلوبير القصة بعد ظهورها بعشر سنوات بقوله «هي قصة في ثلاثة مُجلدات بقلم ليو تولستوي الذي أَعده أَعظم كاتب في عصرنا.. إنها من الطراز الأَول.. أي أُستاذ هذا وأَي فنان وأَي تحليل سيكولوجي! إن الإنسان يرى فيها الطبيعة ويرى الإنسانية، ويُخيل إليّ أَن فيها أَحيانًا تشبه شكسبير، لقد كنت أَصيح صيحات الإعجاب أَثناء قراءتها، وإنها لقصة طويلة.. أَجل، أَجل إنها جميلة.. جد جميلة».

ورد ترجنيف عليه بقوله «إنك لا تستطيع أَن تتصور مبلغ ما بعثه من سرور في نفسي ثناؤك على قصة تولستوي وإن رأَيك هذا يقوي رأَيي فيه، حقًا إنه رجل جد عظيم».

وبينما كان يقرأ تشيكوف القصة بعد نشرها بِأَكثر من عشرين سنة كتب إلى أَحد أَصدقائه يقول «إني أَسهر كل ليلة في قراءة قصة الحرب والسلام وفي نفسي

شعور صادق هو شعور العجب من جانب رجل لم يقرأَها من قبل.. إنها جيدة إلى درجة تدعو إلى الدهشة».

وأَخذ الناس يعرفون قيمة القصة ويقدرونها حق قدرها كلما مرت الأَيام حتى غدت في دنيا القصص كصاحبها بين الأُدباء قمة من القمم، فما يذكر فن القصة إلَّا ذكرت «الحرب والسلام» على أَنها ركن من أَركانه.

# بعد الحرب والسلام

أَنهك الجد المتصل في ست سنوات بدَن تولستوي القوي فبدا عليه السقم كما لحق بذهنه الكلال، فكان لا بُد له أَن يستجم، ولكنه أَقبل على الرغم من ذلك يقرأ الفلسفة ويستغرق في ذلك استغراقًا عجيبًا، فقرأ كانت وشو بنهور خاصة وأعجب بهما إعجابًا شديدًا.. ولقد كان تحمسه لشو بنهور عظيمًا، كتب إلى فت في الثالث من أُغسطس سنة ١٨٦٩ يقول «حقًا إنه ما من تلميذ في منهجه تعلم بقدر ما تعلمت أَو كشف بقدر ما كشفت في هذا الصيف، لست أَدري ما إذا كنت أُغير رأيي في المستقبل، ولكني الآن أَعتقد أَن شو بنهور أَعظم عبقري بين الناس.. لقد أَخذت أترجمه، إلا تعمل معي في هذا العمل فننشره سويًا؟ لست أَستطيع أَن أَتصور بعد قراءته كيف يبقى اسمه مجهولًا.. إني أُفسر ذلك بما اعتاد أَن يُكرره من قول، وذلك أَنه قلما يوجد في الدنيا غير الحمقى».

وأَخذ تولستوي يتعلم الإغريقية، واشتد إعجابه بهومر وهيودوت وزينوفون وتقدم في هذا المضمار تقدمًا عجيبًا في بضعة أَشهر، حتى إنه ليجادل أَحد أَساتذة الإغريقية في موسكو ويُراجعه في ترجمة بعض الفقرات.

وقرأ كذلك بعض الروايات المسرحية لشكسبير وجيته وموليير، وكان يجد في هذه القراءة بعض الهدوء لنفسه من عناء الفلسفة ومن عناء تأَملاته.

ولكن الكتابة كانت عنده العمل الجدي الذي يصغر حياله كل عمل غيره وعلى الرغم من قراءته، ونشاطه سنة ١٨٧٠ في الإشراف على أَعمال ضيته، كان لا يفتأ يشكو الخمول والكسل في تلك السنة، وطالما فكر فيما عساه أَن يصلح موضوعًا لقصة كبيرة أُخرى، قالت زوجته «كان يعتقد في بعض الأَحيان أَن الوحي عاد إليه فيطيب نفسًا بذلك، وكان يُخيل إليه أَحيانًا أَنه سوف يفقد عقله، ولقد اشتد به

الخوف من الجنون حتى إني لأَمتلئ رعبًا كلما اتجه حديثه إلى ذلك».

***

كان تأَمل تولستوي في بعض المسائل الفلسفية يلقي على نفسه كثيرًا من الهموم، وكان أَكثر ما حبب إليه شو بنهور تشاؤمه، وطالما أَسلمه تأَمله إلى حالات كان يخشى فيها على نفسه وعقله، والحق أَن هذا التأَمل كان يكرب نفسه في أَوقات كثيرة طيلة تلك السنوات الست التي كتب فيها قصته الكُبرى.

وعاودته هذه الهموم بعد فراغهم من قصته، ولم تغن عنه قراءته المسرحيات ولا تعلمه الإِغريقية، وساءت صحته وصار لا بُد له من الراحة، وأَشارت عليه زوجته أَن يُسافر إلى سمارا ليُعالج مرضه بالكوميس كما فعل قبل زواجه.

ورحل تولستوي إلى سمارا في صيف سنة ١٨٧١ وقد ركب القطار على رغمه لأَنه كان يكره كل المظاهر الحديثة وينكر أَنها من المدنية، ثم ركب قاربًا بُخاريًا في نهر الفلجا حتى وصل إلى الجهة التي زارها سنة ١٨٦٢، وركب تولستوي في الدرجة الثالثة في القطار، وكثيرًا ما كان يختار هذه الدرجة إذا اضطر إلى ركوب القطر؛ لأَنه بات يكره الترف، وأَخذت تسيطر عليه نزعة الاتصال بالفلاحين والفقراء والتدسس إلى عواطفهم وأَفكارهم ليرى مبعث إيمانهم وتدينهم، ولقد تحدث إلى الكثيرين منهم في رحلته هذه واتخذ له منهم أَصدقاء.. وفي سمارا أَقام تولستوي في خيمة مع صهره ستيفن بيرز وخادمه إيفان، وكانت تتأَلف الخيمة من أَربعة أَقسام: أَولها للنوم، وثانيها للجلوس والكتابة، ثم ثالثها وقد جعل مخزنًا للمتا، ورابعها وبه الحمام وما يلحق به.

وكان يعرف تولستوي بعض رجال القبائل هناك مُنذ رحلته السابقة، كما كان اللغة التترية مُنذ درسها في الجامعة، وسرعان ما تمكنت الأُلفة بينه وبينهم كما تمكنت من قبل، وكان يعيش في إقليمهم كأَنه أَحدهم، يلبس ملابسهم، ويأَكل طعامهم وقوامه لحم الضأَن كل يوم، ويزور شيوخ القبائل في خيامهم حيث كانوا يعيشون عيشة بدوية، يجلسون على البسط التي صنعوها بأَيديهم ويأَكلون الضأَن بأصابعهم في

صحاف من الخشب، وكان تولستوي يعيش في خيمته ورفيقه وخادمه مثل هذه المعيشة، ويجد في ذلك بهجة لروحه.

وكتب إلى زوجته، يصف لها معيشته، ويسألها عن ابنته التي وُلِدَتْ له أَول هذه السنة والتي سماها ماري، ويذكر لها من حياة قبائل الباشكير التي يعيش بينها ما تعجب منه وتكاد تعده ضربًا من الخيال.

وكان إذا زار تولستوي أَحد شيوخ تلك القبائل أَسرع كما هو العرف فذبح له كبشًا سمينًا، وقام على خدمته بنفسه، ثم قدم له الكوميس، ولا يستطيع الضيف أَن ينصرف بغير أَكل وإِلَّا كان هذا إِساءة منه لمضيفه.

وزار تولستوي كثيرًا من الجهات المجاورة، ووقف على كثير من طباع الناس وأَحوال معيشتهم وعاداتهم ولهوهم وأَغانيهم، وكل ما يعنيه أَن يعرفه من حياتهم.

ووقف تولستوي على العقيدة المسيحية كما يدركها سكان تلك الجهات، واستمع إِلى مُناقشاتهم بعضهم بعضًا، وفكر فيما بينها من فرق وبين ما تدين به الكنيسة الروسية الإِغريقية، ثم إِنه أَصغى في سرور إِلى بعض أَصدقائه من المسلمين واستفهمهم كثيرًا عن أُصول دينهم حتى إِنه رغب في قراءة القرآن، ولما عاد إِلى قريته أَرسل في طلب ترجمة فرنسية له وقرأَها في إِمعان وتدبر.

وبلغ به حبه هذه الحياة الفطرية الساذجة أَنه اشترى ضيعة هُناك كي يأَتي وأُسرته فيقيموا زمنًا في تلك الجهات كلما أَحبوا ذلك.

وعاد تولستوي من رحلته وقد لبث شهرين في تلك السهول الفسيحة يشرب الكوميس، ولكن زوجته لا تحس أَثرًا للكوميس، فإِنها وإِن كانت لا ترى السقم في بدنه، تعتقد أَن المرض لا يزال كامنًا فيه، قالت «إِني لا أَستطيع أَن أَرى المرض ولكني أَحسه فيما أراقبه من سأَمه من الحياة ومن كل ما يحيط به، ذلك السأَم الذي بدأَ يظهر عليه مُنذ الشتاء الماضي.. يُخيل لي أَن ظلمة مرت من بيننا ففصلتنا أَحدنا عن الآخر وفي ذلك الشتاء حين كنا مريضين، أَحسست أَن شيئًا طرأَ على حياتنا، لقد

فقدت إيماني الشديد بالحياة والسعادة.. إن ليو لم يعد ذلك الذي عهدته من قبل.. إنه يقول إنها الشيخوخة، وأنا أَقول إنه المرض، ولكن هذا الشيء كيفما كان أَمره قد وقع بيننا».

وهكذا لا تفتأ زوجته تظن الظنون وتسلم نفسها إلى هواجسها، ولعلها لم تكن مُخطئة هذه المرة، فقد كان مما يُفكر فيه زوجها يومذاك كما جاء بعد سنين في مُذكراته أَنه فشل في زواجه وأَنه يعيش وحده إذا ذكر حياته العقلية والروحية.

***

عاد تولستوي من سمارا فاتجه ذهنه في سبتمبر سنة ١٨٧١ إلى عملٍ ما كان يتوقع منه بعد قصته الكُبرى، وذلك العمل هو وضع كتاب لمطالعة الأَطفال جعل عنوانه الحروف الثلاثة الأُولى من الأَبجدية، وكان عجبًا أَن يتجه مُؤلف «الحرب والسلام» هذا الاتجاه، وهو الذي بات جمهور الأُدباء والنُقاد والقُراء يرتقبون حتى يجيئهم بآية أُخرى، والذي قال عنه ترجنيف قبل ذلك بنحو شهرين في كتاب إلى فت يسأَله فيه عن صحته «إنه الأَمل الوحيد الذي بتنا نرجوه لأَدبنا اليتيم، وإنه لا ينبغي أَن يزول من فوق الأَرض قبل أَوانه كما ذهب أَسلافه الثلاثة، بوشكين وليرمنتوف وجوجول».

لم يشغل بال المؤلف العظيم شيء يتصل بأدب قومه اليتيم، وإنما شغل باله كيف يُطالع أَبناء الفلاحين مُطالعة أَولية تُوحي إليهم أَذواقهم وتنشئ عواطفهم وتصقل أَذهانهم وتوجه بيانهم.

لهذا شمر تولستوي وأَقبل على عمله في حماسة عجيبة، وقد نشر من كتابه قبل الفراغ منه قصتين تناقلتهما المجلات، وذلك حين أَلح أَصحابها عليه بطلب شيء ينشرونه وقد علموا أَنه يعد ذلك الكتاب. أَما القصتان فهما «سجين في القوقاز» و«الله يرى ولكنه يمهل»، ولقد بلغ من إعجاب تولستوي بكتابه أَنه قال فيما كتبه عن الفن فيما بعد «إنه خير ما كتب جميعًا».

كان يتألف هذا الكتاب من قصص بناها على مشاهد حياته، ومن قصص استمدها من منابع هندية وعربية، ومن خرافات إيسوب، وراعى في كتابتها ما يريد للأطفال وفق آرائه في التربية ومذهبه في الفن.

وأضاف إلى هذا الكتاب قسطًا في تعليم الحساب والعلوم الطبيعية والفلك كما يرى أن يكون.. كتب حين فرغ من كتابه إلى بعض أصدقائه فكان مما قاله «من الصعب أن أفصح لك عمّا أردته بهذا الكتاب، وما موضعه من نفسي.. إن ما يدور حول هذا الكتاب الأوّلي من أحلامي هو أن يكون وحده الكتاب الذي ينشأ عليه جيلان من أطفال روسيا، وأن هؤلاء يستخرجون منه ما يستقر في نفوسهم من شعر، وأن أموت أنا كاتبه مُغتبطًا بذلك».

وأعاد تولستوي مدرسته في أوائل سنة ١٨٧٢ ليرى كيف يقرأ كتابه، وكان يعينه ومن معه من المعلمين في تعليم أبناء الفلاحين الهجاء زوجته وابنه سيرجي وكان في نحو الثامنة من عمره.. وكان عدد هؤلاء الأبناء خمسة وثلاثين. ولم تقعد زوجته عن معونته إلّا حين اضطرها الوضع إلى القعود، فقد ولدت في مايو من هذه السنة ولدًا سماه بيتر.

***

وذهب تولستوي في صيف هذه السنة إلى سمارا، واستصحب من رجاله من عهد إليهم القيام على بناء بيت له هناك، والنظر في إعداد الأرض للحرس والزرع.. ولكن طبع كتابه، وقد عهد به إلى أحد أصدقائه في بطرسبرج، كان يقلق باله وهو في سمارا فعجل بالعودة إلى قريته.

ولما عاد وجد نفسه تلقاء حادث جديد زاده مقتًا للسلطة وطغيانها في روسيا؛ وذلك أن ثورًا من ثيرانه قتل أحد فلاحيه، وكان حاكم تلك الجهة متغطرسًا يُمثل طغيانه أمثاله من رجال الحكومة، فعد تولستوي مسؤولًا لأنه صاحب الثور وجعل مرد تبعته إلى «سوء قيامه على شؤون قطعانه»، واضطره أن يُقدم عهدًا مكتوبًا ألّا يبرح

ياسنايا حتى يبلغ التحقيق نهايته.

وبلغ الحنق تولستوي كل مبلغ، وإنه ليعلم عن ذلك الحاكم أنه أَلقى ذات مرة بِأَحد الفلاحين في السجن سنة ونصف سنة لمجرد الظن أَنه سرق بقرة حتى ظهرت براءته.. كتب إلى ابنة عمه يقول «إنني الآن في الأَسر إذ لا أَستطيع أَن أَبرح بيتي وذلك بأَمر من صعلوك حدثٍ هنا يسمونه خطأً قاضي تحقيق.. وعمّا قريب سوف أدعى للدفاع عن نفسي في المحكمة.. وإذا لم أَمت كمدًا في السجن حيث أَحسب أَنهم سوف يلقونني، فإني قد جمعت عزمي على أَن أَعيش في إنجلترا إلى الأَبد، أَو على الأَقل حتى يأَتي الوقت الذي تحترم فيه هنا حرية الإنسان وكرامته».

واستمر التحقيق نحو شهر، وعدل عن اتهام تولستوي إلى اتهام المنوط بشؤون الضيعة من رجاله، وقد كتبت عِدة صحف مُنددة بما فعل الحاكم، واستطاع تولستوي بعد انقضاء هذا الشهر أَن يُسافر إلى موسكو وكان ذلك في سبتمبر، ثم عُدل أمام تنديد الصحف عن الاتهام والتحقيق جميعًا.

***

وفي شهر نوفمبر تم طبع كتابه؛ أَي بعد أَربعة عشر شهرًا من بدء كتابته، وشغل تولستوي عن غضبه، رده في الصحف على ما وجه من نقد إلى ذلك الكتاب، الذي ظل نحو ثلاث سنوات موضع اهتمامه مُنذ فكر فيه وأَخذ في جمع مادته.

ودعا تولستوي نحو اثنى عشر مُعلمًا من القرى المجاورة فأقاموا ضيوفًا عنده نحو أسبوع، ظل يشرح لهم فيه غرضه من هذا الكتاب وكيف يُمكن الإفادة منه.

وجعل تولستوي يتعقب الصحف فيرى ما تكتب عن كتابه، وكان لا يدع صحيفة إلَّا رد عليها وأَبان لها مبلغ ما في نقدها من تجن أَو صواب.

وكان قد توقع تولستوي عدم ذيوع كتابه أَول الأَمر، وقد صح ما توقع فلم يشترِ منه عقب صدوره إلَّا عدد لا يتفق وما علق عليه من رجاء، على أَنه ذاع بعد

ذلك وصار يعد خير كتاب لتعليم الأَطفال في روسيا.

وانتقدت الصحف آراء تولستوي في التعليم، ولم يتهاون في الرد عليها جميعًا رد المؤمن بفكرته، المتحمس لما يرجو من صالح عام، وقد أَذاعت هذه الحملة الصحفية آراءه في التربية، وبخاصة بعدما ذهب له من صيت وما توطد من مكانة بقصة «الحرب والسلام».

***

ما الحياة؟ وما الغرض منها وما نهايتها! ما الموت؟ وماذا بعد الموت؟ أَما لهذه الألغاز من حل؟ أَما من سبيل للفكر في هذه الظلمة الغاشية؟ أَما من هاد؟

ذلك ما عاد يكرب رجل الفن بعد أَن نفض يديه من كتابه الذي وضعه لمطالعة الأَطفال، ماذا أَفاد من شو بنهور؟ لا شيء إِلَّا الإمعان في الشك والاستغراق في التشاؤم! وماذا أَفاد مما قرأَ جميعًا؟ لا شيء.. ألا شد ما تتعذب نفسه وما أَكثر ما يتمنى الموت على شدة تعلقه قبل هذا العذاب بالحياة.

أَلَا يبلغ النرفانا؟ أَجل ألا يفلت من قيود هذا الوجود، وتنطلق روحه من إِسارها ولقد ذاق ما ذاق من أَلم ومن عذاب الحيرة؟ «إِن الدين لشيء عجيب إِذ أَنه في جملة عصور قد منى الملايين من البشر وأَسعدهم بتلك المنى، أَلا وهي بلوغ النرفانا، ولكن كيف يكون الدين منطقيًا بهذا العمل؟ لك وحدك أَسمح لنفسي بكتابة مثل هذا»، ذلك ما أَرسله صديقه فت في أَول سنة ١٨٧٢.

لو أَوشكت أَن تنتابه تلك الأَزمة النفسية التي سوف تأَخذه من أَقطاره بعد بضع سنين وما يخرجه منها اليوم إِلَّا حنينه إِلى الفن.. إِنه يريد أَن يكتب قصة أُخرى كبيرة مثل قصته «الحرب والسلام» التي تتحدث بها روسيا كلها وأَساطين الفن في أُوروبا.

وماذا يتخذ موضوعًا لقصته الجديدة؟ ذلك ما يحيره اليوم كما تحير من قبل في

موضوع قصته السالفة.

وإنه ليتجه هنا كذلك إلى التاريخ، ويختار عهد بطرس الأكبر، وإنه ليدرس ذلك العهد دراسة مُفصلة على نحو ما فعل في القصة السالفة، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من عادات الناس وملابسهم وميولهم وأفكارهم، ولا يدع صورة أو وثيقة أو كتاب.

وفي أواخر يناير سنة ١٨٧٣ ينظر فإذا به قد كتب أكثر من عشر افتتاحات لقصته الجديدة، ولكنه يعرض عنها جميعًا، فلم يعجبه منها شيء، وكان يقول «إن الآلة على أهبة.. وإن الموضوع هو الذي يُحركها».

ونفر تولستوي من شخصية بطرس، ومن شخصية منشكوف أحد المقربين إلى القيصر، بعد أن كان يرى في منشكوف هذا شخصية روسية قوية نجمت من عنصر الفلاحين وتمثل هذا العنصر خير تمثيل.

وفي الثامن عشر من شهر مارس فاجأ تولستوي زوجته بقوله «لقد كتبت صفحة ونصف صفحة وأظنه شيئًا جيدًا»، وتلى عليها فاتحة قصته الجديدة «أنا كارينينا».. وهكذا تحركت الآلة ولكن بموضوع ليس من التاريخ.. وسنأتي بحديث هذا الموضوع على سرده.

***

أخذ تولستوي يكتب قصته، وكان يومئذ في الرابعة والأربعين من عمره، وكان يحيط بزوجته عدد من الأطفال أكبرهم في التاسعة.. ولكنها على الرغم من ذلك ترحب مُبتهجة بعودة زوجها إلى الكتابة ليكون لها من جديد فخر معونته. ولم يكن عمله مُتصلًا في هذه القصة كما كان في سالفتها، فكانت تتخلله فترات انقطاع، ومن ذلك ما حدث في شهر مايو من هذه السنة، إذ ذهب وأُسرته جميعًا فقضى نحو ثلاثة أشهر في سمارا.

واستعان تولستوي في سمارا برجل مُسلم يُدعى مُحَمَّد شاه، وصفه بأنه أمين

مُواظب، مُهذب الطبع، حريص على كرامته، يمتلك عددًا من الأَفراس وله زوجة نشطة تختبئ خلف ستار إِذا دخل بيته ضيوف، واستأَجره تولستوي ليقوم على حراثة أَرضه، وكان يزوره في خيمته، وتوثقت الصداقة بينهما سنوات طويلة.

وكأَنما جاء القدر بتولستوي إِلى سمارا ليكون في مجيئه مظهر رحمته بعد أَن أَخذ الناس بنقمته، فقد حلت بتلك الجهات مجاعة لسوء المحصول ولرداءاته عاملين مُتتاليين قبل عامهم هذا، وجاءهم القدر بالرجل الذي تستمع لصوته الملايين إِذا هتف يطلب الغوث.

وهال تولستوي ما رأَى، فالجوع يودي بحياة الكثيرين، والرجال لا يجدون عملًا، والقطعان هزيلة والمرض يستشرى في القرى.. والناس في منعزلهم هذا عن دنيا المدنية لا يجدون مُعينًا لهم فيما حاق بهم من بلاء.

وأَرسل تولستوي صيحته في إِحدى صحف موسكو الكبيرة، وبدأَت زوجته قائمة تبرع بمائة روبل قالت إِنها المبلغ الأَول، واستعان تولستوي ابنة عمه أَلكسندرا، وسرعان ما لبت القيصرة نفسها فتبرعت بمبلغ كبير، وما هي إِلَّا أَيام ثم بلغ المال المتبرع به من الشعب مليوني روبل، وأغيث الناس وقد كان يتخطفهم الموت.

وكان تولستوي أَثناء المحنة يزور الأَسر بنفسه في القرى المجاورة ويجود بما في يديه من مال وقمح، الأَمر الذي لم ينسه له الناس زمنًا طويلًا.

وعاد تولستوي وأُسرته إِلى ياسنايا في أَواخر أُغسطس ليستأَنف العمل في قصته، وهُناك في ياسنايا سَمِعَ أَن أحد كبار المصورين قد استأَجر مكانًا قريبًا ليصور منه تولستوي وهو مار به على قدميه أَو على ظهر جواده، ولما علم تولستوي أَنه استأَجر المكان لهذا الغرض، وأَنه لفرط حيائه وتواضعه لم يستطع أَن يطلب إِليه الإِذن له بتصويره، دعاه إِلى بيته وأَكرمه، ثم إِنه سمح له بما طلب على مضض لأَنه كان يكره هيئته ولا يحب أَن تنشر في الناس صورته.

وأصيب تولستوي وزوجته بموت أصغر بنيهم بيتر، وكتب تولستوي إِلى فت

يصف له مبلغ حزنه وحزن زوجته، ويقول إنه يحاول أن يتأَسى لولا القلب وبخاصة قلب الأُم، وكان هذا أَول ما ابتلى به من نقص في الأَنفس مُنذ زواجه.

وشغَل تولستوي عن قصته في سنة ١٨٧٤ عودته إلى التعليم وشؤونه، فقد اهتم تلك السنة بالدفاع عن آرائه في التربية، وبدأ ذلك بمحاضرة أَلقاها في إحدى الجمعيات وإن لم يك يحب التحدث في المجتمعات العامة، ورد عليه في الصحف بعض النقدة وعقب على كلامهم، ثم كتب مقالًا طويلًا في إحدى المجلات الكُبرى عنوانه «حول تعليم الشعب»، وأَثار مقالة عاصفة من التأَييد والمعارضة.

وأَراد أَن ينشئ في ياسنايا مدرسة أَعلى مستوى من مدرسته ليدرس فيها الشبان من القرى المجاورة ما يلزم لهم من علم دون أَن يضطروا إلى الانقطاع عن أَعمالهم.. وتحمس لفكرته هذه أَحد أَصدقائه في مجلس المقاطعة، وكان يشير تولستوي إلى هذه المدرسة بقوله «جامعة منتعلي الخشب»؛ وذلك لأَن الفلاحين كانوا ينتعلون في الجملة نعالًا خشبية، ومناه صاحبه بمبلغ متوفر لدى المجلس سوف يعمل على أن يرصده للتعليم، وعمل تولستوي حتى أُختير عضوًا في ذلك المجلس، وعضوًا في لجنة التعليم، ولكن كم ساءه ونفره من هذه المجالس جميعًا أَن رأَي الأَعضاء يتبرعون بذلك المبلغ المرموق مُساهمة من المجالس فيما يجمع من الشعب لإقامة تمثال لكاترين الثانية!

وكانت تتململ زوجته من اهتمامه بمدرسته و«قومه»؛ لأَنه ذلك يشغل عنها وعن كتابة القصص، ذلك العمل الذي تراه موهبته الحقيقية والتي تحب أَن تُشارك فيه؛ لأَن من دواعي فخرها أَن تكون زوجة مُؤلف عظيم، وأَن يكون لها ضلع في إنجاز عمله.

ولكن زوجها لا يعبأ بما تقول، ولا يبرح يزور المدارس في القرى المجاورة ليرى مبلغ تطبيقها آراءه ومبلغ إفادتها من كتابه، كتب إلى ابنة عمه يقول «لقد بدأت أحب آلاف الأَطفال الذين أعني نفسي بهم كما فعلت مُنذ أَربع عشرة سنة، وكلما دخلت مدرسة ورأَيت جماعة من التلاميذ في قذارتهم ونحافتهم وتهدمهم، ونظرت إلى

أَعينهم الصافية وإِلى ما يبدو أَحيانًا من سمات ملائكية في معارف وجوههم، أَخذني الاضطراب والرعب كما لو كنت أطلع على قوم يغرقون».

على أنه لم ينصرف كل الانصراف عن قصته، فقد كان يكتب صفحات منها بين الحين والحين، وقد انشغلت عنه زوجته في تلك السنة إذ وضعت في أَبريل غلامًا سماه أَبوه نيقولا.

وماتت العمة تاتيانا في يونيو سنة ١٨٧٤، وحزن تولستوي على فقدها حُزنًا شديدًا، فقد كان ينزلها من نفسه منزلة عظيمة مُنذ صغره، ولقد ظلت تحبه حُبًا شديدًا طول حياتها، وكانت في سكرة الموت لا تتذكر إِلَّا اسمه فتختلج به شفتاها ويضيء وجهها.

ومات في فبراير سنة ١٨٧٥ طفله الصغير نيقولا؛ وكأَنما تتوالى فجائع الموت حين كان يطيل التأمل في الحياة والموت لتزيده حيرة وخوفًا.

وأَراد أَن يبتعد عن ياسنايا فرحل وأُسرته إِلى سمارا في صيف تلك السنة، وهُناك أَقبل على حرث أَرضه وزرعها، وعاد يعمل بنفسه مع الزراع كأَنه أَحدهم وبجانبه مُحَمَّد شاه الذي وكل إِليه تولستوي أَمر ضياعه.

ومما ارتاحت له نفسه ما كنا يلمسه من التسامح والمودة بين الأورثوذكس من الفلاحين وجيرانهم من المسلمين، ومثله لن يسهو عن هذه المظاهر، كذلك كان يرى أَن من يعيشون هُناك من فلاحي الروس يشعرون بقسط كبري من العزة والكرامة، فهل كان مرد ذلك إِلى بُعدهم عن الرق وعن السلطات وما بثه ذلك في حياتهم من حُرية؟

وظل أَهل سمارا يذكرون ما كان من غوثه لهم أيام محنتهم، ولقد عظمت مُنذ ذلك الحين مكانته في نفوسهم، وإِنهم ليذكرونه بشيء آخر في عامهم هذا، وذلك أَنه بمعونة صاحبه مُحَمَّد شاه قد أعد حلبة للسبق أجرى فيها عددًا من أَحسن الجياد، وازدحم الناس بدعوة منه ليشهدوها، ومُنح الفائزون الجوائز من ماله، وكان هذا يوم

سرور عظيم لسكان تلك الجهة.

وأَراد أَن يتفرغ لقصته في سنة ١٨٧٦، ولكن مرض أَبنائه ومرض زوجته عقب عودتهم من القوقاز كان يكرب نفسه ويزعج خاطره، وليت الأَمر اقتصر على ذلك، فإِنه ليستغرق في تأَمله وإِن التبرم بالحياة والتشاؤم من كل شيء ليلح عليه ويحيط به من جميع أَقطاره، وإِنه ليبيت في كثير من الأَحيان على حافة الجنون، وإِن كتبه إِلى صديقه فت لتفيض بما كان يلقاه من عذاب روحي شديد.

على أَنه يسمع عن إِقبال الناس على قراءة ما ينشر من قصته تباعًا في إِحدى المجلات التي اختارها لها، فيحفزه ذلك إِلى الكتابة، ولقد بلغ من إِقبال الناس على قصته أَن كثيرًا من السيدات من أَكبر الأُسر في موسكو كن يرسلن خدمهن إِلى مقر الصحيفة ولم يستطعن الصبر حتى يصدر العدد ليسأَلوا ماذا يكون من أَمر كيت وكيت من الأَشخاص والحوادث.

ويقبل على قصته، وتغتبط زوجته بما ترى من حماسته وانشراح صدره، ونغالب المرض والضعف لتعينه، ولكنها تنظر فإِذا به ينصرف عنها أَيامًا كانت تراه فيها مُكتب النفس، في وجهه ما يشبه اليأَس، وإِنه ليطيل الإِطراق أَحيانًا ويتجهم ويقلب كفيه حتى ما تجرؤ أَن تسأَله ما به؟

لما أَعيش؟ وما الغرض من حياتي؟ وإِلى أَين أَذهب؟ لا تزال هذه الأَسئلة تلح عليه، وما يزيده تأَمله إِلَّا حيرة ولا يأَسه إِلَّا إِغراء بالعودة إِلى التأَمل.

وما باله يحن إِلى الموسيقى في هذه السنة ويقبل عليها كما كان يفعل في صدر شبابه؟ ما بالها عادت تُؤثر في نفسه وحسه كما كانت تفعل وهو غلام؟ أَهو يلوذ بها من همه، أَم أَنه يئس من العقل فهو يريد أَن يركن إِلى وجدانه وقلبه؟

ها هو ذا يتعرف في آخر السنة إِلى شايكوفسكي أَحد مشاهير الموسيقى، ويفتخر الموسيقي بمعرفة تولستوي وهو من أَشد المعجبين بقصصه، وها هو ذا شايكوفسكي يسمعه لحنًا فينظر فإِذا به تدمع عيناه!

وإنه ليذرف الدمع في موطن آخر، وذلك على أثر كتاب جاءه من صديقه الشاعر فت، وفيه يذكر الشاعر أَنه وقع على حجر وضع على قبر في أَحد المدافن فقرأَ على أَحد جانبيه «دفن هنا جسد القروية الفتاة ماري»، وقرأَ على الجانب الآخر «هذه يا حبيبتي آخر حلية أستطيع أن أُقدمها إِليك».

ويرد تولستوي على صاحبه فيقول «هذه يا حبيبتي آخر حلية أَستطيع أَن أُقدمها إِليك.. ما أَبدع هذا! لقد جهرت بالعبارة مرتين وكان البكاء يقطع صوتي كل مرة».

أهدًى يتلمس في الشعر والموسيقى؟ أذلك إِشراق روحي يغمر نفسه؟ ولكنه لا يلبث أن يدع الموسيقى والشعر إِلى عالم من أَشهر عُلماء الكيمياء في موسكو، لعله يجد عنده من العلم ما يهديه، ويرتد تولستوي عنه ساخرًا منه، فقد وجده يشتغل بما يعده من الخرافة، إِذ أَنه يستحضر الأَرواح ويحاول أن يحرك المناضد وما إِلى ذلك مما يحتقره المفكر الحائر.

ويتحدث إِلى غير هذا ممن يُؤمنون بِأَن داروين جاء من العلم بما يحل لغز الحياة والموت، ولكنه ينصرف كذلك عنهم، وفي نفسه السخط عليهم والاستهزاء بهم.

ويعود إِلى قصته فلا بُد له من إِكمالها حتى يتفرغ لهذا الذي يشغل باله والذي يكاد يذهب بعقله، ويجدُّ في الكتابة مُنذ أَوائل سنة ١٨٧٧ فلا يأَتي أبريل إِلَّا وقد نفض يديه من هذه القصة وهو يومئذ في التاسعة والأَربعين من عمره.

***

وشتان بينه اليوم وبينه في صدر شبابه، وشتان بين ما تنطوي عليه نفسه ا ليوم وبين ما كان يهجس في نفسه أَمس من أَحلام الشباب وأوهامه.

لم يبقَ شيء من لاعب الميسر الذي يتلف ماله ولا من الماجن المتأنق الذي كان لا يحفل شيئًا ولا يأَبه لشيء، وحل محل هذين رجل إِن تكن الارستوقراطية من طبعه،

إِلَّا أنه يعيش عيشة فلاح روسي في ملبسه وأُسلوب حياته، وعيشة فيلسوف في تأمله وفي عنايته بالقيم الأَخلاقية فيما يكتب، وعيشة شاعر في عزوفه عن المدينة وركونه إلى القرية، وعيشة تقي صالح في بحثه عن الله وفي حبه لله.

وأَين هذا الكهل الذي تدور بوجهه لحية كثيفة، والذي يخطر في ملابسه القروية الفضفاضة المتواضعة من ذلك الشاب الذي كان حليق الذقن، أَنيق الثوب، يختار من الأَلوان أَسطعها ومن الحلل أَبدعها؟

ولكن شيئًا من ماضيه لا يزال حيًا فيه، ذلك هو إلحاح جسده عليه، فما زال بدنه القوي عارم الشهوة على الرغم من أَنه اليوم زوج كهل، ورب أُسرة كبيرة العدد، وعلى الرغم من بذلة طاقة عظيمة في العمل العقلي المرهق. على أَنه اليوم يكبح جماح شهوته، فإِذا بعد عن بيته وأَلحت عليه الرغبة دعا إليه من رجاله من يطلب إليه أَلَّا يُفارقه حتى يُدافع نزوته ويقهر رغبته.

ولقد ظلت لبدنه حيويته وقوته، تلك الحيوية التي كانت من أَبرز خصائصه، والتي سوف تظل متوثبة فيه على الرغم مما كان ينتابه أَحيانًا من المرض، حتى جاوز الثمانين فلم يطفئ جذوتها إِلَّا الموت، وإِلى هذه الحيوية القادرة ترد مثابرته نحو ستين عامًا على الدرس والتفكير والكتابة، لم تقعده الشيخوخة أَو تلحق بذهنه الكلال، وحسبك أَنه بدأَ يكتب قصته العظيمة «البعث» وهي ثالثة قصصه الكبيرة وهو في السابعة والستين، وهي التي قال عنها النقدة أَنها وحدها إذا نسبت إلى كاتب عد بها من أَفذاذ هذا الفن.

وإِن من يراه اليوم في قريته، ولم يكن يعرف أَنه هو، لم يدر بخلده إِلَّا أَنه تلقاه فلاح عادي من الفلاحين، فما كان في هيئته شيء ينم عن عبقرية، أَو حتى عن ارتفاع عن مستوى من حوله من الناس.

كانت ملامح وجهه ملامح روسية بكل ما في تلك الملامح من خصائص، فهو بين الزراع واحد منهم، وهو في صفوف الجيش، لولا شارته، كأَحد الجُند في هيئته

وسحنته، وليس في رأسه وهو مثوى عبقرية قادرة خالقة ما يشعر بشيء يستدل به على شخصيته، وإذا كان في ملامح الرجل وهيئته ما يتصل بسبب أو أكثر من سبب بعقليته كما يزعم الزاعمون، فما أعظم ما يقوم من دليل في تولستوي على بطلان ذلك.

ولقد كان يقول تولستوي كلما جاء ذكر هيئته «إن وجهي وجه فلاح عادي»، وكثيرًا ما كانت هيئته في صغره وفي صدر شبابه أيام التأنق والتظرف مبعث ألم لنفسه وكآبة لوجدانه.

ولكن السر في عينيه، فهاتان العينان اللتان أدهشتا ترجنيف ببريقهما ونظرتهما حين رآه أول مرة هما موضع السحر والرهبة في شخصيته، فلم يره إنسان قط ونسي نظرته، أو بالأحرى ومضته. بهذا تحدث كل من رآه وأكثرهم حديثًا عنه في هذا مكسيم جوركي، هيهات أن ينسى زائره كيف كانت تتشكل عيناه حسبما يكون في ذهنه، فتلمعان بما يشبه النار عند الغضب، وتسخران عند التهكم، وكأنهما تذوبان إذا تحركت في قلبه عاطفة، ويكون فيهما مثل صفاء الربيع إذا ارتاح إلى فكرة أو إذا كتب شيئًا أعجبه، وتضيئان باليقين والثقة إذا نظرتا إلى مُتحدث تستشفان ميوله وتتعرفان شخصيته، وكأنهما تخترقان حجب النفس وتقرآن ما يجول فيها، فما أخطأتا قط في النفاذ إلى ما تريدان، هذا إلى يقظة فيهما واستيعاب عجيب لكل ما تقعان عليه لا يفوتهما شيء مهما دق أو تشتت أو احتجب.

هذا هو تولستوي إذ يقرب من الخمسين وإذ يدنو من أزمته النفسية الكُبرى وإذ يلقي بالفن وراء ظهره بعد أن كتب «أنا كارينينا».

# أنا كارينينا

ما كاد ينفض تولستوي يديه من «الحرب والسلام» حتى كان شغله الشاغل البحث عن موضوع جديد، وذلك على الرغم مما كان يحسه من لغوب.

واتجه ذهنه كما أَسلفنا إِلى عهد بطرس الأَكبر، ولبث نحو عاملين يقرأَ ويثبت ملاحظاته، ويستقصي ويتخيل، وبين يديه أَكداسن من الأَوراق والصور والكُتب.

ولكنه يحس أَن العهد على احتشاده بما يطلب الفنان لا يعجبه موضوعًا لما يريد من قصة جديدة، ثم يصعب عليه أَن يُضحي بما بذل من جُهد عنيف في الإِعداد والدراسة فيقنع نفسه بصلاحية عهد بطرس، ويهم بالكتابة فلا يلبث أَن يتبين في قرارة نفسه أَنه لا يستشعر تلك النشوة ولا ذلك التحمس اللذين لا بُد منهما لمن يريد أَن ينهض بعمل عظيم.

ويوقن آخر الأَمر بعد أَن تم له كل شيء، وبعد أَن بذل ما بذل من جُهد أَنه لن يحب ذلك الموضوع، ولذلك فهو لا يستطيع البدء أَو في الواقع لا يحسنه كلما هم بالكتابة، أَو كلما كتب فاتحة لقصته.

لم يكن يُؤمن تولستوي بعظمة بطرس، وكان يرى أَن الباعث على ما نسب إِليه من إِصلاح لم يكن سوى أَطماعه الشخصية، وهو بما أَدخل من مظاهر الحضارة الأُوروبية في روسيا قد باعد بينها وبين تقاليدها وطباعها الموروثة فكان عمله طلاء لا خير فيه، هذا إِلى أَنه كان مُتغطرسًا شديد القسوة، لم يتورع عن قتل ابنه، فضلًا عن عشرات غيره من الناس.

وماذا كتب، وهو لا يستطيع أَن يدع الكتابة؟ ذلك ما حيره وسهده، ولكن حيرته لم يقدر لها أَن تطول، فقد وثب ذهنه إِلى حادث ويقع على مقربة من ياسنايا مُنذ عام؛ أَي سنة ١٨٧٢، ولم يتجه إِليه في حينه لأَنه كان مشغولًا بعهد بطرس الأَكبر.

وخلاصة ذلك الحادث أَن أَحد معارفه الأَقربين قد فترت صلته بعشيقته، والتهبت عشقيته غيرة من تودده لمربية أولاده الفرنسية، ولما أطلعته على غيرتها عنفها ولم يحفل بكاءها، فانطوت نفسها على أَمر.. وغابت عنه ثلاثة أَيام لم يعلم فيها أَين ذهبت، ثم كتبت رقعة قالت له فيها «أَنت قاتلي، وإِذا كان القتلة على مثالك فهنيئًا لك.. تستطيع أَن ترى جثتي إِذا شئت فوق قضيب سكة الحديد عند ياسنكي»، وألقت الفتاة بنفسها تحت عجلات القطار فحطمها تحطيمًا، وشهد تولستوي الجثة مشوهة في صورة نكراء عند التحقيق.

وثب ذهنه إِلى ذلك الحادث، وأَخذ يُفكر في مدى صلاحيته موضوعًا لقصته، وكان مُنذ عامين قد فكر في قصة يكون موضوعها «امرأَة متزوجة فقدت توازنها»، وضم هذا إِلى ذاك، وارتاحت نفسه إِلى قصة لا تكون من التاريخ وإِنما تكون من حياة العصر القائم، تصور حال أُسَرِهِ وتدور فيها المأساة حول امرأة.

وأَحس بذلك السرور الذي يصحب الراحة من عناء الحيرة، واتفق أَن دخل ذات ليلة إِحدى حجرات بيته، وكان ابنه سيرجي يقرأ كتابًا فيه بعض قصص بوشكين، فتناوله وفتحه حيثما اتفق فوقع بصره على فاتحة قصة جاءت كلما يأتي «أَخذ الضيوف يفدون على المنزل الريفي»، فأُعجب بهذه الفاتحة وأشرقت أسارير وجهه، وهو الذي كان يقول في صدر شبابه إِن فن بوشكين قد أَصبح قديمًا ليس هذا وقته، وقال لزوجته «ما أَجمل هذا وما أَبسطه! هكذا ينبغي أَن يكون افتتاح القصة».. فإِن القارئ يجد نفسه تلقاء الحادث مُباشرة، ولقد كان أَي كاتب غير بوشكين يبدأ بوصف الضيوف أَو الحجرات، ولكن بوشكين يسير توًا إِلى هدفه.. «إِن بوشكين أَبي وهو أُستاذي».

وأَومضت في ذهنه لمحة، فكرة القصة في جُملتها، وكتب فاتحتها مُبتدأً بقوله «تتشابه الأُسر السعيدة في سعادتها، وتشقى كل أُسرة شقية على صورة تختص بها، لقد قلب كل شيء في بيت أو بلنسكي رأَسًا على عقب».

إذا عدت «الحرب والسلام» إلياذة تولستوي، فإن «أَنا كارينينا» أُوديسته. فقد كتب هذه القصة وقد بلغ غاية نضجه الفكري، وذاق من حلو الحياة ومرها ما أمده بكنز من التجارب لا ينفد، وهدأَت حماسة شبابه، وصارت نظرته إلى الأُمور نظرة الفيلسوف المتأمل مُضافة إلى نظرة الفنان المبتدع، هذا إلى ما استقر في ذهنه من فلسفة شو بنهور وكانْت وغيرهما، ومن خطرات تأمله هو، وما كاد يزهق روحه من حيرة، وما عاد منه يائسًا كل مرة من التفكر في الموت والحياة.

أَما عن فنه فما برحت أَصالته هي الغالبة، وإن كان أثر هوميروس في بساطته وصدقه غير خافٍ هُنا كما لم يخف في القصة السالفة، وقد قرأ تولستوي الأغريقية، وما ذلك الأَثر في الواقع إلَّا لأَن فن هوميروس يتصل بفن تولستوي بأقوى سبب، فأبرز ما فيهما الصدق والبُعد عن الصخب والتكلف.

***

ليست «أَنا كارينينا» في الواقع قصة واحدة وإنما هي ثلاث قصص، أدخلها تولستوي بعضها في بعض على صورة لا يستطيعها إلَّا من كان له مثل عبقريته الفنية، والقصص الثلاث صور ثلاث للزواج مُختلفات.

أَما الأُولى وهي القصة الرئيسية التي تتمثل فيها مأساة من أعنف المآسي، فقصة زوجة تنصرف عن زوجها فتحب شخًا غيره، وينتهي الأَمر بأَن تلقي بنفسها تحت عجلات قطار.

وأَما الثانية ففيها الرجل هو الذي ينصرف عن زوجته إلى غيرها من النساء على الرغم من إخلاص زوجته له ولبيتها، وقيامها خير قيام على خدمته والعناية بأبنائهما؛ وذلك لأَنه يحس أَنها فقدت كثيرًا من جمالها إذ أكثرت من الأطفال وشغلت بالعناية بهم.

وأَما الثالثة ففيها الحب مُتبادل بين الزوجين، وقد زادهما ارتباطًا ومحبة ما أنجبا من أبناء.

وتمضي في قراءة الكتاب، فإذا كل قصة تتداخل في أُختيها على نحو عجيب حقًا، فقد أَراد تولستوي أَن يزيد القصة الأُولى وضوحًا ويزيد أثرها في النفس عمقًا بأَن يدع القارئ يُقارن دون أَن يشعر بينها وبين أُختيها، بينما لا يفتأ يحس أَن القصة الأُولى هي وحدها قوام الكتاب لفرط تأثره بها وإِعجابه بشخصية أنا واطراد عطفه عليها وتشوقه أَبدًا لمعرفة ماذا يكون من أَمرها.

تزوجت أنا مُنذ تسع سنوات أحد كبار الموظفين وهو كهل يُسمى أليكسي كارينين عظيم الثراء والنفوذ، وأنجبت له ولدًا سماه سيرجي، ولم تجد أنا وهي الغادة الساحرة، في الزواج أرب مشاعرها من المتعة وحاجة قلبها من الحب؛ لأَن زوجها كان دائمًا في شغل عنها بأطماع منصبه وما يحيط به من مُنافسة ودسائس، وطالما أَحست الفراغ والرغبة، وطالما ضاقت بها الدنيا لولا ولدها الذي ترعاه وتتعلق به تعلقًا شديدًا.

وأَول ما نعلمه في القصة عن أنا؛ أنها قادمة إلى موسكو تلبية لدعوة من أخيها ستيفا أو بلنسكي لتصلح بينه وبين زوجته دُلي، فإن زوجته ثائرة تكاد تموت غيظًا مُذ علمت أَنه يحب المربية الفرنسية، وهذا هو موضوع القصة الثانية.

ويشعرنا المؤلف شيئًا فشيئًا بسحر أنا وجمال نفسها، وروعة شخصيتها، فهو يصفها لنا قادمة في القطار من بطرسبرج، حيث يجمعها السفر بسيدة هي أم لضابط شاب يُدعى فرونسكي، وتثني الأُم على ابنها إذ تتحدث عنه ما وسعها الثناء، وتنصت أنا وقد وقع في نفسها اليتيمة ما سمعت عن ذلك الضابط من ثناء.

ونعلم من صفات أنا حُسن أدبها وعذوبة ابتسامتها، ورقة حاشيتها، ودماثتها وظرفها، ثم يعجبنا من جمالها عيناها الشهباوان الطويلتا الأهداب، وشفتاها الرفافتان كالزهر، وقوامها الرشيق الطويل وبدنها الذي يجمع بين القوة والنعومة، وتلك الحياة التي تشيع في هيكلها كله، وتلك الحيوية التي تحبسها مُحتشمة والتي تريد أن تجرف الحواجز، ثم هذه الموسيقى وهذا الإشراق، وهذا التفتح، وهذا التوافق العجيب بين

أَعضائها، ثم هذا السحر الذي يتألف من ذلك كله.

ومضت إلى بيت أخيها، وقد وقعت عيناها في المحطة على فرونسكي فوقع من نفسها موقعًا جميلًا، ورأت منه أَريحية كريمة في حادث أودى بحياة أحد العُمال إذ دهمه القطار فقتله.

وأَصلحت في كثير من اللباقة والحذر والكياسة بين أخيها وزوجته على شدة ما كان في قلب الزوجة من ثورة وحزن، وهذا الصُلح مما يزيد القارئ حُبًا لأنا وشخصيتها الساحرة اللطيفة.

وبعد أَيام نرى أنا في صالة رقص، رشيقة يستوقف الأَلحاظ وجهها الجميل وشعرها الفاحم، الذي تبدو حلقات صغيرة منه فوق جبينها ومن وراء عنقها، وكتفاها اللتان تبدوان كأنهما صنعة مثّال، وذراعاها الرشيقتان البضتان، وهي ترتدي ثوبًا من القطيفة السوداء، ويدور بعنقها عقد من اللؤلؤ الأبيض، وعلى صدرها باقة صغيرة من الزهر، وفي شعرها باقة أُخرى.

وترى فرونسكي في صالة الرقص ويراها، وتحس أَنه سحرها ويحس أَنها سحرته، وكانت قد علمت أن كتي مشغوفة به وهي أُخت دلي، وقد صحبتها إلى المرقص لتعينها، ولكنها سرعان ما نسيتها وسرعان ما نسيها فرونسكي.

ونظرت كتي «وبدا عليها أَنها ترى في أنا أَمارات ذلك الانفعال الشديد الذي عرفت مثله هي نفسها بالتجربة وهو انفعال النجاح، وظهرت أنا كأنما أسكرها هذا الظفر، وفطنت كتي إلى أي شيء تعزو تلك النظرة الوضيئة المنتشية، وتلك الابتسامة الهانئة الظافرة، وتينك الشفتين تفتران نف افترارهما وتلك الحركات يشيع فيها الانسجام والرشاقة».

ولما سافرت أنا إلى بطرسبرج كان فرونسكي مُسافرًا معها في نفس الوقت، والتقيا في القطار، ثم كثر بينهما اللقاء بعد ذلك في المجتمعات.

وتفكر أنا في زوجها فيتمثل لها كل ما تكرهه منه، يتمثل لها برود طبعه، وكهولته

الكابية وخلو قلبه من العاطفة، بيد أَنها لا تنكر أَن له ضميرًا، وأَن شيئًا من الخير يتصل بنفسه، ولكنه ليس برجل وجدان فهو يقيس كل شيء بما حفظ وعلم، ويُفكر تفكير الموظف الذي يتمسك بالقواعد، ويهتم بالشكل دون الجوهر.

وكان حريًا أَن يفطن زوجها إلى ما طرأَ عليها من تغير، ولكنه لم يفطن إلى شيء، ولم ينتبه منها إلى شيء، ولم يعد عدم انتباهه يُؤلمها، بل إنها اليوم لا تكترث له، فإن بالها كله إلى فرونسكي.

ويفطن زوجها إلى اهتمامها بفرونسكي أَكثر من مرة، ويُقابلها بالازدراء، ويزداد بروده، ولكن هذا البرود لا يُؤلمها، ثم يكون بين أنا وفرونسكي ما يكون بين الزوجة الخائنة وعشيقها، وهي في حلمها لا تُبالي شيئًا ولا تتأثم من شيء، فإذا ثابت إلى نفسها حينًا بعد حين حاولت أن تخدع نفسها بأَنها على صواب، فما كانت مُعاملة زوجها إياها إلَّا مفضية إلى هذه الحال، وهي إنما تنتقم لنفسها الآن وإن لم تبيت هذا الانتقام.

ثم إنها تستنكف أَن تعيش وزوجها بعد ذلك تحت سقف واحد، ولا تطيق أَن تأكل من ماله، فتُصارحه ف يثورة غضب أَنها ليست زوجته بعد اليوم، وأَنها تحب فرونسكي وأَنها له، وتعظم حفيظة زوجها أَول الأَمر، ويبدو غليظًا فظًا كأَنما يشمت من زلتها ويُعاقبها بعدم مُبالاته. ثم يغلب عليه رثاؤه لحالها فإن له ضميرًا كما سبق القول، ويتفكر في الطلاق، ولكنه يعود فيخشى الفضيحة، ويطول به التفكير وتتعاقب في ذهنه الاحتمالات والافتراضات، ثم ينتهي به الحال إلى أَن يهجر زوجته ويدعها تلقى عشيقها أَينما شاءت وكيفما شاءت وكأَنه لا يعلم من أمرهما شيئًا.

ويعود إلى بيته مرة فيجد بين يديها طفلًا ولدته لفرونسكي، وتبدو كأنما تُعالج سكرات الموت من أَثر الحمى فلا يكون منه إلَّا الرحمة والمغفرة! ويقف إلى جانب سريرها يسمعها كلمات صفحه وعطفه، وكأَنما ينقلب بما يبدي من نبل شخصًا آخر، ويحظى من رضاء قلبها في هذه اللحظة بقدر ما يفقد عشيقها.

ويدخل فرونسكي، فيقف إلى جانب كارينين وقد دفن وجهه في كفيه، وتصيح به أنا في صوت تقطعه الحمى «أكشف عن وجهك وانظر إلى هذا الرجل.. إنه من القديسين، ثم تكرر قولها في غضب اكشف عن وجهك، اكشف عنه.. أليكسي، اكشف لي عن وجهه فإني أُريد أَن أراه»، ويجذب أليكسي يدي خصمه فيظهر وجهه وقد غير الخجل والألم معارفه.

وتصيح أنا بزوجها «أَعطه يدك.. اعف عنه»، ويمد أليكسي يده وإنه ليجهش ولا يملك دمعه. وتقول أنا «أحمد الله.. أحمد الله، كل شيء على أهبة الآن»، ثم تنظر إلى ورق الحائط وتقول في هذيان «ما أَقبح هاتيك الأزهار، ليس بينها وبين البنفسج أقل شبه، يا إلهي، يا إلهي.. متى ينتهي هذا العذاب؟ إليَّ بالمورفين أيها الطبيب.. أُريد المورفين.. رباه.. رباه!».

ويخرج فرونسكي فيطلق على صدره رصاصة تلقيه على ظهره، والدم يتدفق منه.

ولكن القصة لا تنتهي عند هذا، فقد شفيت أنا وشفى فرونسكي، ثم توهجت جمرات حبهما بعد خمود، وعادت أنا تنفر من ذلك الذي رأَته قديسًا وهي على حافة الموت، وعاد القديسِ إلى بروده وإلى جموده.

ويُسافر العشيقان إلى إيطاليا فيقيمان زمنًا ثم يعودان إلى روسيا، وتنظر أنا في نفسها وتبدأ في التأثم، وتتغشاها الخواطر السود، وأَين هي من السعادة إذ تحيا مثل هذه الحياة؟ كلا.. لقد بذلت نفسها رخيصة، وإنها لتشمئز من نفسها اليوم، وإنها لمعذبة في نهارها مُؤرقة في ليلها، وإنها لتأكل الأفيون كي تنام!

وينال ذلك كله من بدنها وأَعصابها فتظن بصاحبها الظنون، فقد قضى منها وطره فيما تعتقد، وهي الآن بين يديه سلعة رخيصة، وتُعذبه بغيرتها واضطرابها وبُكائها، ويرتاع فرونسكي، ولكنه يصبر صبرًا جميلًا، وما يزداد لها إلَّا وفاء ومحبة، وإنها لفاتنة برغم ذلك كله، حلوة تشتهي، وإن لها لمكانتها في نفسه على الرغم مما

تظنه بنفسها من ظنون.

ويزداد سأَم أنا، ولا تجد لحياتها طعمًا، ويعذبها أشد العذاب ما يقول الناس عنها وبخاصة النسوة من صاحباتها اللائي يتنكرن لها، وكاد يقتلها شعورها أنها طريدة، لا يُمكن أَن يكون مكانها في المجتمع إلَّا مكان الساقطات، ويأتي القدر بحادث تافه فإِذا فيه نهاية كل شيء، وذلك أن فرونسكي قد سافر ذات يوم بعد حوار عنيف بينه وبينها إِلى قريته لتزور أُمه، وتبرق إِليه أنا ليعود إِليها من فوره، ولكنه يرد عليها بقوله إِنه لا يستطيع العودة قبل الساعة العاشرة بالعشي، فتسافر إِليه، وتسمع من أنبائه في المحطة وقلبها مُمتلئ بالظنون، ما يوهمها أَنه لن يعود إِليها أَبدًا، ويُطالعها ما ينتظرها من شقاء وبُؤس، وتلهب الغيرة قلبها، ويجن جنونها، وتنظر فإِذا بقطار بضاعة يدخل المحطة فتقفز المسكينة من فوق الطوار، ويمر من فوقها القطار فإِذا هي كومة من اللحم الممزق، لم يبقَ منها دون أَن يتحطم إِلَّا رأَسها الجميل.

هذه هي الحكاية ولكنها ليست القصة؛ فالقصة أَعظم وأَروع من أَن يحيط بها مثل هذا الإِيجاز.

***

في هذه القصة كما في سالفتها عدد كبير من الشخصيات، خلقها ذلك الفنان العبقري كما فعل في «الحرب والسلام» على مثال من عرف من الناس.

ومن أَهم تلك الشخصيات من الرجال ستيفا وهو أَول من يظهر في القصة، ثم ليفن وفرونسكي وأليكسي كارينين.. ومن النساء دلي وكتي وأنا.

ويظهر ستيفا أَو البرنس أَو بلنسكي في القصة رجلًا، بادي الوجاهة، هادئ الطبع، كيسا، يُجاري الناس ويعمل على كسب الأَصدقاء، ماهرًا في اجتذاب القلوب، سريعًا إِلى معرفة ذوي النفوذ، وهو لا يبخل بمعروفه على الناس، يحب الاستمتاع بالحياة ويبذل أَقصى جُهده ليتجنب متاعبها، ثم إِنه يحب النساء فلا يكاد يدير ظهره لواحدة قضى منها وطره، حتى يسعى وراء غيرها، على أَنه عطوف برغم ذلك على

زوجته، ولشد ما آلمه وأَحزنه حزنها إِذ علمت بما كان بينه وبين المربية الفرنسية.. ولكنه وهو رجل الدنيا لم يعدم الوسيلة لمصالحتها وقد تم له ما أَراد على يد أُخته أنا، ولم يتب بعد الصُلح وإِنما ظل يخفي عن زوجته علاقاته بالنساء، وهذا لون من حياة النُبلاء والمتنبلين في موسكو وبطرسبرج في العصر الذي كتب فيه القصة.

أَما ليفن فهو تولستوي نفسه، ولعله أَقرب من خلق من الشخصيات في كتبه جميعًا شبهًا به، وفيه حياة تولستوي وحيرته وآلامه مُنذ بدء يخطب صوفيا بيرز إِلى الوقت الذي أَتم فيه أنا كارينينا.

لم يكن ليفن رجل الدنيا، وإِنما كان من العلية بمولده ونسبه وماله، كان رجلًا مُفكرًا، كثير القراءة، ذا ضمير مُستيقظ، يعيش في القرية مُهتمًا بالزراعة والتعليم وغيرها من الشؤون المحلية، وهو يحب الخير للناس ويتمنى أَن يراهم يسيرون قدمًا نحو الصلاح والنهوض.

وأضحب كتي، ولكنها كانت تميل إِلى فرونسكي، وكان ليفن خجولًا شديد الإِحساس، يزعجه أَقل شيء يشتم فيه الإِهانة لشخصه، ويحس نفسه غريبًا في صالات موسكو وفي ضوضائها، وكان يرى من كتي ما يشبه الإِعراض عنه فتراجع كاسف البال مُحنقًا.

ويميل فرونسكي إِلى أنا، وتحزن كتي ويخترم الهم جسدها، وتسافر إِلى خارج روسيا فتسترد عافيتها، ثم تتبين أَنها تحب ليفن فتجيبه إِذ يطلب يدها وتصير له زوجة.

ولا يفتأ ليفن يعني نفسه بالتأمل في الحياة والموت، حتى يحيط به اليأَس من كل مكان، ويريه موت أَخيه أَن الحياة عبث وغرور ما دام كل شيء مصيره إِلى القبر، ويقرأَ ليفن الكُتب ويدرس العلوم الطبيعية ولا يزال في حيرته ويأَسه حتى يتحدث إِلى فلاح شيخ من الموقنين على مثال كارتايف في «الحرب والسلام» فإِذا بفكرة تضيء في ذهنه وذلك أَن العقل ليس سبيله إِلى ما يطلب وإِنما سبيل ذلك القلب، وإِذا به يرى للحياة معنى هو أَن يعيش المرء من أَجل غرض أَسمى ذلك القلب، وإِذا به يرى

للحياة معنى هو أن يعيش المرء من أَجل غرض أَسمى من مطالب الجسد الفاني، أَلا وهو ما تتطلبه الروح الخالدة.

وأَما فرونسكي فهو ضابط شاب من النُبلاء تخطى الثلاثين، جميل الطلعة، عظيم الثراء، ذكي، واسع الاطلاع، أَمامه مُستقبل فخم، وهو قوي الإِرادة، لا يعبأ بما يقول الناس عنه، هادئ الطبع، ولكن فيه شيئًا من الكبرياء، وقد رأَينا ما كان من وفائه لعشيقته على الرغم مما كانت تُعذبه به من غيرتها واضطرابها، وعلى الرغم من تغيرها تغيرًا كان كفيلًا بِأَن يصرفه عنها، ولقد كان حُبه سببًا في تأخره في مضمار الرقي فتخطاه غيره ممن هم دونه، وأَظلم أَمامه المستقبل المشرق.

وأَما كارينين فيُمثل في القصة الرجل الأَناني الذي لا يعنيه من الحياة إِلَّا منصبه ونفوذه، والذي يحرص على سمعته، حتى ليقبل أَي شيء في سبيل أَن تبقى هذه السمعة بعيدة عمّا يشوبها، وهو مثال الرجل العملي الذي لا يعرف الخيال، والذي يجعل مرد كل شيء إِلى فكره، وليس لعاطفته أَي سلطان عليه.. وهو الزوج الفاشل الذي تشغله الدنيا عن بيته وعن زوجته، وإِلى طبعه ومسلكه يرد ما أَصابه في شرفه، وإِن كان قد راض نفسه مخافة العار على الصبر، فلم يفعل ما كان يفعله غيره في مثل حاله.

وأَما من ذكرنا من شخصيات القصة من النساء، فكانت دلي مثال الزوجة العاملة في بيتها، القائمة على شؤون أَبنائها، ولقد أَدى ذلك إِلى كبرها قبل الأَوان، وإِنهاك بدنها، مما كان سببًا لانصراف زوجها عنها، وإِنها لتضيق أَحيانًا بحالها حتى لتشك في الفضيلة وتكاد ترى الصواب في مسلك أُولئك اللائي يمتعن أنفسهن بطيبات الحياة ويغتنمون زينتها في صالات الرقص، لا يحملن همًا ولا يعنين أَنفسهن بالبيت وواجباته، ولكنها لا تلبث أَن تثوب إِلى نفسها فترضى عن استقامتها وشرفها وتروض على الصبر نفسها وإِنها لصبور عاقلة مُخلصة أَعظم الإِخلاص.

وأَما أُختها كتي فهي قريبة الشبه بصوفيا بيرز زوجة تولستوي، ولقد أَبدع

تولستوي أيما إبداع في تصويرها وتصوير ليفن، فهو إنما يصور زوجته ويصور نفسه، وكان من أَبرز خصائصه تفطنه إلى نفسه لا يغيب منها عن ذهنه شيء.

وكانت خطبة ليفن لكتي في القصة هي بعينها خطبة تولستوي لصوفيا؛ فقد كتب ليفن أَول الحروف وقرأَت كتي، وقد تردد ليفن قبل أَن يطلب يدها وقد نسي القميص صباح يوم الزفاف كما نسي تولستوي.

على أَن أَهم نساء القصة هي أنا، وقد ذكرنا شيئًا من صفاتها في تلخيص القصة، ونضيف إلى ذلك أَنها ذات شخصية عجيبة تحمل القارئ على العطف عليها حتى بعد خطيئتها، بل لقد تؤدي به إلى احترامها، فما زال لها حتى آخر حياتها، ذلك السحر الذي يُحببها إلى النفوس، وما زالت هي أنا على الرغم من كل ما لحقها من شقاء الحياة، وحسبنا من مواقفها صدقها إذ تطلع زوجها على حبها واستنكافها أَن تفعل ما فعلت من وراء ظهره، ثم إباؤها أَن تأْكل من يده بعد علمه، ثم عرفانها لجميل صفحه عنها حين أَوشكت ذات مرة على الموت، وهكذا نجد امرأَة زلت ومع ذلك فلها في زلتها من مواقف النُبل والسمو ما تظل به قوية على الرغم من ضعفها، عزيزة على الرغم من ذلها، وما لا يسعنا معه إلَّا الرثاء لها والصفح عن زلتها كما صفح زوجها ثم التماس أَوجه المعاذير لها.. وهذا هو إعجاز الفن وروعته في يد تولستوي، وهذه هي الأُستاذية الحق.

***

كانت «أَنا كارينينا» كأُختها «الحرب والسلام» مُعرضًا لصوره كما كانت مجالًا لآرائه، وهي قصة الحياة الاجتماعية في روسيا كما تتبين فيما عرض من حياة الأُسر خاصة وفي حياة المجتمع عامة، وقد صور تولستوي مظاهر هذه الحياة الاجتماعية في صالونات الأرستوقراط وفي أَكواخ الفقراء، وعرض ذلك كله على طريقته لا يفوت عينه شيء ولا يعزب عن ذهنه شيء.

وقد أجرى آراءه على أَلسنة أَشخاصه من رجال ونساء كما فعل في «الحرب

والسلام»، وأَوضح ما كان ذلك فيما جرى على لسان ليفن، وصور طباع هؤلاء الأَشخاص ومسلكهم في الحياة وفق ما يعتنقون من مبادئ.

وفي هذه القصة فلسفة تولستوي في النفس البشرية وما تنطوي عليه من خير وشر، وفي الزواج والحياة الزوجية، وما يفضي إليه الزواج الذي لا تجاوب فيه بين قلبي الزوجين، وفي الأُسرة وأَسباب سعادتها أَو شقائها، وفي الحياة الحديثة ومبلغ ما فيها من المدنية الحق، وفي حياة الفلاحين وصلتها بحياة المترفين من السادة، وفي معنى الحياة بوجه عام والغاية منها، وهل تستحق أَن يعيشها المرء؟ إِلى غير ذلك من النظرات والآراء.

على أَن أَبرز ما يبقى في النفس بعد قراءة القصة هو ما جاء فيها عمّا آلت إِليه حياة أنا، تلك الزوجة الجميلة المهذبة التي لم تجد في زوجها ما يرضي قلبها، ثم فزعها من نفسها بعد زلتها وفرارها من المجتمع، وقد كانت قبل من فضلياته، ثم نهايتها على تلك الصورة، مما جعل هذه القصة من أَقوى المآسي فيما كتب عن المرأَة في أَدب النيا كله، إِن لم تكن أَقوى مأساة كما يذهب إِلى ذلك فريق من أَئمة النقد.

وتشيع في القصة، إِذا استثنينا حب ليفن وكتي، نغمات حزينة وجو فيه من الرهبة والخوف أَكثر مما فيه من ضوضاء الحياة وبهجتها، حتى ما كان بين فرونسكي وأَنا من لقاءات، فهي على الرغم من الحب الشديد لم تخل مما يكون في اللقاء الآثم من شعور خفي يثقل النفس، ومما يعقب الكأَس الحلوة كل مرة بعد ذهاب النشوة من مرارة التأثم والرهبة من المصير، وحتى ليفن الذي سعد بحبه قد شقي بتأَملاته وحيرته في الحياة.

وهذا الجو الذي يشبه الخريف والذي ينذر أَبدًا بالشتاء في القصة، إِنما يفسره ما أَشرنا إِليه مما كان يحيط بتولستوي أَثناء كتابتها من متاعب زوجته، وما كان يزعج خاطره ويكرب نفسه من آلام حيرته.

***

ببلغ إقبال الناس على قراءة هذه القصة الطويلة التي تزيد على ثمانمائة صفحة كبيرة، أثناء نشرها في إحدى الصحف حدًا لم يعرف له مثيل حتى في سابقتها، ولقد ذكرنا كيف كانت السيدات والأَوانس يرسلن خدمهن إلى الصحيفة ليستنبؤا ماذا يكون في الفصل القادم، وبخاصة عمّا كان بين أنا وعشيقها من صلات.

وتعد «أنا كارينينا» من أَروع قصص الحب وأَقواها في عالم القصة كله، ولقد كانت لها خارج روسيا من المكانة والشهرة ما يفوق مكانة «الحرب والسلام»، وقد ذاعت في فرنسا وأَلمانيا وإنجلترا ذيوعًا عظيمًا، ولا عجب فهي فضلًا عن أَنها إحدى آيتي تولستوي وإحدي الآيات الفنية الكُبرى في أَدب الدنيا، تمتاز باحتوائها إلى جانب أَلوانها وحوادثها المحلية على معانٍ عالمية تجيش بها كل نفس، ويهتز لها كل قلب، في أَي بقعة مُتمدنة من الأَرض، وهذه خاصة من خصائص فن تولستوي.

والقصة كلها قطعة من الجمال الفني، بيد أَنها تنطوي على مواقف وصور بلغ فيها المؤلف من الروعة والإِعجاز ما يتخاذل دونه أَساطين هذا الفن وجبابرته وما تعنو فيه جباههم لهذا العبقري الجبار.

ذلك أَنها فضلًا عمّا أَشرنا إليه فيها من فلسفة تُحرك النفوس من أَعماقها، تحتوي على مواقف خوالد حيث يسحر القارئ عن نفسه اكتمال الفن فينسى أَنه يتلو قصة، ويشعر أَنه في صميم الحياة، ومن أَمثلة ذلك ثورة دُلي وشقاؤها وحزنها واضطراب بيتها، ونشوة الحب الأُولى بين فرونسكي وأنا ثم خلوتهما مرات بعد ذلك واستنفادهما كل ما في طاقتيهما من قوة وعاطفة، وارتشافهما الكأَس حتى ثمالتها، وما كان يعقب ذلك من اشمئزاز ومخاوف، وموقف أنا من زوجها إذ تطلعه على الأَمر حيث تبلغ المأساة غايتها، وخطبة ليفن لكتي وما فيها من جمال وهي بعينها خطبة تولستوي لصوفيا كما وصفناها في موضعها، وهناءة ليفن بزواجه وحيرته في تأَملاته ويأسه حين مات أَخوه، وكيف مات ذلك الأَخ، ثم خاتمة أنا تحت عجلات قطار البضاعة، إلى غيرها من روائع المواقف مما لا يستوعبه هذا الحصر.. وفيها إلى جانب ذلك صور رائعة للصالونات الارستوقراطية في البيوت وصالات الرقص وحفلات

الفروسية للضباط، ومسارح التمثيل ومكاتب رجال الدولة، وحياة الفلاحين ومشاهد عملهم في الزراعة، ومعيشة الأرستوقراط هُناك مما يُخيل معه للمرء أنه يعيش في روسيا، وكأنه لدقة الوصف ووضوح الصور يأَلف تلك الحياة ألفته حياته في وطنه.

وخير ما توصف به «أنا كارينينا» في جُملة قول ماتيو أرنولد «إنه ينبغي أَن نأَخذ (أنا كارينينا) لا على أَنها قطعة من الفن، ولكن على أَنها قطعة من الحياة».

ومن عجب الأُمور أَن فريقًا من كبار الأُدباء والنقدة في روسيا لم يتلقوها أَول الأضمر بما هي أَهل له من حفاوة، ومن هؤلاء ستويفسكي وترجنيف.

ولا يسع المرء حيال ما ظفرت به القصة من إعجاب القراء، وما نالته من ثناء على أَلسنة هؤلاء النُقاد أنفسهم فيما بعد، إلَّا أَن يرد فتورهم أَول الأَمر إلى ما كان في نفوسهم مما يشبه أَن يكون حقدًا بعثه الخوف من هذا الذي يلقي على أَسمائهم الخسوف.

قال دستويفسكي «لقد وجدت أنا كارينينا قصة كابية، وقد زارني نكراسوف وقال إن في قصة ليو تولستوي الأخيرة تكرار لما سبق أن قرأته في كتبه الأخيرة، غير أن تلك الكُتب كانت خيرًا منها».

وحدث أن تلى في جمعية محب الأدب الروسي، ذلك الفصل الذي جاء فيه سفر أنا بالقطار، فنهض رئيس الجمعية في تحمس وقال: «لسنا نريد قصصًا مُظلمة كئيبة مهما يكن ما فيها من براعة، وإنما نريد قصصًا جميلة مُمتعة مثل قصص الكونت تولستوي».

وعلق دستويفسكي على ذلك في كتاب إلى زوجته بقوله: «لم تذكر كلمة حول قصتي، ولم يتحدثوا كثيرًا عن قصة تولستوي كذلك، بيد أَن ما قالوه عنها كان يدل على تحمس مُضحك».

أَما ترجنيف فقد قال: «إن لتولستوي مقدرة ملحوظة ولكنه تنكسب الطريق السوي في أنا كارينينا».

هذا ما قابل به دستويفسكي وترجنيف القصة أَول الأمر، ولكن دستويفسكي نفسه ذكر عنها بعد زمن غير طويل قوله «هذه القصة لم يسبق لها مثيل، ولا يُقارن بها شيء، وأَين في كتابنا من يُقارن بتولستوي؟ وفي أُوربا أين ذلك الذي كتب شيئًا يُمكن أن يقرب منها؟».

وقال عنها تشيكوف «إِن الشيء الوحيد الذي كنت أَراه عزاء لنفسي عمّا لاقيت من محن هو أَن أَكون صاحب أنا كارينينا».

# تولستوي الفنان

ما كاد يفرغ تولستوي من «أَنا كارينينا» حتى انصرف عن الفن انصرافًا ظن الناس أنه قطيعة ليس بعدها صلة، وظل تسع سنوات لا هم له إِلَّا ما كان يشغله عن نفسه قبل من لغز الحياة والموت، فلندعه الآن في حيرته، لننظر في خصائص فنه في هذه المرحلة الأُولى من حياته الفنية، التي تنتهي بقصة «أنا كارينينا».

ونحب بادئ الرأي أن نشير إِلى أَن تولستوي في هذه المرحلة الأُولى كان من القائلين بمبدأ الفن في ذاته أَو الفن للفن كما يقولون، فلما عاد ثانية إِلى الفن بعد اشتغاله بالدين، أَخذ بالرأي القائل: إِن الفن وسيلة إِلى غاية نبيلة هي السمو بالحياة على أَساس من الفضيلة.

على أَن الرأي الثاني؛ أَعني وظيفة الفن في السمو بالنفس قد أَخذ يظهر بعض الشيء في «أنا كارينينا»، ولذلك عاقب تولستوي أنا بتلك الخاتمة التي انتهت إِليها حياتها وإِن كانت قد سيقت على رغمها إِلى ما استغرقت فيه من ضلالة، فقد كان ذلك نتيجة لزواجها من شخص ليس بينها وبينه تجاوب، وعاقب فرونسكي بما آل إِليه مُستقبله من ضياع. ثم إِن ذلك المعنى الذي اهتدى إِليه ليفن بعد طول حيرته، والذي أَلهمه إِياه حديثه مع فلاح مُؤمن، مما يتصل بهذا الغرض الذي يعمل له الفن، فغاية الحياة عند ليفن أَن يكون المرء من الأَخيار وأَن يبتغي وجه الله، وأَن يعمل للروح الخالدة لا للجسد الفاني.

ولما كان في المرحلة الأُولى يأَخذ بمبدأ الفن في ذاته فقد كان أَساس فنه الصدق، ولقد بالغ تولستوي في الحرص على هذا الصدق الذي يرد إِليه كل مُميزات فنه، والذي به أَصبح في أَصحاب القصص الواقعي زعيمهم حتى اليوم غير مُدافع.

وكان أَول ما بهر الناس من تولستوي ولفتهم إِلى فنه هو ما أَحسوا من صدق

الوصف في كتابه الأَول «عهد الشباب»، ثم إنهم رأَوا ذلك منه ثانية فيما كتبه عن سباستبول، وفطنوا إلى أَنهم تلقاء كاتب من طراز جديد لكتابته وقع جميل في نفوسهم ليس مرده إلى جمال وصفه فحسب، ولكن إلى دقة هذا الوصف أَو على الأَصح إلى صدقه، فما هو إِلَّا الحياة بجميع ما فيها.

والواقع أَنه ما من عمل فني يبلغ غايته من الروعة إِلَّا إذا كان من ينظر فيه ينسى أَنه حيال مُتخيل يتخيل، ويحس أَنه يرى الحياة ماثلة أَمامه، ولقد أَوفى تولستوي من ذلك على الغاية، وما بلغ أَحد مبلغه في هذا المضمار أَو قرب منه. فإنك لا تكاد تقرأَ بضعة أسطر له حتى تشعر أَنك تطل على الحياة من نافذة، ولا تلبث أَن تأْلف شخصياته فتنسى أَنهم شخصيات قصة، ويبقى من أَثرهم في نفسك وحسك ما يبقى ممن عرفت في الحياة من أَشخاص، وتظل تذكرهم زمنًا وكأَنك تنظر إليهم في خيالك، وتسمع إلى أَحاديثهم.

وليس ذلك بالعمل الهين، بل إِنه لأَعسر وأَدق ما يستشرف له الفن؛ فالفنان المتخيل حُر يجيئك بما يخلق حسبما أَراد، ولكن الفنان الذي يلتزم الصدق مُقيد بما التزم، فما يملك أَن يتصرف في صورته بالنقص أَو الزيادة أَو بالتهويل والمبالغة؛ لأَن غايته أَن يُصور الحياة كما هي، وما فنه في الواقع إِلَّا مرآة تنعكس فيها الصور، وبقدر ما يكون من وضوح الصور المنعكسة تكون قيمة مرآته، أَو على الأَصح قيمة فنه.

ويرينا وعورة هذا المطلب ما كان يُعانيه تولستوي في كتابته من رهق شديد، فلكم ترك من لحمه قطعة في المحبرة على حد قوله، ولكم تفكر وتدبر، ولكم قضى الساعات الطويلة يقرأَ ويستخرج دقيق التفاصيل ليبني منها صورة لحفلة أَو لجانب من معركة، ولكم غير وبدل فيما كتب حتى لقد كان يرسل البرقية أَحيانًا تلو البرقية إلى الناشر ليحذف كيت أَو يضيف كيت قبل أَن يطبع.

وكان أَبرز ما تجلى صدق تولستوي في آيتيه «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا»،

فإنك لتلمس هذا الصدق فيما جل أَو هان من الصور والوقائع، بل لقد يدهشك هذا الصدق، ويروعك هذا الفن ا لذي ينسيك أنه فن، في الصورة الصغيرة، أَكثر مما يدهشك ويروعك في الكبيرة، فتعجب لهذا الذي لا يفوته شيء، والذي يعمل في يقظة عجيبة وتدبير مُحكم على أَن يريك الحياة، وتحسب ذلك جاء عفو الخاطر؛ لأَنك لا ترى في الصورة شيئًا من مُبالغة أَو تحمس أَو خيال يُذكرك بالكاتب، وإِنما تراها أَمامك كي تكون في الحياة، إِذ هي في الواقع صنعة فنان أَخفى نفسه وراء فنه، أَو في الحق أَخفى فنه كله لأَنه جاءك بما لا يُذكرك إِلَّا بالحياة.

وإِنك لتفتح أَية صفحة من قصصه فما يروعك أَول ما يروعك منه إِلَّا هذا الصدق. خذ مثالًا لذلك من «أَنا كارينينا» وصف فرونسكي في المحطة ينتظر القطار المقل لأُمه «واستطاع أَن يسمع صفارة رفيعة، ونظر فإِذا بالقطار أَقبل يزفر ويدفع أَمامه البخار الذي كثفه الهواء البارد، وشال الذراع وحط في حركة بطيئة رتيبة حين كانت تدنو القاطرة من الطوار، ومرت أَول ما مر عربة البضاعة، وكان ينبعث منها نباح كلب أَمكن سماعه، ثم تتابعت عربات المسافرين، ثم رجف القطار رجفة كبيرة وقف بعدها لا حراك به».

ثم انظر إِليه كيف قابل أَنا وهي تنزل من القطار وقد حدثتها أُمه عنه، «وكان بسبيل أَن يدخل الممر حين كانت إِحدى السيدات خارجة فأَفسح لها كي تمر، وكانت لمحة واحدة منه كافية لأَن يرى – وهو أَحد الخبيرين بالدنيا – أَن هذه السيدة تنتمي إِلى أَحسن المجتمعات، وقد سأَلها المعذرة حين تنحى ليفسح لها، ولما همّ بالدخول أَلحت عليه رغبة لا تقهر أَن ينظر إِليها ثانية، ولم يكن مرد ذلك إِلى ما رأَى من جمالها ورشاقتها وخفة حركتها، ولكن لما طالعه في وجهها الحلو مما ينطق بالرقة والرفق ولطف الشمائل. وأَدارت رأَسها هي أَيضًا فأثبت في وجهها نظرته، ومنحته بعينيها البراقتين الشهباوين اللتين بدتا سوداوين تحت أَهدابهما الطويلة الكثيفة نظرة ود باحثة كما لو كانت تعرفه، ثم التفتت تبحث عن شخص في الزحام، وراع فرونسكي في هذه اللمحة القصيرة هذا الذي تفصح عنه ملامحها من حيوية تحبسها، ثم عيناها

اللامعتان، وهذه الابتسامة التي ما كادت ترى حين اختلجت بها شفتاها الورديتان، وتبدت له وضيئة تشع وضاءتها على رغمها في نظرتها وفي ابتسامتها، والتمع ما أرادت أن تخفيه من ضوء عينيها في تلك الابتسامة الرائعة على ثغرها».

وها هي ذي أنا تدخل على دُلي زوجة أخيها «وحين دخلت أنا كانت دُلي جالسة في الثوى الصغير تصغي إلى صبي بض جميل هو صورة مُصغرة من أبيه، وكان يحفظ درسًا من كتاب فرنسي للمطالعة، وكان يجهر الصبي بقراءته ويعبث بأحد أضابعه بزرٍ في معطفه لم يعد يمسكه إلَّا خيط واحد، وقد نهته أُمه عن ذلك مرات ولكن يده البضة الصغيرة كانت لا تلبث كل مرة أن تتخذ سبيلها إلى الزر حتى قطعته أُمه ووضعته في جيبها».

ولو مضينا نسرد الأَمثلة من أَي كتاب له لأتينا به كله، وما اخترنا هذا الذي سقناه منها لخاصة بعينها فيه، وإنما جئنا به حيثما اتفق، إذ لا فرق فيما يحرص عليه من صدق بين صورة وصورة مهما عظمت الصور أَو هانت.

ومرد مقدرته في هذا الصدق إلى ما وهب من يقظة الحواس، وما رزق مُنذ حداثته من دقة الملاحظة وقوتها والغوص إلى أعماق الأشياء جميعًا من إنسان وحيوان ونبات وجماد، واستيعاب كل شيء في غير عُسر، وتفتح نفسه لذلك كله تفتحًا عجيبًا، فهو إذ يصور لك شيئًا ما في فصل مُعين من فصول السنة يضع لك في صورته ما يكون من غيم أَو نور أَو نقاء أَو غبار، وما ينفح به النسيم من رائحة ذكية أَو كريهة، وما ينجلي للأَعين من مشاهد قريبة أَو بعيدة، وبهذه اللمسات الخفيفة تكمل الصورة أَو تتمثل الحياة.

وكأَنه لشدة تيقظه ودقة إحساسه يرى بعينيه ما لا يراه غيره، ولقد أَسلفنا كيف صاح به ترجنيف ذات مره مُتعجبًا «لا بُد أَنك يا ليو نيقولا فتش كنت حصانًا ذات يوم».

وإن له لذهنًا عجيبًا يستحضر كل شيء مما رأَى أَو سمع كأَنه لا يزال ينظر إليه

أَو يستمع له، وقد رأَينا كيف كان يُرحب بكل ما عسى أَن يكون فيه مما يختزنه مادة لفنه من الأَشياء والناس.

وهو في مُلاحظة الأَشياء والناس لا يتأثر بما للشيء أَو الشخص في ذاته من خطر أَو عظمة، فيجعل همه لما يبهر أَو يقع في النفس موقعًا مُثيرًا، وإِنما ينظر إِلى الجبل الأشم نظرته إِلى الحجر، وإِلى النهر الدافق نظرته إِلى الجدول، وإِلى نابليون نظرته إِلى الجندي الذي لا يعرفه أَحد، لا يهمه إِلَّا الصدق أَدق وأعمق ما يكون الصدق.

ولقد يقول قائل: وأَين الفن فيما يصنع؟ فما هو إِلَّا ناقل كما تنقل آلة التصوير مثلًا. والجواب على ذلك أَن الفن أَروع الفن في أَن هذا الذي يجيئك به إِنما جاءك به من خياله، ولكنه أَلبسه لباس الحقيقة، أَو هو رسم الصورة وبعث فيها الحياة وهنا ومضع القدرة، وإِن الذي يرسم بألوانه وأقلامه ما يكون في كماله وظلاله مُطابقًا لما عسى أَن تلتقطه آلة التصوير من الطبيعة، لهو الفنان. أَما الذي يجيئك بصورة فيها براعة تلوينه وتظليله، ولكن فيها ما لا يُمكن أَن يكون مثله في الطبيعة، فليس هو من الفن في كثير ولا قليل، إِلَّا أن يكون الفن أَن يلجأ الفنان إِلى الرمز للتعبير عمّا لا يفهمه سواه، أَو ما لا يفهمه حتى هو نفسه، أَو إِلى الاستغراق في الخيال ليدعك تأخذ من معانيه ما تريد أَو لا تأخذ شيئًا فترد ذلك خطأً إِلى سمو فنه عن مستوى الناس، وهذا ما لم يلتفت إِليه تولستوي لأَنه في رأَيه تلفيق هو عمل العاجزين، وما كان إِلَّا الصدق مقياسًا عنده للقدرة.

لم يفعل تولستوي فعل الموسيقى أَو الشاعر الذي يستمد مادة فنه من اللا شيء وإِنما فعل فعل المثّال، بين يديك وأَمام ناظرين تمثاله من حجر، لا يقع في حسك منه إِلَّا ما أَراد، لذلك خلا فن تولستوي من الصور الغامضة ومن الشخصيات الخيالية التي تتمثلها الأَذهان كل ذهن حسبما يتصور. فمثل هاتيك الصور والشخصيات تُستساغ في الشعر، ولكن يمجها الذوق في القصة، وإِنك لتقرأَ له الوصف أَو تنظر في الشخصية فلا تجد فيها إِلَّا ما يجد غيرك كما تنظران إِليها في الحياة.

ولقد تقرأ لغيره فتعجبك منه حماسة الوصف وروعة التهويل، وتروقك براعة خياله وازدحام صورته، أَو تعقد جوانب شخصيته، ولكنك حين تذكر أَن مثل هذا لا يكون إِلَّا في الخيال، لا تلبث أَن تزور عن الصورة وعن الشخصية، وتحس أَن شيئًا ينقصها فإِذا هي تافهة، وتقرأ لتولستوي فلا يثيرك تحمس ولا يروعك تهويل ولا يتبهرك ألوان ولا يغرك تعقيد، ولكنك على الرغم من ذلك تألف الصورة وتأنس إِلى الشخصية، فإِذا بحثت عن سر ذلك لا تلبث أن تجد السر في أنها هكذا تكون في الحياة، وإِذا هي غالية مُحببة إِلى نفسك، أَو بعبارة أُخرى إِذا هي قطعة من الفن.

ولتولستوي في فنه خاصة أُخرى مردها كذلك إِلى الصدق أَو هي نوع آخر من الصدق وذلك ما يلتزمه من هدوء في عرضه الحوادث والأَشخاص، فهو لا يجعل الضجيج والصخب والتحمس والانفعال من وسائله في التعبير، وإِنما هو يسوق ذلك كله كما يحدث في الطبيعة، فلا حدة ولا عنف ولا مُبالغة إِلَّا حيث تقتضي ذلك طبيعة الموقف، وفيما عدا هذا فكل شيء يجري على على سننه طبيعيًا هادئًا، ولذلك قلما ذكرت المؤلف، وهنا كذلك موضع من مواضع الفن؛ لأنك إِذ تنسى المؤلف تنسى أَنها قصة وتشعر أنها حياة، وبين تولستوي وهوميروس كبير شبه في هذه الطريقة الذي يسوق بها قصصه، ويجريها كما تجرى الحياة.

وبرع تولستوي في الحوار وتوجيهه براعة هي كذلك إِحدى خصائص فنه، فلن تستغرب كلامًا قط على لسان أَية شخصية من شخصياته، بل تجد هذا الكلام مُطابقًا في معناه ومرماه لما تعرف عن هذه الشخصية، وهو إِنما يعتمد في رسم شخصياته إِلى مدى عظيم على الحوار ولا يقتصر على الوصف.

ويتفطن لا إِلى معنى الكلام وحده ولكن إِلى طريقة الأَداء، وإِلى ما يكون لشخصياته من لازمات في النُطق أَو الإِشارة، أَو ما يكون لبعضها من تمتمة أَو فأفأة أو لثغة أو طريقة خاصة في الضحك أو الابتسام أو في تحريك الشفتين أو العينين أو في إِخراج الحروف غليظة أو رقيقة، لا يسهو عن ذلك قط، وإِن ترك الشخصية وعاد إِليها بعد زمن طويل.

وينتبه في الحوار إلى شيء قلما انتبه إليه غيره مثل انتباهه، وذلك أنه يشعرك أَبدًا بالحياة وينسيك أنك في قصة، فإذا بدأ الحوار لا يلبث حتى يوجه ذهنك في لباقة إلى ما يحيط بالمتحاورين حيث يجلسون أو حيث يمشون، فهذا يتم كلامه ثم يقلب بصره مثلًا في الستر الحريرية أو في الآنية الخزفية الماثلة أمامه، وذاك يخرج ساعته الذهبية أو يعبث بعصاه أو يلقي نظرة على الحقول أو في السماء المشرقة أو الغائمة، أو غير ذلك مما يجعله بطانة للحوار يُخيل به إلى القارئ أنه يطلع على جانب من الحياة.

أَما في خلق الشخصيات فقد بلغ تولستوي مبلغًا لم يتح مثله إلَّا للقلة من الأفذاذ وهو في هذا المجال إمام من أعظم الأئمة، وقل من كانت له مثل مكانته.

كان الصدق كذلك رائده وعماده في خلق شخصياته، ولقد خلق مُعظم هذه الشخصيات على مثال من عرف في الحياة من الناس، وإِن له لخبرة عجيبة بالنفس البشرية وما يجيش فيها من شتّى الانفعالات والأحاسيس، وإِنه لذو بصيرة نافذة حين يرد ما يرى من الأَعمال والميول إلى ما يعرف من الأُصول، أَو حين يريد أن يتبين تلك الأُصول فيما تقع عليه عيناه، ولقد رأَى المئات من الشخصيات في حياته واختزنتها ذاكرته العجيبة، ولقد رأَينا كيف كان من تانيا يبرز موقف المثال من مثاله الذي أَجلسه أَمامه ليبني على غراره تمثاله. وإِن النساء ليعجبن إِذ يُطالعن قصصه كيف أحاط هذه الإِحاطة بنفسية المرأة، وكيف تعمق فهمها هذا التعمق، وبخاصة في مواقف وشؤون هي من صميم حياتها.

وإِنه ليسلك في خلق شخصياته مسلكًا يجعلك تلقاهم كما لو كنت تلقى الأحياء، فأنت لا تعرف الشخص جملة، وإنما تعرفه شيئًا فشيئًا، تعرفه من صورته العامة، ثم تنكشف لك نفسه في حديثه وفي سلوكه، ولا تزال تزداد معرفة به كلما طالعك في القصة حتى تألفه وتألف حديثه وتكاد تعرف بعد ذلك ما عسى أن يقول وما عسى أن يصنع قياسًا على ما بلوت من أمره.

ولقد ذكرنا أنه لم يعمد قط إلى الخيال الجامح في تصوير شخصياته، وأَنه التزم الصدق فجاءت شخصياته شخصيات أرضية من عالم الحقيقة ومما أُلف من الإِنس لا شخصيات سماوية من عالم الغيب نصفها إِنسي ونصفها لا نعرف إِلى أَي جنس ينتمي.

وإِنه ليفطن إِلى خصائص كل شخصية مما يخلق، فلا ينساها حتى آخر عهدنا بها، وإِنه ليبرز الخصائص البدنية، ثم يأتي بالخصائص الفكرية أو الروحية على أساسها، فتتضح الصورة كل الوضوح مهما يكن من تعدد جوانب بعض الشخصيات، أما العواطف الثائرة والأعصاب المتوترة والنفوس المضطربة التي لا تستطيع أن ترد اضطرابها إِلى سبب، والتي تفطن إِليها ولكنك لا تتمثلها أَشخاصًا تدب على الأرض، فليست من فنه، فهي نظريات في تحليل النفس وأُصول علمية، ولكنها ليست خلائق تحيا، وهي إِن دلت على معرفة واسعة بِأُصول علم النفس لا تدل على شيء من الفن، وإِنك لتستطيع أن تحفظ من أُصول هذا العلم جميع ما كتبه الكاتبون، ولكن ذلك وحده لا يجعلك تخلق نتاشا أو كتي أو ليفن أو أنا أو البرنس أندرو أو فرونسكي.

ليس في شخصياته شيء من الرمزية، وليست هي محلية بحتة، ولذلك فليست تُؤخذ على أنها تجسيد لمعانٍ مُجردة، ولا على أَنها نماذج لأنماط مُعينة؛ وإِنما تُؤخذ على أَنها أَفراد من أَفراد الحياة مما يراهم المرء في كل وطن.

ولتولستوي براعة في بث آرائه وفلسفته في قصصه هي كذلك من خصائص فنه، فهو لا يكتفي بِأَن يجري آراءه على ألسنة أشخاصه في حوارهم وتأملهم، وإِنما يبرز تلك الآراء فيما يأتون من أعمال وفيما يسلكون من مسلك وفيما يميلون من ميل، فيوحي إِلى القارئ ما يريد أن يقول دون أن يقول شيئًا، وإِنه ليخفى نفسه فلا تحس له قط تلك النغمة التعليمية التي تحسها لبعض القصصيين حين يلقنون ويشرحون، فتكون منهم حيال وعاظ، بتدخلهم يفسد الخيال، وتضيع القصة.. ولا يكاد يحس المرء في حوار أو جدل أَن تولستوي هو الذي يقول ذلك؛ ذلك لأَنك عرفت

شخصياته وفطنت إلى ميولهم، فما يفصح عنه أَحدهم من رأي إنما يُخيل إليك أَنه رأَيه، إذ هو في الواقع رأَي هذا الفنان المستتر، حتى في الأَشخاص الذين يُمثلونه؛ أَعني أُولئك الذين صورهم على مثاله فإنك لمعرفتك بحياته وآرائه تفطن إلى أَن ما يجري على أَلسنتهم هو كلامه، ولكن محبتك لهذه الشخصيات وألفتك إياها، وشدة وضوحها في نفسك، ينسيك أَنها في قصة، وينسيك أَنها تُمثل تولستوي.

ومن مُميزات فن تولستوي شدة تفطنه إلى نفسه، والإلمام بما يجول فيها إلمامًا لا تشوبه شائبة من ريب، ثم مقدرته على تصوير ذلك تصويرًا تطلع به على خفايا نفسه، وإنه في القصة الواحدة ليظهر في أَكثر من شخصية. فهو ليفن في «أَنا كارينينا» مثلًا، ولكن كثيرًا منه في فرونسكي وبخاصة أَيام عبثه وهو ضابط في الجيش.

ونستطيع بعد هذا أَن نجمل فن تولستوي في كلمة؛ وذلك أَنه في كل ما يكتب إنما يعرض عليك الحياة لا زيادة فيها ولا نقص، وفي هذا الشرط سر فنه.

# تولستوي الحائر

أَتم تولستوي «أَنا كارينينا» وقد أَصبح في روسيا أَحد رجالها المعدودين، وفي أُدبائها فارسهم المعلم، وأَصبح في أُوربا أحد القلة الأفذاذ من أساتذة الفن وأعلامه، وإِنه لذو ثراء عريض، وذو بنين، يسكن إِلى زوجة اختارها لنفسه عن بينة وحب، وهو إِلى ذلك يتمتع بالعافية، وقد وهبه الله جسمًا قويًا لا تسكن حيويته ولا تفتر قوته، وإِن موهبته الفنية لتمد اليوم أقصى مدها، وإِن روسيا كلها لتنظر إِليه نظرتها إِلى أَعظم من أَنجبت من رجال القلم في تاريخها، حتى لقد اغتدى اسمه لها مفخرة قومية، واغتدت به تباهي بِأَن صار لها في أدب الدنيا صفحة مرموقة ومقام معلوم.

ولكنه بين عشية وضحاها ينظر فإِذا بهذا كله عنده لا شيء، وإِذا به يشعر أَنه شقي لم يذق مثل شقائه أَحد أَو يعذب عذابه أَحد، على الرغم مما يحيط به مما يراه الناس من أَسباب السعادة والنعيم.

إِنه ليتقلب على فراشه إِذا جنه الليل مسهد الجفنين، ولقد يئن أنين المحموم، بل لقد يجهش في الظلام كما يجهش الصبي، وإِنه ليثب من فراشه فيذرع الحجرة حتى يتنفس الصبح.. وإِنه ليجلس إِلى مكتبه مطرقًا أَو محدقًا في الفضاء، لا يفتح كتابًا ولا يرفع قلمًا، وإِنه ليعتزل زوجته، ويتكره لأَبنائه أَو يشيح بوجهه عنهم، وإِنه ليدفن وجهه ساعات بين كفيه، وإِنه ليسرع ذات مرة إِلى بندقية صيده فيبعدها ويغلق من دونها بابًا مخافة أَن يقتل بها نفسه، وإِنه ليترك ما يأَتيه من رسائل في غُلُفها، ولا يحب أَن يلقي أَحدًا من صحابته، وإِن زوجته لتمتلئ فرقًا وحزنًا حتى لتكاد تذهب نفسها عليه حسرات، وإِن أَولاده ليعجبون ولكنهم واجمون.

ماذا دهاه؟ إِن حاله هذه حال من تلقى ضربة في الظلام تركته يترنح من الأَلم، وكلما أوشك أن يفيق أخذه دوار فتركه يتخبط ويهذي، لا يدري متى يعود إِليه

صوابه.

ولكن تولستوي لم يتلقَ الضربة على حين غفلة، فإنه مُنذ صدر شبابه تهجس في نفسه أَسئلة عن الحياة ومعناها، والغرض منها، ولقد رأَينا كيف أَلحت عليه هذه الأَسئلة وهو في القوقاز.

وشغلته آماله وأَحلامه بالصيت والأُسرة السعيدة، كما شغله عمله على تحقيق هذه الآمال، وعمله في التعليم والمجلة والزراعة، ولكن تلك الأَسئلة كانت تُعاوده بين حين وحين، وهي في كل مرة أَشد إلحاحًا عليه منها فيما سلف.

وعظم إلحاحها عليه بعد زواجه، فقد كان له قبل الزواج بعض ما كان يزيح عن نفسه هواجس من أَمل حلو، فلما بات الأَمل حقيقة ماثلة، التفتت نفسه إلى ما كان يكربها.

وظهر أَثر تلك المخاوف قويًا أَثناء كتابته قصتيه الكبيرتين فيما أَجراه على أَلسنة بيير والبرنس أندرو وليفن، ولقد خاف ليفن أَن يقتل نفسه من اليأس لأَنه لا يرى في الحياة إلَّا العذاب ثم الموت.

وكان يصل به الحال أَحيانًا أَثناء كتابته «أَنا كارينينا» مُواجهة مُخيفة وعاد في إلحاح وفي ضيق يقول لنفسه: لماذا؟ ما وجودي وما الغرض منه؟ ما هذا الذي يُسمى حياة؟ ولم كانت الحياة؟ قال في كتابه «اعتراف» يصف هذه الحال «لقد أخذتني الحيرة حتى لا أَدري فيم أُفكر، فإذا نظرت مثلًا فيما عسى أَن أعلمه أولادي قلت لنفسي: وفيم هذا؟ أَو إذا فكرت فيما عساه أَن ينهض بالفلاحين سأَلت نفسي: وماذا يعنيني من هذا؟ أَو إذا ذكرت ما عسى أَن أَكسبه من صيت بما كتبت قلت: سوف تغدو أَبعد صيتًا من جوجول أو بوشكين أَو شكسبير أَو موليير أَو من كتاب الدنيا جميعًا، فما جدوى ذلك؟ ولم أحر جوابًا قط، وتلك الأَسئلة علي حتى ما تقبل ريثًا، فيجب أَن تلقى جوابًا على الفور، فإن لم أَجب عليها صار مُستحيلًا علي أَن أعيش، ولكنني لم أَجد ما أجيبب به.. وأحسست أن ما كنت أضع عليه قدمي قد ذهب هباء،

فليس ثمة ما أقف عليه، وما عشت زمانًا عليه قد ولى، ولم يبقَ لي شيء.. وبلغ بي الحال أن أصبحت أنا الرجل القوي الثري لا أطيق أن أعيش، وصارت تدفعني قوة لا تُقاوم لأضع لحياتي حدًا على صورة ما، ولست أستطيع القول: إني رغبت أن أقتل نفسي، فإن القوة التي كانت تنتزعني من الحياة كانت أَقوى وأَشمل وأوسع مدى من أن تكون مُجرد رغبة، لقد كانت قوة شبيهة بتلك التي كانت من قبل تربطني بالحياة ولكن في اتجاه عكسي».

ويُصور لنا حاله بإِحدى الخرافات قال: «هُناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج في أحد السهول، فلجأ هذا السائح هربًا من الوحش إِلى جب ناضب، ولكنه وجد في قاع الجب غولًا قد فغر فاه ليلتقمه، ولما رأَى السائح التعس أَنه لا يستطيع أَن يصعد من الجب مخافة أن يلتهمه الوحش الثائر وأَنه كذلك لا يستطيع النزول إِلى قاعه مخافة أن يلتهمه الغول، فقد أَمسك بفرع من النبات انبثق من صدع في الحائط، وتعلق به، وأَحس بالتعب يدب في يديه شيئًا فشيئًا، وشعر أَنه سوف يسلم نفسه عمّا قليل لا محالة إِلى الهلاك الذي يتربص به من فوقه ومن أَسفل منه، ولكنه لن يزال مُتعلقًا بالغصن، ثم إنه ما لبث أَن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود، وقد دارا حول ذلك الغصن، وأَخذا يقرضانه، وأَيقن السائح أَن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو في فم الغول، وبينما يرى ذلك، وويعلم أَنه هالك لا محالة، إِذ يبصر بقطرات من الشهد على بعض أَوراق الغصن فيصل إِليها بلسانه ويلعقها.. وهكذا أَتعلق أنا بغصن الحياة، وإِني لأوقن أَن غول الموت يتربص بي وأَنه سوف يُمزقني كل مُمزق، ولست أَستطيع أَن أدرك لماذا وقعت في مثل هذا العذاب، ولقد حاولت أَن ألعق الشهد الذي كانت لي فيه سلوة من قبل، ولكنني لم أَعد أجد في الشهد ما يلذني، وما برح الفأران الأسود والأبيض، وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذي تعلقت به، ورأيت الغول في وضوح، ولم يعد للشهد طعمه الحلو، وليس أمام ناظري إِلَّا الغول الذي لا مهرب منه والفأران، ولن أستطيع أن أدير عيني عن ذلك، وليس هذا حديث خرافة وإِنما هو الحق الذي لا ينكر والذي

يفطن إليه كل إنسان».

لم يجد تولستوي معنى للحياة، فما هي إِلَّا عبث، بل إنها واللاشيء سواه؛ ذلك ما رجع به من طول تأَمله ومن طول قراءته شو بنهور وكانت وغيرهما، وَذلك ما أَجاب به على تلك الأسئلة التي ظلت سنين تلح عليه وتعذب نفسه.

وهذا اللاشيء هو ما أَفزعه، ثم إن انتهاءه إليه بعد طول التفكر هو الضربة التي تلقاها في الظلام والتي تركته يترنح ويصرخ من أَعماق نفسه الحائرة: ما هذا؟ أين أنا؟ ولم جئت هنا؟ وإلى أين مصيري؟

لقد اهتدى البرنس أندرو إلى الحب كما اهتدى بيير، واهتدى ليفن إلى السمو بالروح الخالدة والعزوف عن مطالب الجسد الفاني، ولكن تولستوي خالقهم لم يهتد إلى شيء، وظل حاله كما كان حال ليفن قبل هداه حين وصفه بقوله «عند ذلك تبين في جلاء أَن كل حي وأَنه هو نفسه ليس أَمامه ما يتطلع إليه أَلَّا الأَلم ثم الموت، ثم الفناء الأَبدي، ولذلك استقر رأَيه على أَنه لن يستطيع بعد أَن يعيش على هذه الحال، فإما أَن يجد تفسيرًا للحياة أَو فليقتل نفسه».

ما الحياة إِلَّا وهم، وما سعينا فيها إِلَّا عبث، وما أَنفسنا وأَولادنا إِلَّا طعام للدود، وما مسراتنا وملاهينا إِلَّا كأَصوات الخائفين من الأَطفال في ظلام الغابة اللفاء يدرأَون بها عن أَنفسهم الخوف، وما ذلك الذي نسميه في الحياة جمالًا إِلَّا غرور، إن كل ذلك إِلَّا باطل، وإن هو إِلَّا اللاشيء، ذلك ما أَفضى به إليه تأمله، وذلك ما يعذبه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أقطاره.

وليته ينسى، ولكن أنّى له النسيان، وهذه الحياة نفسها تُذكره أَبدًا بفزعه الأَكبر منها، وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر في ذاته، ولكن شيئًا مُبهمًا خفيًا ظل يوجه نفسه هذه الوجهة مُنذ حداثته، لا ينقطع عنه إِلَّا ليعود إليه أَقوى مما كان، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية.

وما قصر أَو تهاون في درس أَو قعد عن استقصاء قال «ولكني ربما كنت قد

سهوت عن شيء أَو أَخطأَت فهم شيء، ذلك ما تحدثت به إِليّ نفسي مرارًا، فليس من الممكن أَن تكون مثل هذه الحال من اليأَس أَمرًا طبيعيًا في الإِنسان، ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل في كل ناحية من نواحي المعرفة بلغها الناس، وبحثت بحثًا مُؤلمًا طويلًا، لا لمجرد الفضول والنظر، وقضيت في بحثي الشاق زمنًا بالنهار وبالليل، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة، فلم أعد من ذلك بطائل».

لم يدع شيئًا من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية، ولكنه لم يجد في العلم بغيته، فما بلغ العُلماء من العلم إِلَّا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين، أَما ما له صلة بالمشكلة الأساسية وهي مُشكلة الحياة، فقد أهملوه أو جهلوه، يقول عن العُلماء «إِنهم هكذا يجيبونك: أَما عن سؤالك: ماذا أنت ولم تعيش؟ فليس لدينا جواب، وليس هذا مما نشغل أنفسنا به، أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أَو قانون الاتحاد الكيميائي أَو غيرها فلدينا أجوبة واضحة مُحددة عن ذلك، لا تقبل الجدل».

ولم يدع شيئًا مما له في الفلسفة صلة بمسائل الحياة، فقرأَ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشو بنهاور وإِضرابهم، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إِلَّا «بِأَن كل شيء في الحياة عبث، وأَن السعيد هو ذلك الذي لم يُولد».

ماذا يقول سقراط؟ أَليس هو القائل: «إِننا نقرب من الحقيقة كلما أَخذنا في الابتعاد عن الحياة، وأَن حياة الجسد شر وباطل، وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم، وينبغي علينا أَن نطلبه؟» وماذا يقول بوذا؟ أَليس هو القائل: «إِن من المستحيل أَن نعيش وفي نفوسنا أَن الأَلم أَمر لا بُد منه، وأَننا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الكبر ويدركنا الموت.. أَلا إِنه يجب علينا أَن نتخلص من هذه الحياة؟».

وماذا يقول سليمان؟ أَليس هو القائل «عبث في عبث وباطل في باطل، وماذا يجني الإِنسان من عمله تحت الشمس؟ يمضي جيل ويأَتي جيل غيره والأَرض هي

الأَرض قائمة أَبدًا، وكل ما كان هو ما سوف يكون وما عمل هو ما سوف يعمل ولا جديد تحت الشمس، ولن يُذكر ما مضى من الأَشياء، وكذلك ما هو آت فسوف لا يذكره من يأتي بعده»؟

وماذا قال شو بنهور؟ أَليس هو القائل «الحياة هي ذلك الذي كان يجب أَلا يكون.. هي الشر، وإِن انتهاءنا إِلى اللاشيء هو الخير الوحيد فيها»؟

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة؟ «كان سكياموني أميرًا شابًا يعيش عيشة سعيدة حُجِبَ عنه العلم بالمرض والكهولة والموت، وخرج الأَمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أَسنانه، يتعثر في مشيته، ويبعث منظره الرعب في النفس، فسأَل ذلك الأَمير الذي لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم، سائق عربته، وقد أَخذه العجب: ماذا يكون ذلك؟ وكيف وصل الرجل إِلى هذه الحال التعسة الكريهة؟ ولما علم الأَمير أَن ذلك حظ الناس جميعًا، وأَنه سوف يصيبه لا محالة يومًا ما، لم يستطع أَن يستمر في نزهته، وأَمر سائقه فعاد به إِلى القصر ليتفكر في هذه الحقيقة، ثم أَغلق من دونه الأَبواب وجعل يتفكر، ويرجح أَنه وجد عزاء لنفسه. فقد خرج ثانية للتنزه مُبتهجًا سعيدًا، ولكنه أَبصر هذه المرة مريضًا مُتهدمًا أغشى العينين مُرتعش البدن، ولما لم يكن للأَمير عِلم بالمرض فقد وقف وسأَل عن ذلك، ولما عَلِمَ أَنه المرض، وأَن كل إِنسان عرضة له، وأَنه هو نفسه – وهو الأَمير القوي السعيد – قد يمرض في غده، لم يطق مُتابعة سيره وعاد ثانية إِلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء، ويُرجح كذلك أَنه أَصاب عزاء؛ فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة، ولكنه في هذه المرة وقع على منظر جديد؛ فقد أَبصر رجالًا يحملون شيئًا ما، فسأَل ماذا يكون، ولما أخبر أَنه رجل ميت قال مُتعجبًا: ميت؟ وما الميت؟ وأخبر أن الإِنسان إِذا أَصبح مثل ذلك الرجل صار ميتًا، فدنا الأَمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأَل ماذا يحدث بعد ذلك؟ فأُخبر أَنها سوف تُدفن في الأَرض، واستفهم عن سبب ذلك فأُجيب لأَن الميت سوف لا يعود إِلى الحياة، وسوف يتعفن وينتج الدود، وسأَل الأَمير أَذلك حظ الناس جميعًا؟ وهل يحدث لي مثل هذا؟ وهل

أُدفن وأَتعفن وأنتج الدود؟ أَتقول نعم؟ إِذًا فإِلى القصر، ولن أَخرج بعد ذلك أَبدًا طلبًا للمُتعة. ثم إِن سيكياموني فقد كل عزاء، وأَيقن أَن الحياة أَعظم شر، وجعل همه كله أَن يتخلص منها ويخلص غيره».

هكذا تُصور الحكمة الهندية الحياة، وهكذا يراها تولستوي، ولقد فكر كثيرًا في أَن يتخلص منها.

ولكنه يرى كثيرًا غيره من الناس يعيشون لا تعزجهم الحياة ولا يكربهم التفكر فيها، فإِذا كان لم يجد في العلم هُداه ولا في الفلسفة. أَفلا ينظر في حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه؟

وعرف من الناس في الحياة أَربعة أَنماط: ففريق هم الجُهلاء الذين لا يدون أَن الحياة عبث وسخف، وليس له في هؤلاء لأَنه لا يستطيع أَن يعود جاهلًا، وفريق يعلمون سخفها، ولكنهم مع علمهم يُوطنون أنفسهم على تحملها، وهو لا يقدر أَن يُجاريهم فهو مُتبرم ساخط، وفريق هم الجادون العاملون الذين يتخلصون من الحياة على أَية صورة، وهو لا يستطيع أَن يفعل فعلهم؛ لأَن شيئًا خفيًا يمنعه من ذلك كلما أَغراه اليأَس، وفريق يرون الحياة زورًا وعبثًا وأَن لا خير في مُستقبل ولا رجاء ومع ذلك فهم يتعلقون بها وإِن تعذبوا وهو من هذا الفريق.

على أَن هُناك فريقًا خامسًا لا يدخل في هذه الأَنماط الأَربعة، هم أُولئك الذين لا يكترث لهم أَحد، وينظر إِليهم السادة نظرتهم إِلى الدواب، وهؤلاء قد وجدوا لهم في الحياة معنى يعيشون عليه، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة، وذلك هو الإِيمان.

ولكن إِيمان هؤلاء يقوم على أَساس من الأُورثوذكسية عقيدة الكنيسة الروسية الإِغريقية، وهي ما لا يستطيع أَن يحمل عقله على قبوله.

يا للحيرة! إِن العقل يفضي به إِلى إِنكار الحياة نفسها، وإِن الإِيمان يقتضي أَن يعطِّل العقل.. أَي بلاء هذا، وأَي ليل مُعتم!

ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لا بُد من إعداد النفس للإيمان حتى تُؤمن، وإذًا فليدع العقل جانبًا وليُناقش رجال الدين، ولينظر في كلامهم لعله يصل إلى قلبه، وليقرأ ما كتبه آباء الكنيسة، وليُطالع سير القديسين وليتعبد فيقيم الشعائر جميعًا، وليزر الأَديرة، وليذهب إلى الأَب الصالح أمبرور، ذلك الذي كان يستعينه جوجول والذي استعانه دستويفسكي وسولوفييف، وفعل ذلك جميعًا ولكن الشك لا زال يأخذ بخناقه ويكاد يزهق روحه.

ويقرأ العقيدة الأرثوذكسية، وكلما أَمعن فيها سخر منها وبعد عن التصديق بها، فما هذا التثليث وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه، وما تلك المعجزات التي تنسب إلى القديسين، وما تلك الأَدعية والصلوات والطقوس؟ أَذلك مما يقبله العقل؟ كلا ثم كلا.

ثم يحاول أَن يطرد الجحود من نفسه، فربما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان، ويقول لنفسه دائمًا إنه مُستعد لأَن يُؤمن. قال في كتابه «اعتراف» يصف ذلك: «لقد اتجهت صوب الإيمان لأَني لم أَجد شيئًا خارجه إلَّا الخراب، وعلى ذلك فطالما كُنت لا أَستطيع أَن أطرح عقيدتي جانبًا فقد صدقت وخشعت، وقد أَحسست في قلبي من القنوت والخشوع ما جعلني أَفعل ذلك، ثم إني عُدت فتخشعت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية في نفسي رغبة مني في أن أصدق، ولكني أَذكر ما مر بي من صدمة وأَرى ما ينتظرني فيما هو قادم، فلا أَملك أَن أظل مُصدقًا».

وإذ يرى نفسه في بحر لجى من الحيرة، يسأَل نفسه: ماذا يردي أن يعرف على التجديد ليلتمس السبيل إلى معرفته، فيكتب على رقعة: «لماذا أَنا حي؟ ما سبب حياتي وحياة غيري من الناس؟ وما هدف حياتي وحياة غيري؟ ماذا تعني ثنائية الخير والشر التي أَحسها في نفسي ولماذا هي قائمة فيها؟ وعلى أَي وجه ينبغي أَن أَحيا؟ وما الموت؟ وأَهم من ذلك كله وأَكثره تعقيدًا كيف أنجي نفسي؟ ذلك أني أحس أَني هالك، فإني أَعيش ثم أَموت، وإني أحب الحياة وأَخاف من الموت، فكيف أنجي نفسي؟».

وإذا لم يبقَ له إلَّا الدين والإيمان، فأَي إيمان؟ إنه إذا قارن في نفسه بين تلك الأَوقات التي آمن فيها بالله وبين تلك التي أَنكر فيها الله، وجد الأولى نيرة فيها شفاء للنفس ووجد الثانية مُظلمة فيها العناء، ولكن الإِيمان بالله شيء، والإِيمان تقول الكنيسة الأورثوذكسية شيء آخر.

ولن يزال يطيل القراءة في العقيدة الأورثوذكسية، ولن يزال يقرأ الأديان جميعًا في كُتبها، ولن يزال يزور الأَماكن المقدسة علها تُوحي إلى نفسه الإيمان، ومن ذلك مدينة كييف وما تزدحم به من كنائس وأَديرة قديمة، ولن يزال يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين في السن من الناس، ولن يزال يقيم الشعائر ويُعظمها، ثم لا يعود من ذلك جميعًا بشيء إلَّا الجحود بما تقول الكنيسة.

ذلك حال تولستوي وما صنع في تلك السنوات التي أَعقبت زواجه حتى أَتم كتابه «أَنا كارينينا»، ثم تلقى الضربة التي جعلته يتخبط في الظلام، والتي جعلته يلقي بعيدًا بحبل كان في متناوله مخافة أَن يشنق نفسه، ويجعل دون بندقيته قفلًا غليظًا كيلا يصوبها إلى قلبه، وما تلك الضربة إلَّا أَنه بعد طول عنائه يرى الحياة لا شيء، ولكم يزعجه هذا اللاشيء ويوبق روحه، ويُزعزع فؤاده.

ولكن إذا كان لا يحب أَن يقتل نفسه فما معنى أَن يستسلم لليأَس؟ وكيف يحيا إذًا ويطيق حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة؟

إذًا فليجاهد على وعورة الطريق وبُعد الشقة وظلمة المفازة، ليجد معنى للحياة ترتاح له نفسه، ويسعد به البشر، ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة التائه الذي يخيفه الفضاء والظلام. فلخير له أَن يمضي لعله يجد بعد الضلال هدى وبعد العذاب راحة، ولأَن يتحمل وعثاء السفر مهما عظمت أَهون عليه من هذه الوقفة التي تكاد تلقيه في قرار سحيق.

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عامًا يعمل للفن، فليقض ما بقى من عمره عاملًا على تقرير معنى الحياة، وليس ما يمنع أَن يكون الفن أَداته فيما هو قادم إذا

لزم الحال.

وسوف يعمل تولستوى دائبًا ناصبًا، حتى ليعد جهاده في سبيل غايته من أَروع فصول الكفاح في خُطى البشرية، فليس أَبلغ في معاني البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صعاب، ولسوف يغدو تولستوي في تاريخ الفكر الحديث، والأَدب الحديث، والفن الحديث، بجهاده الهائل معدوم القرين في إِخلاصه وحميته وثباته.. أَجل.. وسوف يرتفع إِلى منزلة وسطًا بين الأَنبياء والناس.

# روسيا ترد إلى الغسق

لم يلبث عهد الإسكندر الثاني أَن برز فيه من الثورة لعيه ما كان مرده كما أَسلفنا إلى التحمس له، فمن أَحرق جوفه الظمأ لن تطفئ غلته رشفة، ومن ارتشف على غلة ثم حيل بينه وبين الماء فاليأس كل اليأس في هذا الذي يُعلل به من رجاء، ولا بُد عندئذ من وثبة فإما حياة بعد وإما فناء.

والفرق عظيم بين ما لاح من بشائر الفلق في أَوله، وبين ما ردت إليه روسيا من غسق يشبه ليل نيقولا في آخره، بين ما استُهل به من مظاهر الحرية وبين ما اختتم به من نكسة أَفضت إلى الرجعية.

لم يرضَ المثقفون أَو ما يسمون المستنيرين لأَنهم لم يروا إصلاحات الإسكندر إلَّا مواد مسطورة على ورق، نصيبها من التنفيذ لا يكاد يُذكر، ولم يرضَ الفلاحون لأَنهم لم يحسوا للتحرير أَثرًا في حياتهم المادية، وظلت أَعباء التعويض تغل نفوسهم، وإن قيل لهم إنهم أَحرار.

وجاء ما استولى على النفوس من يأَس مُكافئًا لما استبشرت به من رجاء، ورأَى الناس الإسكندر يغلب عليه الحذر، ويستمع إلى بطانة حوله ممن أَشربت قلوبهم سياسة نيقولا، ورأَوا حماسته للإصلاح تفتر يومًا بعد يوم، بسبب ثورة البولنديين من ناحية، ولخوفه من تناقص سلطته شيئًا فشيئًا من الناحية الأُخرى.

وزاد تردد الإسكندر للناس يقينًا أَن أَكبر العيب وضع مقاليد الأُمور كلها في يد رجل واحد، فالإمبراطوية أَعظم من أَن يُهيمن عليها رجل ولو كان من ذوي العبقرية، فكيف وهذا المتربع على عرشها ليس له من مُؤهلات الحاكم العظيم شيء؟ والإصلاح الحق لا بُد أَن تنهض به حكومة مسؤولة تُؤيَّد إن أَحسنت وتُحاسب إن قصرت.

وطالب بهذا حتى النُبلاء، وإِن جاء طلبهم لأَنهم أَرادوا لأَنفسهم السلطة أَو أَرادوا التحرر من سلطة القيصر كما تحرر الفلاحون من سُلطانهم؛ ولقد تقدموا إِلى القيصر بملتمس سنة ١٨٦٥ ليقيم نظامًا تمثيليًا «حتى يصل الحق عرشك دون عائق»، ولكن القيصر وضع إِصبعيه في أُذنيه.

وهكذا نجد طبقات المجتمع الروسي جميعًا وإِن اختلفت البواعث، تطلب تغيير الحال تغييرًا يحقق ما انبعث في النفوس أَول عهد الإِسكندر من آمال.. ولا سبيل إِلى ذلك إِلَّا أَن يأَتي الإِصلاح كاملًا من الأَعماق، لا منحة مُتكلفة من أوتوقرطاي يحرص على سلطانه.

وكانت تُسيطر على المستنيرين من رجال الأَدب والصحافة والفلسفة، والمثقفين بوجه عام نزعة مُحاكاة أُوروبا في كل شيء، وعندهم أَن علة العلل التمسك بالتقاليد العتيقة، ولا يرجى من خير لروسيا إِلَّا إِذا أخذت بما أخذت به أُوروبا، وباتت أَفكار الغرب وحضارة الغرب قبلتهم وأمل نفوسهم، وبلغت حماستهم في هذا مبلغ الحماسة الدينية، فما يطيقون جدلًا أَو يقبلون هوادة، فنظرية داروين مثلًا عندهم دين جديد، وما بلغه العلم من قوانين يقع في نفوسهم أَحسن وقع، وما أَنتجه الغرب من مظاهر التقدم المادي موضع إِعجابهم ومتجه أمالهم، ولئن أخذت روسيا بهذا فقد أَفاقت من سُباتها الطويل وصارت دولة حديثة.

ونجم في البلاد من صفوف هؤلاء المستنيرين المعجبين بِأُوروبا حزب ثائر ناقم على كل شيء، ما لبث أَن عرف باسم «النهلست»؛ فقد أطلق ترجنيف هذا الاسم على من خلقه في قصته «آباء وأَبناء» ليمثل أَفراد هذا الحزب، وهو بزاروف، ثم ذاعت الكلمة في روسيا وصارت علمًا على هذا الحزب.

صور ترجنيف بزاروف شابًا «لا يحني رأَسه قط لسلطان ما، ولا يأَخذ مبدأ ما مأخذ العقيدة مهما كان ما أحيط به من احترام.. ولا يسيغ أَن يلوك العبارات الجوفاء حول الفن والنظام النيابي ونظام المحلفين وما إِليها، بينما المسأَلة هي كيف تحصل

البلاد على الخبز لتأكل.. وعنده أنه ما من نظام قائم في حياة روسيا يومذاك في الأُسرة أَو في احياة الاجتماعية إلا ويستدعى أن يقضي عليه قضاءً تامًا في غير تحفظ.. ويلتزم بزاروف موقفًا سلبيًا مُطلقًا وينتقد انتقادًا سطحيًا، وإذا قيل له إنه من الضروري أَن نبني كما نهدم أَجاب: إن ذلك ليس شأننا الآن.. فإنه يجب أَن تُمهد الأَرض أَولًا وتنظف».

ولقد كان بزاروف يُمثل في الواقع كل نهلست، وكان مما يذيعه هؤلاء ويتمسكون به التحرر من الماضي، والتخلص من كل عاطفة ومن كل عرف؛ لأَن ذلك هو ما يعوق خُطى التقدم وما يستعبد العقول البشرية.

ويسخر النهلست ممن يتقيدون في آرائهم بآراء من سلف، ولا تقف سخريتهم عند حد، حتى المقدس من العقائد والشعائر أَو الذي قارب مرتبة التقديس من آراء السلف وتقاليدهم، فما هذه جميعًا إلَّا أَشياء لا يُرجى من خير إلَّا أن يقضي عليها القضاء التام أَول الأَمر.

بهذا كان الهدم قاعدة هذا الحزب الذي لا يطيق صبرًا ولا يقبل هوادة، وكان العنف تبعًا لذلك وسيلته الوحيدة إلى ما يريد، ولكن الحزب لا يزال بعد سنة ١٨٦٠ في مرحلته الأُولى، مرحلة الفلسفة.

وثمة حزب آخر نجم من صفوف السلافيين أَو أَنصار المدرسة الشرقية، وهؤلاء في الواقع مظهر جديد لهذه المدرسة، فهم لا يذهبون مذهب الآخرين في مُغالاتهم في النظر إلى السلاف وعدهم المثل الأَعلى للجنس البشري، وإنما يُؤمنون بالفلاح الروسي وما يُرجى على يديه من خير إذا رفع مستواه وهم يتفقون مع أَنصار السلاف في أَن المجتمع الجديد يجب أَن يقوم على أَساس زراعي قوامه وحدات قروية لا على أَساس صناعي قوامه العلم الحديث.. ومبادئ هذا الحزب يكتنفها الغموض، وكان مُؤسسه هو هيرزن، وقد اتبعه عدد كبير من المتعلمين ومن الطلاب الجامعيين، وكان يسوء هؤلاء ما يعلمون من حال الفلاحين، وكانوا يرون البدء بتعليم هؤلاء، والذهاب

إِليهم في القُرى والعيش بينهم زمنًا كلما سنحت فرصة، ولم يفهم هؤلاء الفلاحون في أَكثر الأَحوال ماذا يريد هؤلاء الذين جعلوا من أَنفسهم مُرشدين لهم، وكثيرًا ما كانوا يسلموهم إِلى المتجسسين من أَعوان القيصر، ولما حل بهم نكال الحكومة وجدوا أَنفسهم مسوقين إِلى العنف كالنهلست، ومن ثم تأَلفت لجنة من بينهم عرفت بلجنة «الأَرض والحرية» وأَخذت هذه الشعبة الثائرة تدبر وسائل الانتقام من أَعوان القيصر.. وسرعان ما اندمج هؤلاء في النهلست وصاروا فريقًا منهم، وإِن احتفظوا باسم جماعتهم.

ظل نشاط النهلست حتى سنة ١٨٧٠ قاصرًا على نشر الدعوة يمنون أَعوانهم بعهد جديد، ويعدونهم بمستقبل عظيم لروسيا، ويلقون في روع الشباب أَلا سبيل إِلى النجاح إِلا حرية الفرد أو تخلصه من الأَوهام ومن كل ما يفرضه المجتمع أَو الأُسرة أَو الدين.. والانطلاق من ذلك الاستبداد الأَدبي الذي يُهيمن على عقل الفرد ووجدانه وشخصيته، ونبذ كل ما لا فائدة منه في زعمهم من الفن والأَدب وتراث الماضي جميعًا، واعتناق ما يقتنع العقل بفائدته فحسب، فالإِسكاف مثلًا خير عندهم من رفائيل؛ لأَن الإِسكاف يفيد بعمله المجتمع، أَما عمل رفائيل فلا معنى له.

وقد عظم نشاط النهلست منذ سنة ١٨٦٦، وكان ذلك نتيجة لعنف الحكومة عليهم واضطهادهم عقب محاولة لاغتيال القيصر، وقد زادت سياسة الحكومة حيالهم شعلتهم اشتعالًا، ووجدوا فيها مثلًا من الجور يضربونه للناس، ويفهمونهم بذلك في يسر أَن الخلاص في مُقابلة العنف بالعنف والبغي بالبغي، وبخاصة حين رأَوا القيصر يقترب من الرجعيين بعد حادث الاعتداء عليه وينظر إِلى الإِصلاح كأَنه مفض إِلى الفوضى.

وراح هؤلاء النهلست يندِدون بالطاغين وينذرونهم عذاب يوم قريب، ولا يفتأَون يذكرون ما يحل بالفلاحين من ظُلم، أُولئك المساكين الذين أنقضت الضرائب والتعويضات ظهورهم، وهدهم الجوع، وكدهم العمل المتصل، وهم يعيشون عبيدًا للمترفين من السادة والكبراء، يعملون ولا عائدة من عملهم عليهم ولا أَمل يبسم لهم

في ظلمات العيش.

وكان يطمح هؤلاء إلى نوع الانقلاب يُمكن لهم في البلاد فيؤلفون هيئة على شاكلة كومون باريس إبان الثورة الفرنسية الكُبرى، تنتهي إلى حُكم ديموقراطي اشتراكي.

ولم تخل البلاد من دعوة اشتراكية، غايتها بث المبادئ الاشتراكية في النفوس بالسلم والحكومة وبخاصة بين الفلاحين، حتى يأتي اليوم الذي يتمسكون فيه بهذه المبادئ وقوامها التحرر الاقتصادي والاجتماعي.

ونشطت الحكومة من جانبها في مُحاربة هؤلاء وهؤلاء وبخاصة دُعاة الفوضى من النهلست، وقد بثت عيونها في كل مكان، وكان سلاحها غير السجن والقتل في بعض الحالات، النفي إلى سيبريا، وقد أَرسلت إلى تلك الأصقاع في عشر سنوات حتى سنة ١٨٧٤ قرابة مائة وخمسين أَلفًا، لم يأتوا عملًا إلَّا نشر الدعوة سرًا.

***

ظنت الحكومة أَنها بهذا النفي وبهذا التنكيل قد قضت على خصومها قضاء لا قيام لهم بعده، ولم تفطن الحكومة، وقلما فطن الطغاة، إلى أَن البطش إذا نجح فإنما نجاحه إلى حين، ولو فطن كل فرح بجبروته، مُطمئن إليه، أَنه بهذا الجبروت يمضي إلى الهاوية، لخفض من غلوائه، ولتهيأَت نفسه لتدرك أَن إرضاء النفوس هو وحده الذي يقتلع منها السخيمة وينفي عنها الثورة، وإذا احتدم صراع بين القوة المادية وقوة الروح فإنما تستند القوة المادية إلى الباطل، وتقوم القوة الروحية على الحق، ولن يهزم الباطل الحق أَبدًا، وإن خيل له أَنه الغالب، وما كان قيامه على البطش إلَّا الدليل على ضعفه والسبيل أَقصر السبيل إلى انهياره.

غضبت النهلست وغضب كل حزب ينزع منزعهم وإن لم يكن منهم، ورأَوا أَن وقت العمل قد حان، وصارت كلمتهم التي يتهامسون بها أَو يجهرون «إلى العمل» بعد أَن كانوا يقولون «إلى صفوف الناس».

وأَخذت الفتن والقلاقل في شوارع موسكو وبطرسبرج تتكرر على نحو ما حدث إِبان الثورات في العواصم الأُوروبية في هذا القرن، ولكن خضوع الجيش للقيصر مكن الحكومة من القضاء على كل فتنة في غير كبير مشقة حتى تبين للثوار بعد سنوات ثلاث عبث هذه الوسيلة.

وأَمعنت الحكومة في عنفها ففتحت محاكم خاصة للقضايا السياسية، وأَنزل القضاة أَشد العقاب بكل من ثبت عليه أَي ذنب مما كان صغيرًا، وصار يبعد الطلبة عن الجامعات بغير حساب، وضيقت الرقابة على الصحف والمطبوعات، حتى لقد حرمت دراسة النظريات السياسية أَو قراءتها، ومنعت كُتب ستيوارات مل وهربرت سبنسر ولكي من دخول روسيا، ونظرت قضايا الصُحف والكُتب من غير محلفين، وعاد الاختلاس والفساد والرشوة، حتى أَحس الناس أَنهم في عهد نيقولا، وباتت ظلمات الغسق بعضها فوق بعض.

وعطف عنف الحكومة وإِسرافها في البطش القلوب جميعًا على النهلست ومن أَخذ إِخذهم، على الرغم من كراهة المعتدلين من الناس لأساليبهم وتطرف آرائهم، حتى باتت الحكومة في جانب والشعب في جانب، الثائرون منه ومن التزم الحيدة من قبل.

وأَفضى جبروت الحكومة إِلى ما لم يكن منه بُد، فعمد النهلست إِلى قتل خصومهم غيلة، وتألفت لذلك جماعات سرية همها أَن تغتال أَعوان الحكومة، وبرر النهلست خطتهم هذه بقولهم: «إِن كل وسيلة جائزة في وجه نظام حكومي يقوم على الظُلم المنظم، توطد خلف غابة من الحراب».

وصار النهلست يقتلون كل من تصل إِليه أَيديهم من عيون الحكومة وأَرصادها، وباتت الحكومة تخشى جانب هذه الجماعات السرية، وتحسب لخطرها أَلف حساب.

وحدث أن أطلقت امرأة تُدعى فيرا الرصاص على ضابط لأَنه أَهان بالضرب سجينًا سياسيًا، وأخلى المحلفون سبيلها، فلما أَراد الشرطة أَن يعتقلوها، أَعانها الناس

على الهرب إلى خارج البلاد، وقد أَوحى هذا الفعل إلى تلك الجماعات الثائرة تعلقهم بما يتبعون من إرهاب.

وأَخذ القيصر يخشى العاقبة، فأَراد من بُعد أَن يحتكم إلى الرأَي العام، ولكن الذين استبشروا به في أَول عهده ورجوا على يديه الخير لا يرون فيه اليوم إلَّا طاغية كأَسلافه من الطُغاة، ويوقنون أَن كل شيء يرد إلى استبداده بالأَمر دون شعبه، وردت أَكثر مجالس المقاطعات على الحكومة تقترح العلاج الذي لا علاج غيره، وهو أَن يعطى الشعب حرية الرأَي والفكر. فإن محاربة الآراء الهدامة غير مُستطاع إلَّا بوسيلة واحدة هي إزالة ما يشكو منه الناس، ولن تعرف شكواهم إلَّا أَن تُتاح لهم حرية الكلام.. ولكن هذا آخر ما كان يسمح به الإسكندر، وهل تنازل قبله عن سلطانه طاغية باختياره؟

وبرزت الميدان في جماعة «الأَرض والحرية»، وبخاصة شعبة نبتت منها هي المسماة «مشيئة الشعب»، واغتالت هذه الجماعة رئيس الشرطة السرية والشمس في الضحى، وذلك في أَحد شوارع بطرسبرج.

وحاولت الجماعة اغتيال القيصر نفسه، وكانت هذه ثاني مُحاولة للثائرين، إذ كانت أَول مرة سنة ١٨٦٦، وبعد هذه المحاولة قسمت روسيا أَربعة مناطق عسكرية، وجعل على كل منطقة حاكم عسكري له حق الحكم بالقتل.

ولكن ذلك لم يزد الناس إلَّا نفورًا، والثائرين إلَّا شططًا وفجورًا، فإن الإصلاح في نظر الناس يغني عن ذلك كله، وإذا كان الإصلاح هو وحده السبيل، فإن رفض الأَخذ به معناه التمسك بالسلطة، والتمسك بالسلطة ولو هلكت البلاد أَسوأ وأَقبح صور الاستبداد، وأدعاها إلى ازدياد الغضب وإيمان الناس بالحرية التي هي وحدها الخلاص من هذا البلاء.

لهذا عاد الناس يعطفون على النهلست، وتخلى عدد كبير من التجار والصناع من رجال الطبقة الوسطى ممن كانوا لا يزالون على شيء من الولاء للقيصر، عن

ولائهم له، وصار يُجمع المال سرًا للنهلست على اختلاف جماعاتهم، الأَمر الذي زادهم قوة فوق قوة.

وأَراد الإِسكندر الثاني، وقد وقعت محاولات ثلاث أُخرى لاغتياله أَن يتزحزح قليلًا فوافق على تأَليف مجلس عام يرسل إِليه مندوبون يختارهم مجالس المقاطعات والمدن الكبيرة لمشاورته في الأُمور.

ولكن الناس سخروا من تمسكه بسلطانه إِلى هذا الحد، فكل ما وقع من الأَحداث لم ينتج إِلَّا هذا المجلس الهزيل، وبقيت سلطة الطاغية الفرد هي هي وأُنوف الناس راغمة، ومشيئتهم هباء.

وفي يوم كئيب الضحى من أَيام مارس سنة ١٨٨١ أُلقيت في أحد شوارع بطرسبرج قنبلة على القيصر فلم يصب بسوء وإِن تعطلت عربته، واعتقل الجاني وأحاط الحرس بقيصرهم يلحون عليه في فرق وعجلة أن يركب عربة أُخرى، ولكنه أَصر على أَن يرى الجاني بنفسه، ولم يكد يخطو حتى عجله شريك لذلك الجاني بقنبلة أُخرى فخر على الأَرض لا ينطق، وحمل إِلى قصره حيث قضى نحبه.

وأَعلن الثوار في ورقة أَذاعوها أَنهم يكفون عن العنف إِذا أُجيبوا إِلى مطلبين: دعوة مجلس أَهلي يختار أَعضاؤه بالاقتراع العام، وإِطلاق حرية الصحافة وحرية الخطابة، وحرية الاجتماعات العامة «فهذه وحدها الوسيلة التي تمضي بها روسيا قدمًا في سلام وسكينة صوب التقدم المنشود».

***

وخلفه الإِسكندر الثالث، وكانت فاتحة عهده تنفيذ حكم الموت على أَين الناس في امرأة لأول مرة مُن نصف قرن وكانت بين المتآمرين على قتل أَبيه!

ولم يتردد الإِسكندر الثالث بين الإِصلاح والمحافظة، وإِنما أَعلن سياسته صريحة لإِخفاء فيها، فهو لن يتزحزح قيد شعرة، ولن يتهاون طرفة عين في أَخذ الثائرين

بنكاله حتى يخضعوا لسيفه الذي لا حق إِلَّا هو ولا نجاة للدولة إِلَّا فيه.. قال الإِسكندر فيما أَذاعه غداة تربعه على العرش: «إِن صوت الله يهيب بنا أَن نقف ثابتين في قمة الحكومة مُؤمنين بقوة السلطة الأُوتوقراطية وعدالتها، تلك السلطة التي انتدبنا لنزيدها قوة ونحفظها لخير الناس وصالحهم من كل عدوان».

وشدت الحكومة الوثاق على رجال القلم والفكر قاطبة، فهم في زعمها مصدر كل داء وأَصل كل بلاء، واستعان القيصر برجال الكنيسة فراحوا يذيعون في الناس قواعد الولاء والطاعة، ويرمون كل ذي رأَي حر بالمروق ويحذرون الناس منه، ويُبالغون في تصوير ما سوف يلقاه من سوء المصير.. وتناولت الحكومة الجامعات بالرقابة الدقيقة، فلا يقبل طالب إِلَّا بعد الوثوق من هدوئه وبعده عن الأَفكار الثائرة، ولن يسمح للطلاب باجتماعات إِلَّا وقت الدرس، ولا يُباح للأساتذة أَن يقولوا كل شيء وبخاصة في الفلسفة والتاريخ.

وامتدت الرقابة إِلى المدارس الثانوية، وإِلى مناهج التعليم في المدارس الابتدائية حتى لا يستقر في نفوس الجيل الناشئ إِلَّا معاني الطاعة والولاء للقيصر وحكومته.

وكانت تُصادر الصحف في الشوارع أَو يمنع إِصدارها بِأَمر إِداري لسبب أَو لغير سبب حتى حار رجال الصحافة السياسية والأَدبية ماذا يكتبون وماذا يدعون.

ولم يكف الإِسكندر الثالث هذا الذي يفعل بالبلاد، فأَراد أَن يقضي على ما تم من إِصلاح في أَول عهد سالفه، وكأَنما استكثر على أُولئك الفلاحين الذين لا يزالون رقيقًا في صلتهم الاقتصادية بسادتهم، أَن يكونوا من حيث القانون أَحرارًا، فجعل لمالكي الأَرض سلطة الحكم بين من يعملون في أَملاكهم من الفلاحين، وهذا هو الاستعباد بعينه، أَو هذه هي المظار الإِقطاعية التي قضى عليها التحرير تعود ثانية للسادة، ولكنها اليوم على حد تعبير بعض الروس «تعود إِليهم سفاحًا».

وأَبلغ من ذلك في معنى الرجعية والعودة إِلى ليل نيقولا أَن امتدت يد الحكومة إِلى القضاء، فقد حل محل القضاة الذين كانت تختارهم مجالس المقاطعات مُوظفون لهم

سلطة القضاء والإدارة جميعًا حتى ليكونوا خصومًا للناس وقُضاة في وقت واحد، وكان يُسمى الواحد منهم «كابتن الأَرض»، وكان يختار هؤلاء حُكام المقاطعات ممن يثقون فيهم من الأَعيان، وكانوا في الأَكثر جهلة مُتغطرسين لا يدرون شيئًا عن إجراءات التحقيق الأُولى فضلًا عن القضاء والحُكم، على أَن أَسوأَ عيوب هؤلاء هو جمعهم بين القضاء والتنفيذ وليس لأَكثرهم نصفة القاضي ولا حنكة الحاكم، ولقد كان فصل الحكم عن القضاء مما ارتاح له الناس من إصلاحات الإسكندر الثاني كما سلف القول، ولشد ما بلغ استياء الناس من هؤلاء المتسلطين المتجبرين الذين امتد نفوذهم إلى كل جانب من حياة الفلاحين، والذين كان لهم أَن يلقوا بالناس في السجن من غير مُحاكمة، والذين لم يدعوا صورة من صور الإهانة دون أَن يلحقوها بالفلاحين، ولقد شقى بهم الفلاح الروسي حتى جهل الشقاء، وذل حتى نسي المذلة، ولقد طالما تألم حتى أشفق الألم، وصبر حتى جزع الصبر! وحسبك أن بعض هؤلاء الحاكمين في إحدى سنوات المجاعة في عهد نيقولا الثاني كانوا يمنعون العون ليظل الفلاحون قانعين بالقليل!

وتمادت الحكومة في التمكين للأوتوقراطية فلم يسلم من تدخلها حتى مجالس المقاطعات، وكانت هذه المجالس أَول تدريب للشعب على أَن يقوم على تدبير شؤونه بنفسه، وإليها يرجع الفضل في إنشاء المدارس الابتدائية في القرى وفتح المكتبات العامة والمستشفيات، وإنشاء كثير من الطُرق والعمل على تجنب أَسباب المجاعات.

وقد عملت الحكومة على أَن تحول بين المتحمسين للإصلاح وبين الدخول في تلك المجالس، كما أَنها كانت تعرقل أَعمالها، ثم أنقصت ما يسمح لها بجمعه من المال.

بهذا الذي ذكرنا ردت روسيا إلى الغسق، فلندعها تتلمس سبيلها إلى مطلع الفلق، لنعود إلى كاتبها الأَكبر فنرى كيف كان في تلك الأَثناء يتلمس هو كذلك مطلع النور فيما أَحاط به من ظُلمة.

# عشر سنوات...!

فرغ تولستوي من «أنا كارينينا» وفي نفسه ما فيها مما بينا من الأَلم، ثم كانت صدمة اليأَس التي أَذهلته والتي تركته في ظُلمات بعضها فوق بعض، ووجد الفلاة جوله مُوحشة، والمفازة عن جانبيه وعرة، والطريق أَمامه لا يدري أَقاصدة هي أَم غير قاصدة، وقد اعتزم المسير برغم ذلك لأَنه أَهون من الوقوف على حافة الهاوية.

ولكنه يدير وجهه عن الطريق قبل أَن يخطو خطوة، فهل كان ذلك فعل الخائف، أم فعل الحائر الذي لا يدري في حيرته ما يأخذ مما يدع؟

إِنه يريد أن يكتب قصة! فهل عاد يلوذ بالفن كما فعل إِذ كتب قصتيه الكبيرتين؟ هل آثر تلك الراحة على مخاوف المفازة؟

وقد عاد تولستوي إِلى موضوع الديسمبريين، وظل يقرأ ويبحث ويزور الأَماكن التي تعنيه كما كان يفعل قبيل «الحرب والسلام»، وبلغ من ذلك مبلغًا كبيرًا لا يشك معه المرء أَنه جعل للفن كل همه، وكان يريد أَن يشرح في قصته هذه قوة امتداد روسيا؛ أَي هجرة الفلاحين باختيارهم من روسيا والقوقاز إِلى جنوبي سيبريا والتركستان ووسط آسيا، وذلك بِأَن يصور أَحد المتآمرين المنفيين زعيمًا «لهذا الفتح القائم لا على الحرب والدماء، ولكن على ما وهب الفلاح الروسي من مقدرة زراعية».

وظل تولستوي حتى نوفمبر سنة ١٨٧٨، وهمه كله إِلى هذه القصة، وقد كتب لها افتتاحات أَكثر من عشر مرات ولكن لم يعجبه شيء.

على أَنه ما لبث أَن فطن إِلى أَنه يُخادع نفسه، وأَن ركونه إِلى هذه الراحة لن ينسيه عذبه ووحشة روحه، فإِلى المفازة وإِن اشتدت المخاوف واستبهم الطريق.

ولسوف يكدح كدحًا مُتصلًا عنيفًا حتى سنة ١٨٨٦، وقد جعل دبر أُذنيه تلك «الأُكذوبة الجميلة» كما عاد يُسمي الفن، وكانت هذه السنوات العشر الخالية من

الفن سنوات نشاطه الفكري.

***

أَصدر تولستوي في مدى خمس سنوات تنتهي في سنة ١٨٨١، أَربعة كُتب، أَولها «اعتراف» وقد أَتمه سنة ١٨٧٩ ولكنه لم يُتداول مخطوطًا إِلَّا سنة ١٨٨٢، وثانيها «نقد للدين القائم على النصوص»، ولم ينشر هذا إِلَّا بعد زمن ليس بالقصير، وثالثها «دراسة وموازنة بين الأناجيل الأربعة»، وقد كتبه سنة ١٨٨٠ ولم يُنشر كذلك إِلَّا فيما بعد، ولكن مُختصرًا منه تحت عنوان «الإِنجيل في غير إِسهاب» قد تداولته الأَيدي مخطوطًا، ورابعها «ما أَعتقد» وقد كتبه سنة ١٨٨٠ وصار تداوله كذلك مخطوطًا سنة ١٨٨٤.

أَكب تولستوي على هذا العمل الشاق في تحمس وإِخلاص كشأَنه في كل ما يتناوله من عمل، حتى بين في وضوح ماذا يفهم من العقيدة المسيحية غير مقيد برأَي من الآراء، وقال عن هذا العمل الذي عده أَعظم مجهود في حياته، وأَكثر ما عمل سرورًا لنفسه، إنه كان نقطة التحول في هذه الحياة، ثم كان فضلاً عن ذلك أَساس كل شيء كتبه فيما بعد.

أَما عن أَول هذه الكُتب الأَربعة فإِن كتابه «اعتراف» يُعد أَجمل ما كتب في غير الفن، وقد بيَّن فيه صورة رائعة بليغة مراحل اعتقاده وما عاناه من الشك مرات، وما أنس إِليه من اليقين مرات، حتى تبين له ما في العقيدة المسيحية من صدق وحق أدت إِلى غموضهما النصوص الجامدة والشروح الفاسدة، وعليه استجلاؤهما لنفسه ثم بيانهما للناس.

وإِن المرء ليقع في هذا الكتاب على صفحات رائعة، يظل لها في النفس ما تتركه كل عبقرية من أَثر، ومن أَمثلة ذلك ما كتبه عن اعتناق بعض الناس الدين شكلًا فحسب، وسلوكهم في الحياة مسلكًا يبعد عمّا يقضي به الدين كل البُعد، وما أَعلنه من شك فيما يُسمى الثقافة الحديثة بكل جوانبها، ثم ما انتهى إِليه من أَن الحياة إِذا

خلت من شيء تتعلق به النفس فقدت كل معنى، ولا بُد للمرء أَن يتعلق بقوة خفية مجهولة أَسمى منه كي يكون لوجوده معنى مفهوم! وما ذكره عن العقيدة المسيحية كما تصورها الكنيسة الأُورثوذكسية، ومبلغ ما فيها من قصور عن مطالب العقل والقلب، وهو كما ترى بحث مُمتع جريء يزيده قيمة صدوره عن مثل هذا الذهن العبقري، وانبعاثه من أَعماق نفس مُخلصة كل الإِخلاص في كل ما تحس أَو تقول، ولا بُد لمن يريد أَن يعرف تولستوي حق المعرفة أَن يقرأَ كتابه هذا قراءة تدبر وإِمعان.

وحمل تولستوي على عقيدة الكنيسة في كتابه الثاني حملة لا ينهض لها إِلَّا من كل له مثل شجاعته وحماسته في إِحقاق الحق، وطرق في جرأَة وفي غير اكتراث لشيء بابًا طالما تهيبه الكثيرون، وهو ما يريد الهدم في ذاته، وما كان إِلَّا الحق ما أَراد، وفي سبيل الحق يركب كل مركب صعب ويسلك كل سبيل وعر.

هاجم تولستوي عقيدة التثليث، وأَنكر ما جاء عن الجنة وإِخراج آدم منها، وما جاء عن الملائكة والشياطين، وما ذكر عن خلق الدنيا في ستة أَيام، وعن مولد المسيح من عذراء، وعن الصلب والبعث والتكفير عن الخطيئة الأُولى، وعن تعميد الأَطفال، وغير ذلك مما لا يستطيع أن يحمل على قبوله عقله ولا على الإِيمان به قلبه، وبخاصة قسمة الناس إِلى أشقياء وسعداء حسبما يعتقدون، وهو لا يعد ذلك كله باطلًا ونفاقًا فحسب، بل فسوقًا وكفرًا «بالروح المقدس» لا يغتفر في هذه الحياة ولا في الآخرة.

ولقد كره إِليه الكنيسة فضلًا عن هذه المعتقدات ما رآه في بعض رجالها من التمسك بخرافات هي من صميم الوثنية، وما يسطير على القساوسة جميعًا كبارهم وصغارهم من ميل إِلى الاستبداد، ورغبة في التمكين للحكم الأوتوقراطي في أُسرة رومانوف. فما من موقف من مواقف الاضطهاد والعنت إِلَّا كان لهم فيه نصيب، كي يُمكنوا لسطانهم أيضًا، وقد أخذت تهزه الروح الجديدة.

وكان كتابه الثالث: خلاصة دراسته المريرة الشاقة للأناجيل الأربعة، والمقابلة بينها، ولقد اتكأ تولستوي على نفسه وتعلم العبرية، وما زال حتى تفطن إِلى دقيق

معانيها، وبذلك قرأ الكتاب المقدس في لغته، وحاول أن يفهم كل عبارة كما ينطق به مدلولها غير مُتأثر بمعنى سالف، وأعانه ذهنه الجبار وصبره العجيب على الغوص إلى أَعماق المعاني، ثم قابل بين ما فهم هو وبين ما فهم كاتبوا الأَناجيل، ووقف على أَسباب الغموض فيما أَحس فيه الغموض، ووصل من ذلك إلى ما تاقت نفسه إليه زمنًا طويلًا أَلا وهو استجلاء العقيدة المسيحية في بساطتها والنفاذ إلى جوهرها غير مشْوب بما أَلقاه الجهل والغرض وسوء التخريج من إبهام واضطراب.

وقد خرج من هذه الدراسة العسيرة التي حملته رهقًا شديدًأ برأي استيقنه عقله وارتاحت إليه نفسه، وذلك أَن المسيحية على عكس ما جاءت به الكنيسة من اضطراب وتناقض، تفسير عميق بيّن للحياة يُوافق أَسمى ما تصبوا إليه النفس البشرية من مطالب.

رأَى تولستوي أَن المسيحية ليست كما صورتها الكنيسة مُجرد تعاليم سماوية كشفتها السماء للأَرض، ولكنها دين عملي يُمكن تحقيقه في كل زمان وفي كل مكان، وأَنه يُحقق لمن يتبعه الخلاص والسعادة لا في حياة أُخرى، ولكن في هذه الحياة فوق الأَرض.

وتقوم فكرة تولستوي على أَن الإِنسان إنما جاء من مصدر أزلي لا نهائي وهو ابن لهذا المصدر لا بجسده، ولكن بتلك الاستعدادات الروحية المغروسة فيه، وأَن حياته الصحيحة هي أَن يخدم ذلك المصدر اللانهائي للحياة في مظهره كما يتجلى في الإِنسانية، والحياة الحق هي الحياة المستقلة عن الزمن، ذلك الذي يصرفنا فيه تفكرنا في الماضي والمستقبل عن الحاضر الذي هو وحده الشيء الحقيقي، وواجب الإِنسان أَن يقضي في نفسه على خدعة الزمن، وأَن يتحد بحياة منبع الحياة، وذلك يكون بالحب، وهو المظهر الذي لا شك فيه لذلك المنبع.

ويوجب تولستوي أَن يرد كل شيء في فهم المسيحية إلى العقل، ولذلك فهو لا يُفسر ما جاء في الإِنجيل من أَنباء تفسيراً يخرج عن نطاق المعقولات فإِن ذلك مدعاة لعدم التصديق، وإِنما يُفسره كما يتمشى مع العقل، فالمراد بِأَن يبصر الأَعمى مثلًا أَن

يرى الجاحد الذي عميت بصيرته الحق فيُؤمن به ويهتدي وليس المراد عمى البصر، وقس على ذلك غيره مما تأَخذ الكنيسة بحرفيته فتخرج به عمّا يعقل.

وخلاصة ما يفهم تولستوي من المسحيية أَن «مملكة السماء» ليست مكانًا أعد للمؤمنين الذين نجاهم إيمانهم؛ ولكنها حال يُمكن أَن يُحققها على هذه الأَرض من يعيش وفق ما جاء به المسيح، وإِن المسيحية ترشده إِلى هذا الكمال إِرشادًا عمليًا مرده إِلى المعقول لا إِلى الخيال والوهم.

وفي كتابه الرابع «ما أَعتقد» لخص تولستوي غاية المسيحية تلخيصًا مُستمدًا مما فهمه من تعاليم المسيح في خمسة إِذا عمل بها المرء حقق بها مملكة السماء على الأَرض وهي: أَلا يغضب الإِنسان، وأَن يُعاشر الناس جميعًا بالحُسنى، وألا يقرب الزنا، وألا يقسم قط، ومعنى ذلك ألا يُؤدي يمينًا بإِطاعة أية حكومة وأَن يُحافظ على حرية عقله وضميره، وألا يُقاوم الشر بالعنف، وألا يلجأ إِلى الخصومة والتقاضي ويطلب سلطة القانون، ويجعل فرقًا بين الناس بسبب قوميتهم؛ لأَن عليه أَن يحب الأَجانب كما يحب بني قومه.

ويرى تولستوي أَن الكنيسة بعيدة كل البُعد عن روح المسيحية، وذلك أَنها تلقي في روع الناس أَن خلاصهم في أَن يكونوا مسيحيين وفق تعاليمها فحسب، وإِن لم يفعلوا شيئًا يسير بهم صوب الكمال الذي تنشده تعاليم المسيح والتي تُؤدي إِليه، وحتى وإِن لم يحبوا الله فالكنيسة هي التي تتولى عنهم خلاصهم، وأَدهى من ذلك أنها تنكر أن يعتمد الناس على عقولهم في تفهم دينهم، مع أَن الاعتماد على العقل هو ما تدعو إِليه المسيحية كما يتبين من طبيعتها.

هذه الكُتب الأَربعة هي فلسفة تولستوي الدينية، وهي فيما أَنتجه العقل البشري في مجال الفكر بعض كنوزه الغالية، ولقد استغرقت كتابتها كما ذكرنا خمس سنوات، وليس بعجيب أَن يرى عمله فيها أَعظم مجهود بذله في حياته، وأَن يستعذب هذا المجهود على ما كان يجد فيه من مشقة وعناء.

وإن الإنسان ليمتلكه العجب من هذا الدأب سنوات خمس على دراسة كهذه تتطلب من الجلد والقوة وعظيم الهمة ما ينوء به أُولو العزم من الرجال، ولكن ذلك بعض ما يمتاز به العباقرة عن بقية الناس.

ولقد كان تولستوي يستحب هذا الدأب المضني لأَنه كأَصحاب الرسالات الكُبرى يُؤدي به رسالته، وها هو ذا الآن يستروح نسيمًا مُنعشًا ولو قليلًا بعد سيره الطويل، ويركن إلى قبس أَخرجه بعض الشيء من حيرته، فللحياة معنى به تستحق أن نعيشها: هو ذلك الذي يتجلى في رسالة المسيحية كما فهمها، وما عليه الآن إلَّا أَن يُبشر بهذه الرسالة التي جلاها ليكون للناس فيها الهدى، فما تستريح نفسه الراحة كلها إلَّا إذا أَضاء هذا القبس في ظلمات النفوس، وإلَّا فما جدوى عنائه وطول بلائه؟ والحق لقد كان تولستوي أَشد حرصًا على أَن يقف الناس على آرائه في الدين والحياة، منه على أَن يعنوا بآثاره الفنية. قال بعد ذلك بأَربعة عشر عامًا: «إذا قدر يومًا أَن يشغل الناس أنفسهم بكتاباتي، فدعهم يركنون إلى تلك الفصول التي أعرف أَني كنت فيها لسان (القوة المقدسة)، ودعهم يفيدون منها في حياتهم، لقد مرت بي أَوقات كنت أَشعر فيها أَني أداة لتلك (القوة المقدسة)، ولقد طالما كنت غير طاهر تملأني رغباتي الشخصية، وعلى ذلك فإن ظُلمة نفسي كانت تطفئ ذلك النور، ولكني في بعض الأَوقات كنت أَحس أَن الحق يمر من خلالي وكانت تلك الأَوقات أَسعد سويعات حياتي».

ولا يسع الإنسان بعد ما عرفه من سابق عذابه وحيرته وظُلمة نفسه إلَّا أَن يرد هذه السويعات السعيدة إلى تلك السنوات الخمس التي كتب فيها كتبه الأربعة الخوالد.

ولكن هل أجاب في كُتبه عن كل ما كان يلح عليه من أَسئلة؟ هل استراحت نفسه كل الراحة؟ كلا.. فما عرف تولستوي من أَين أتى ولا إلى أين يذهب، ما عرف من أَمر الحياة ولا من أَمر الموت ما أَراد أَن يعرف، وهل عرف ذلك أَحد قبله؟ حسبه اليوم أَنه وجد للعيش معنى، وهو أَنه بات يحس أَنه يخدم الله بعمله على أَن يكون الناس في الأَرض جميعًا إخوة مُتحابين في حب الله، وإنه ليمتلئ نشوة وغبطة إذ

يشعر اليوم أنه أَخ لكل إِنسان، وأَنه يريد أَن يبصر الهدى كل إِنسان.

أَما الحياة فستظل سرًا، وسيظل مُجاهدًا طوال السنوات الثلاثين الباقية من عمره في سبيل معرفة هذا السر، ولكن تلك السنوات سوف تنطوي وذلك السر باقٍ على غموضه وسيغمض تولستوي عينيه غمضتها الأَخيرة ولم يدر عن هذا السر الذي حيره وأَضناه شيئا ولو ضئيلًا.

***

صرفنا حديث كتبه في هذه السنوات الخمس عمّا كان يحيط به من شؤون الحياة في تلك الحقبة، فلنعد إِلى حديث حياته فيها وفيما أَعقبها من سنين حتى عودته إِلى الفن.

وليس من جديد عن أُسرته إِلَّا أَنه وُلِدَ له غُلامان: أَندرو في سنة ١٨٧٧، وميكائيل في سنة ١٨٧٩.

وكثر في قصره المعلمون والمربيات، فكلن يعلم أَكبر أَبنائه ست لغات، منها الإِنجليزية والفرنسية والأَلمانية، وكان يعيش أَبناؤه وبناته عيشة الترف على الرغم من عزوفه هو عن ذلك، فكانوا يظهرون أَبدًا في مظهر فخم يحيط بهم الخدم أَينما ذهبوا، ويتعهدهم المعلمون والمربيات بكل ما يرقي عقولهم ويُهذب أَذواقهم، وكان يحول أَبوهم على تواضعه وخشوعه بينهم وبين مُخالطة أَبناء الفلاحين إِلَّا بقدر تحت رقابة المربيات، وكان ينفق تولستوي على تربيتهم عن سعة، فله من المال اليوم أَكثر مما كان له بالأَمس، وذلك لما درته عليه كتبه منه، وما درته ضياعه الجديدة في سمارا، وإِن كان انصرافه عن شؤون ضياعه يخيف زوجته لأَن عاقبة ذلك في نظرها تناقص ثروته.

***

أَحس تولستوي في ربيع سنة ١٨٧٨ رغبة في نفسه ليصلح بينه وبين ترجنيف فكتب إِليه يقول:

«إيفان سيرجوفتش، بعد أَن نظرت مليًا فيما أَشعر به نحوك أَراني واثقًا من أَني لست أَحمل لك ضغنًا ما، وأَرجو من الله أَن يكون ذلك هو شعورك نحوي، مد إِليّ يدك ودعنا ننسى الماضي، وإِني لأَعلم حق العلم أَنك أَريتني مودتك ذات مرة، ثم إِني أَشكرك على ما كسبت من صيت في دنيا الأَدب، وأَرجو أَنك في أَعماق قلبك لا زلت تحمل لي ولو قليلًا من الحب، وإِني إِذ أقدم لك اليوم أَخلص مودتي ليسعدني أَن يزول ما دب بيننا من سوء التفاهم».

ورد عليه ترجنيف بقوله:

«شد ما سرني كتابك وشد ما أثر في نفسي، وإِن سعادتي باستئنافنا مودتنا أَكبر من أَن تُوصف، وإِني لأَهز في حرارة اليد التي تبسطها إِليّ، وإِنك على حق إِذ تظن أَنه ليس في قلبي موجدة عليك، وإِذا كنت أَحسست شيئًا من ذلك فقد ذهب من زمن بعيد، ولستُ أذكر إِلَّا الرجل الذي اشتد تعلقي به، والذي استطعت أَن أُصفق لخطواته الأُولى قبل غيري، والذي يبعث في نفسي كل كتاب جديد له أَعظم المتعة، وإِنه ليبهجني أَن ما كان بيننا من سوء الفهم قد زال، أَرجو أَن أَذهب إِلى إِقليم أوريل هذا الصيف، وهُناك نستطيع أَن نتزاور بلا ريب، وإِلى أَن أَراك أَتمنى لك كل خير، وأصافح يدك في إِخلاص».

وتجددت الصلة بينهما وتزاورا، ولقيت الكونتس من مودة ترجنيف ومن ثنائه عليها ما حببه إِلى نفسها، ولكن الورد بينما لم يبلغ ما بلغه في كتابيهما، وقد وجدا أَن صلتهما لا تزال تقف عند حد لا يُمكن أَن تجوزه، وتبين ذلك فيما راح ينتقد به ترجنيف في المجتمعات الأَدبية نظرة تولستوي إِلى الحياة، وفيما قاله تولستوي لصديقه فت عن ترجنيف من انه لا يزال كما هو شخصًا لا يُؤلف ولا يُساغ.

وأَما دستويفسكي فلم تتم بينه وبين تولستوي صلة شخصية، بل لم يلتقيا قط، وكان يستطيع أَن يرى كلاهما الآخر في احتفال أَدبي عظيم أُقيم بموسكو في مايو سنة ١٨٨٥ لإِزاحة الستار عن تمثال شاعر روسيا الأَكبر بوشكين، وقد احتشد رجال

الفكر والقلم في هذا الاحتفال الفذ، وتوقعوا أَن يروا تولستوي وقد أَوفدوا إِليه ترجنيف يدعوه، ولكنه كان في شغل عن الدنيا كلها بما كان يكتب من آرائه التي احتوتها كُتبه الأَربعة، فاعتذر ولم يذهب.

وكان دستويفسكي يومئذ في ذروة مجده الأَدبي، ذهب له من الصيت في روسيا وفي أُوروبا ما لم يفقه إِلَّا صيت تولستوي وحده، وظهرت مكانته في الناس ذات ليلة إِذ كان يلقى مُحاضرة في جمعية مُحِبي الأَدب الروسي في أسبوع بوشكين، فإِنه ما كاد يتم كلمته حتى وثب الناس مصفقين له هاتفين باسمه، واحتشدوا حوله وقد تقدم ترجنيف فعانقه والدموع في عينيه، وبلغ من تحمس الشباب له أَن ارتمى أَحدهم على قدميه، بينما راح عدد منهم يتزاحمون ليصافحوه فوق المنصة، وإِن كثيرين منهم ومن الرجال لتدمع مآقيهم من فرط تأَثرهم.

ولم يعش دستويفسكي طويلًا بعد ذلك فمات في نفس السنة دون أَن يرى تولستوي، وكان يرغب في زيارته قبيل أسبوع بوشكين، ولكنه علم من أَنبائه على لسان جريجوروفتش أنه فقد عقله، وأَنه يعيش في ياسنايا عيشة المخبول كما يُؤكد ترجنيف!

ولقد كان تولستوي يُقدر فن دستويفسكي حق قدره، كتب في صيف سنة ١٨٨٠ إلى صديق لهما يقول: «لقد مستني وعكة مُنذ قليل فقضيت هذا الفراغ الحتمي قضاءً مُمتعًا وذلك بقراءة «بيت الموتى»، ومع أَني قرأَتها من قبل فقد كنت نسيت كثيرًا منها، ولستُ أَعرف في الأَدب الحديث أَجمل منها لا أَستثني بوشكين نفسه، وليس أسلوبها ما راعني، ولكن تلك النزعة العجيبة في صدقها وفي طبيعتها ومسيحيتها، إِنه كتاب يسمو بالنفس حقًا، ولقد أَتاحت لي قراءته من المتعة ما لم أَحظ بمثله مُنذ وقت طويل، إِذا لقيت دستويفسكي فبلغه محبتي».

ولما مات دستويفسكي قال تولستوي: «مع أَني لم أَر دستويفسكي قط، ولم تكن بيني وبينه أَية صلة، فإِني أَشعر وقد طواه الموت أَنه كان أَقرب إِليّ وأَعز عندي وأَعظم

شأنا من أي رجل سواه، ولم تُحدثني نفسي قط بمُنافسته، ولقد بلغ كل ما كتبه من الجودة والإخلاص حدًا جعله مبعث سرور لي أبدًا، ولو أني خليق بأن أنفس على رجل ما عقله ومقدرته، إلَّا أن ما ينبعث من القلب لا يترك في نفسي إلَّا الغبطة، ولقد كنت أَذكر دستويفسكي أبدًا كما أَذكر صديقًا، وأملت أن أراه يومًا ما، ولكن ذلك لم يكن».

***

اطمأن تولستوي إلى دينه الجديد، وهو المسيحية كما يفهمها، ووثق من أن «مملكة السماء» تتحقق على الأَرض باتباع هذا الدين، وإن نفسه لا تفتأ تُحدثه اليوم أن غايته في هذه الحياة أن يُبشر بهذا الدين، وألا يقر له قرار حتى يضيء قبسه في ظلام النفوس، فإذا العالم غير العالم والناس غير الناس.

إن قوام مسيحيته الجديدة ألا يدفع الشر بالشر، فللعفو خير وأبقى، وبه وحده تستل السخائم من الصدور، ولو دفع كل إنسان السيئة بالتي هي أحسن لما كان للشر من قرار.

فليُجاهد تولستوي في سبيل دينه.. ذلك ما جمع عليه عزمه، ولسوف يمضي في سبيله مهما صادفه من عنت حتى يظهر الله دينه فيموت وقد ترك للإنسانية الرباط الذي يُؤلف بين الناس في الشرق والغرب.

وها هو ذا القيصر الشاب الإسكندر الثالث بسبيل أن يُنفذ حكم القتل في خمسة بينهم امرأة، هم الذين تآمروا حتى قتلوا أباه، فهل يقف تولستوي مكتوف اليدين، معقول اللسان؟ وإذًا فأين إخلاصه لدينه، وإيمانه به؟ أيتهيب مقام القيصرب؟ كلا، فما هو بهياب وهو من إذا امتلأ نفسه بشيء لن يثنيه عنه خوف ولو كان الموت.

أنكر تولستوي الجريمة، ولكنه يكره العقاب، ويطلب العفو، ويطمع أن يصدر العفو من القيصر عن جريمة مثل هذه، فيكون لفعله من عظيم الأثر في روسيا كلها ما

لا يكون لآلاف الأَفعال غيره، وتسلطت عليه هذه الفكرة، فتناول قلمه وكتب للقيصر كتابًا طويلًا صريحًا «من رجل لرجل» على حد قوله يسأله فيه أن يعفو عن قتله أَبيه، ويقول له إنه لا شدة الأوتوقراطية، ولا مُسايرة الآراء الحرة بعض الشيء، قد أَفلحا في وقف الحركة الثورية، وإن مما يُؤدي إلى ارتباك النهلست العفو عن هؤلاء القتلة، وأَن أَباه لم يقتله أَعداء لشخصه، وإنما قتله أَعداء للنظام القائم، وما قتلوه إلَّا لأَنهم ظنوا أَنهم يُؤدون صنيعًا للجنس البشري. وأَرسل الكتاب إلى بوبيد نستسوف رئيس المجمع المقدس ليحمله إلى القيصر، وكان هذا الرجل من أَسناد الأوتوقراطية وممن عملوا في مهارة وكثير من المكر على مقاومة الآراء الجديدة من وراء عرش القيصر السالف، ولكنه كان يتظاهر بالعطف على الأُدباء ليأمنوا مكره.

وكان مما قاله تولستوي في كتابه، بعد أَن نصح للقيصر أَلا يصغى إلى لغو حاشيته، وأَلا يُجاريهم فيما تنزع إليه نفوسهم من حب الانتقام «أكتب أنا، العاجز، العديم القدر، المجهول المقام؛ لأَنصح لإمبراطور روسيا ماذا يصنع.. وإِني لأَشعر بما في عملي هذا من غرابة ومن بُعد عن اللياقة ومن جرأَة، ولكني مع ذلك أَكتب.. وأَنا أَكتب من منعزل في القرية، وسوف لا تجد في كتابي تلك النغمة المعتادة في الكُتب التي تُرفع إلى إمبراطور، ولا ذلك الزخرف، ولا تلك البلاغة الباطلة التي تبهم الشعور والفكر، ولكني أَكتب إليه كما يكتب رجل لرجل، فإن احترامي الصادق إياك رجلًا وقيصرًا إنما يكون أَكثر وضوحًا بغير هذا البهرج. اعفُ عنهم، وقابل الشر بالخير تجد قلوب الملايين وقد امتلأَت فرحًا بهذا المثل الطيب يتنزل عليهم من عرش في ساعة تحيط الرهبة فيها بابن لأَب قتيل.. أَيها الملك! إنك إن فعلت هذا، أَجل، إنك إن جئت بأُولئك وأَعطيتهم المال وأَرسلتهم إلى بعض جهات أَمريكا، وأَذع بيانًا تبدأه بهذه الكلمات، وإِني أَقول لكم أَحبوا أَعداءكم.. عندئذ لست أدري ما عسى أَن يكون شعور الآخرين، ولكني أَنا الضئيل العاجز سوف أَغدو كلبك وعبدك.. كلمة عفو واحدة مصحوبة بالحب المسيحي ينبعث من أَعلى العرش، ثم طريق الحُكم على أَساس المسيحية الصحيحة وهو منبسط أَمامك لتخطو فيه.. ذلك وحده ما يقضي

على ما تتعذب به روسيا اليوم من شرور، ولسوف تذوب الثورات كما يذوب الشمع في النار، أمام القيصر وأمام الرجل الذي يقضي بقانون المسيح».

وعلق رئيس المجمع الكتاب عنده حتى نفذ القتل في الجانين، ثم رده إلى تولستوي راجيًا منه ألّا يعزو عمله إلى غلطة أو إلى عدم اكتراث له، وإنما مرده إلى ما أحاط به في تلك الظروف مما حير عقله وأذهله عن كثير من الشوؤن، وإلى «أن عقيدة تولستوي شيء، وعقيدته هو وعقيدة الكنيسة شيء آخر».

ويُقال إن الكتاب بلغ القيصر من طريق آخر، وأنه أرسل إلى تولستوي من يقول له: إنه كان يعفو عن الجناة لو أنهم أرادوه هو بجرمهم، أما وقد قتلوا أباه فهو لا يملك أن يعفو عنهم.

***

لن يدع تولستوي الكفاح حتى يعلم الناس دينه، وسبيله أن يدعو إليه الناس بالحكمة، وكانت كُتبه وسائل دعوته هذه، وقد فرغ من كتابتها حتى سنة ١٨٨٥ كما أسلفنا، وأودع فيها آراءه، وهي خلاصة دراسة مضنية عنيفة، وما خط فيها سطرًا أو عبارة لم يؤمن بها أو يفهمها حق الفهم ليبينها للناس، حتى لقد صار لهذه الكُتب في الآثار الفكرية مقام قصصه في الآثار الفني؛، فهي ومضات ذهن عبقري متوقد، ونبضات قلب مُخلص مُمتلئ بالإيمان.

ولكن الرقيب يمنع كُتبه من النشر، فإذا تداولها الناس مخطوطة، وعنوا أنفسهم بنسخها، صودرت أينما وجدت، وحوصرت كما يُحاصر الوباء، وتعقب الشرطة أصحابها بالتجسس، وألحوا عليهم بالتخويف والإنذار، الأمر الذي يضيق به صدر تولستوي ضيقًا شديدًا، والذي يكره إليه روسيا والحياة فيها، ولكنه يعود فيصبر، بل إنه ليطيب نفسًا بما يسمع من إقبال الناس على تداول كُتبه سرًا، وإمعانهم في ذلك كلما أمعن الشرطة في تعقبهم وإعناتهم.

ولولا أن كانت له تلك المكانة الأدبية التي لم ينل مثلها أحد قبله في قومه، ولولا

شجاعته واعتزازه بهذا المقام العظيم، واستنكافه أَن يخفض جناحه أَو يغض من صوته، لناله من أَذى الحكومة ما كنا ينال غيره من النفي أَو السجن أَو غيرهما من صور العذاب.

ولقد كانت روسيا يومئذ تُعاني من تعسف الحكومة ما لم تشهد مثله إِلَّا في عهد نيقولا، فالشرطة يروعون البيوت الآمنة، ويتعقبون كل من تحدثهم أَنفسهم بأنه من الثائرين، حتى الفتيات والنساء فلم يسلمن من التجسس الشديد، ومما يدعو إِلى الضحك أَن الشرطة قد اعتقلوا ذات مرة إِحدى السيدات إِذ وجدوها تضع منظارًا على أَنفها، فهذا المنظار عندهم علامة على جمعية سرية هي من أَفرادها!

وكان بوبيد نستسوف رئيس المجمع المقدس ورجاله يعينون الحكومة ما وسعهم العون، وكان هذا الرجل على جانب كبير من الدهاء، وكان همه أَن يبيد الجماعات الثائرة، وأَن يقضي على كل نزعة مُتطرفة بكل ما يسعه من الوسائل القهرية والسلمية، وإِنه لواثق من بلوغ غايته وهي أَن يُمكن ثانية في روسيا للحكومة الأوتوقراطية والكنيسة الأورثوذكسية.

***

ماذا يصنع المصلح الديني المتحمس لدينه، في وضع كهذا وليس يملك إِلَّا لسانه وقلمه؟ لقد بث في كُتبه الأربعة كل ما أَراد أَن يقول، ولقد جاءت تلك الكُتب وفيها من تولستوي خصائصه مُؤلفًا في أَكمل مظاهرها وأَروعها، وفي مقدمتها عمق نظرته وشمولها، ومقدرته الفائقة على تبيين ما يريد تبيينه حتى ليقوم منه في ذهن القارئ ما يقوم في ذهنه هولًا تعلق به أَية شائبة من غموض، على الرغم من دقة ما يعرض، ومن صعوبة ما يطلب، فليدع كُتبه تحدث أَثرها في الناس مع الزمن وليرتقب ما يكون من أمر هذا الدين الجديد.

ولكن ماذا يعمل وقد هجر الفن، وكتب ما كتب في الدين؟ أَيعود إِلى أَعمال الزراعة فيربي الخيل والأَبقار والخنازير ويبني خلايا النحل؟ ذلك ما لا يلتفت إِليه اليوم

على الرغم من ثورة زوجته لما ترى من إهمال في ضياعه ينر بنقص كبير فيما تأتى به من مال، ولقد أَخذت تحس هذا النقص فعلًا، وهل يعني تولستوي اليوم شيء من هذا؟ إنه بسبيل أَمر جديد بات يشغل باله وهو في طبيعته يحمل من يُعنى به على النفور من الثراء والترف بل والعمل على نفض اليدين منه! إنه بات يُفكر في حال الفقراء، وقد رأَى من ذلك ما هاله وهز قلبه هزًا شديدًا، وكأَنه لم يعلمه من قبل.

والحق إن انصراف تولستوي إلى الفن، وإلى الفن في ذاته في القسم الأَول من حياته حتى قارب الخمسين قد شغله عن التفلسف والبحث، فما كان يعنيه إلَّا أَن يصف ما يرى ليتخذ منه مادة لقصصه، أَما ا ستقصاء العلل والنظر فيما يجب عمله فما كان من فنه في شيء.

رحل تولستوي وأُسرته جميعًا إلى موسكو في شتاء سنة ١٨٨١ ليلتحق سيرجي بالجامعة، ولتتاح لتانيا البيئة التي تكمل فيها تربيتها.

وفي موسكو كان يقع تولستوي من صور البؤس والشقاء على كثير مما بات يزعجه ويُؤلمه، وقد تغيرت نظرته إلى الأَشياء والناس، فلم تعد كما كانت قبل أُمورًا طبيعية يتخذها مادة لفنه، وإنما صارت بواعث على التفكر فيما عسى أَن يصنع للقضاء على الشر، وتمهيد السبيل لما يبشر به من خير.

تغيرت نظرة تولستوي فكأَنما يرى مظاهر البؤس الإنساني لأَول مرة، وتغير أُسلوب تعبيره، فهو لا يُصور لنا اليوم في قصة يتخيلها أَشخاصًا بائسين كما كان عسيًا أَن يفعل بالأَمس وإنما يأَتي لنا بمعنى من المعاني الفكرية، فيتحدث عن الحكومة والناس مثلًا بقوله: «مجرمون تحالفوا فيما بينهم، وسرقوا الناس، وجمعوا الجند والقضاة ليحموا انتهابهم وعربدتهم، وما يملك الناس إلَّا أَن ينتهزوا سُكر هؤلاء ليستعيدوا منهم ما سرقوه».

وإنه ليعني نفسه من أَجل الناس، ويبلغ في ذلك مبلغًا تصفه زوجته في قولها «لم يكن ليو حزينًا فحسب، ولكنه زلزل زلزالًا تامًا، وإنه لا ينام ولا يأَكل، وإنه ليذرف الدمع أَحيانًا».

ونحس كذلك عناءه في قوله: «عندما تقع عيناي على مظاهر الجوع والبرد، وانحطاط الآلاف من البشر في موسكو، أَحس لا بقلبي ولا بعقلي، بل بكياني كله، أَن وجود هؤلاء الآلاف في موسكو بينما أَجدني وآلافًا غيري نأكل ما لذ وطاب، ونتخذ ما شئنا من الأَثاث والرياش، إنما هو جريمة لا تُرتكب مرة واحدة فحسب، ولكنها مُستمرة».

ويمضي تولستوي سنة ١٨٨٢ في الطرقات، إلى أَطراف المدينة مع القائمين يومئذ بالتعداد، فإن له في ذلك فرصة، وقد تطوع في هذا العمل، وجاس خلال الأَزقة، يرى بعينيه ويحس بقلبه، ليكتب كتابًا جديدًا، لا هو بقصة ولا هو ببحث ديني، وإنما هو كتاب في أُمور اجتماعية جعل عنوانه «ماذا يجب إذًا أَن نصنع؟».

ويكتب تولستوي هذا الكتاب القيم المتين فإذا به ككتبه الدينية، وضوحًا وشمولًا وعمق فكرة ونفاذًا إلى عقل القارئ وقلبه، وإذا المصلح الديني يخلع مسوح الراهب، ويلبس عباءة المحامي فيُدافع عن الذين ظلموا من رجال المجتمع ونسائه وأَطفاله، دفاعًا ليس مرده إلى العاطفة، بحيث يُحرك القلب ساعة ثم يطويه النسيان، وإنما مرده قبل ذلك إلى العقل والواقع المحسوس بحيث يدعك تُفكر طويلًا، ثم إذا بك تعني نفسك بما عني به نفسه الكاتب العظيم.

ولئن كانت كُتبه الدينية الأَربعة مُقدمة لكفاح طويل في سبيل الحقيقة سوف يجعل تولستوي أَقوى من خوف الكنيسة، وزعزع بنيانها في روسيا حتى ليصبح مقامه في هذا مقام لوثر وكلفن في أُوروبا، فإن كتابه «ماذا يجب إذًا أَن نصنع؟» كان فاتحة صراع عنيف في سبيل العدالة الاجتماعية سوف يغدو به تولستوي أَقوى خصم للدولة، وللوضع الاجتماعي القائم، ولسوف يكون للناس عجبًا أَن تجيء هذه الخصومة العنيفة، وهذا اللدد المصمم من رجل عرفوه أَول ما عرفوه فنانًا، والحق أَنه ما من رجل في روسيا بلغت آراؤه الاجتماعية من الهدم ما بلغته آراء ذلك الذي يُعد أَعظم بنَّاء في فن قومه، وإنه بهذا ليشبه فولتير وإن لم يصطنع أُسلوبه الساخر، وحسبه من الهدم قوته في إبراز المعايب ومقدرته التي لا تباري في الإقناع، ثم شجاعته

ودأبه وصبره وطاقته على حمل العبء، وعزمه المصمم الذي لا يعرف التخاذل، وما ذهب له من صيت جعل اسمه في روسيا على كل لسان.

لا يسأَل اليوم تولستوي نفسه ما معنى حياتي وما الغرض منها، وإنما يسأَل نفسه ما خطأَي في حياتي وما خطأ الناس؟ وإلى أَي مدى تقرب حياتي وحياة الناس أَو تبعد من المسيحية في جوهرها؛ أَي في صورتها كما أَتصورها؟ وذلك أَن تولستوي يجعل اليوم كل إِصلاح على أَساس من مسيحيته الجديدة، حتى الفن فلسوف يصطبغ بهذه الصبغة متى عاد إِليه، ولسوف يجعله وسيلة إِلى السمو بالنفس لتبلغ ذلك الكمال الذي يتصور أَن المسيحية تدعو إِليه.

ويكثر تولستوي اليوم من الاتصال بالفقراء، وقد أَخفى شخصيته كيلا يعرفه أَحد، ويظل ينتقل من مكان إِلى مكان يتحدث إِلى هذا أَو يستوقف ذاك، أَو يجلس معهم على مقربة من مصانعهم حيث يأكلون طعامهم، وفي مقاهيهم المتواضعة، يرى ماذا يشربون، وكيف يتحدثون! إنه يريد أَن يعرف كيف يعيشون وما مبلغ رضائهم عن حياتهم، وذلك ليفهم المسأَلة حق الفهم، فما يحب أَن يكتب شيئًا إِلَّا إِذا كان صورة واضحة للواقع.

وكانت صور البؤس في موسكو مُخيفة تملأ جنانه رعبًا، وكيف يطيق أَن يرى الأَطفال ينبشون القمامة كما تفعل الكلاب والقطط، أَو يقعون على مزجر من الموائد ليرمي إِليهم الطاعمون بشيء كما تُرمى العظام للكلاب؟ وكيف يطيق أَن يراهم نائمين في الطرقات أَو في زوايا المباني، وكيف يصبر إذ يرى السائلين والسائلات يمدون أَيديهم الهزيلة وأَيديهن للمارة في ضراعة ومسكنة؟ وأَفظع من هذا تلك البيوت التي تُعرض فيها لحوم البشر رخيصة لكل من أَراد أَن يقضي وطره؟ أف لها! إنما هنا أَقبح البؤس وأَعظمه.. وهو لا يرى مثل هذا جميعًا في القرية، فلئن وجدت هُناك الفاقة فمعها العمل والحياء، حيث يعرف الناس بعضهم بعضًا.. ثم إن البؤس في المدينة كما تُحدثه نفسه وليد هذه المدنية الحديثة، وليد الحضارة المادية.

بدأ تولستوي كتابه سنة ١٨٨٢، ولم يتممه إلَّا سنة ١٨٨٦، ولكن ما ذكره فيه من آراء كان قائمًا في رأسه مُنذ أَخذ يكتبه.

تفكر تولستوي أَول الأَمر في الصدقة ومُساعدة الفقراء كما تقضي المسيحية، ولكنه ما لبث أَن رأَى أَن الصدقة ليست في أَن تعطي الفقير قروشًا ثم تدعه في فقره، إنما الصدقة الحق أَن تنشئ للقادرين عملًا، وأَن تعينهم حتى يغنيهم عن السؤال عملهم.

وعند تولستوي أَن من هم في حاجة إلى المعونة هم الذين حطهم الدهر فاستنكفوا أَن يعملوا، والنساء اللائي أُكرهن على البغاء ليعشن، وغلمان الشارع وبناته ممن لا عائل لهم ولا لهن.

ومرد شقاء هؤلاء جميعًا إلى خطأ استولى على مشاعر الناس هو كراهة العمل الذي فيه سرورهم ورزقهم، فليس في الناس إلَّا من يحب البطالة، ومن يُؤثرها على العمل، وما يعمل الناس إلَّا مُضطرين، وما ضمن إنسان رزقه وعمل أَبدًا؛ لأَن المستقر في وهم الناس أَن العمل ضعة ومذلة، وبخاصة الأَعمال البدنية.

وطالما تتمتع طائفة من المجتمع بالثروة وخيرات الحياة، ثم تقضي الوقت في لعب ولهو، وذلك بأَن تشقى طائفة أُخرى وتكدح، فلا أَمل في أَن يحترم الناس العمل، أَو ينظروا إليه إلَّا على أَنه وسيلة المحتاجين.

وما أَصل الداء؟ أَجل.. ما سبب هذا الشر؟ ذلك ما يسأَل عنه تولستوي نفسه مليًا، أَما الجواب فهو ذلك الرأي الخطير الذي تعلق به بعد طول النظر، فما غير امتلاك المال كان أَصل للبلاء ومنبعًا للشر جميعًا!

«إني أجلس على ظهر رجل فأقطع أَنفاسه، وأكرهه على أَن يحملني، ومع ذلك فإني أُوكئد لنفسي وللناس أَني أشفق عليه وأَني آسَف له جد الأَسف، وأَني أود أن أُخفف عنه وعن طائفته بكل وسيلة إلَّا أن أَنزل عن ظهره».

وهل تعوز تولستوي بلاغة التعبير إذ اهتم بإبراز معنى من المعاني؟ اقرأ له كذلك

قوله: «ما الملكية إلَّا استلاب فريق من الناس جهود فريق آخر، وعلى ذلك فهي أَصل الشر جميعًا».. ثم اقرأ له قوله: «لكيلا أخلق الآلام لغيري أَو أُسبب الرذيلة، يجب علي أَن أَستهلك أَقل ما يُمكنني مما عمل الناس، وأَن أعمل بنفسي أَكثر ما في وسعي أَن أعمل».

وهو لا يفتأ يبدي ويعيد ليزيد هذا المعنى بيانًا. فهو يقول: «إِن الملكية اليوم هي أَصل الشر كله، فإنها هي التي تُسبب الآلام لمن يمتلكون ومن لا يمتلكون، ولا يُمكن أن يُتلافى التصادم بين من يعيشون في سعة ومن يعيشون في فاقة».

ويقول في نفس المعنى: «يقوم أَبدًا بيننا نحن الأَغنياء وبين الفقراء جدار من التعليم الباطل، ولن نستطيع أَن نعين الفقراء حتى نهدم هذا الجدار، لقد ساقني التفكير إِلى نتيجة هي أَن ثراءنا هو السبب الحقيقي لشقاء عامة الناس».

وقال في معرض آخر: «إِن الدول والحكومات تلجأَ إِلى الدسائس والحرب من أَجل الامتلاك.. وإِن رجال المصارف، والتُجار، والصُناع، وصاحبو الأَرض الزراعية، يدأَبون على تعذيب أَنفسهم وتعذيب غيرهم في سبيل الامتلاك فحسب، ويتحارب أَصحاب الوظائف، ويدلسون ويتعذبون من أَجل الامتلاك وحده، وتحمي محاكمنا وشرطتنا الملكية، وتقوم مُستعمراتنا المخصصة للنفي، وسجوننا، وتلك الفظائع التي يُسمونها القضاء على الجرائم، من أَجل شيء واحد، هو حماية الملكية».

وأَوقع في النفس من ذلك قوله: «طالما يقوم في مجتمع ما إِجبار رجل رجلًا غيره على العمل له، فإِن معنى المال على أَنه وسيلة للتبادل ينتهي، ويحل محله معناه على أَنه أَصلح وسيلة لاستلاب جهود الغير، وأَي اسم غير العبودية يُمكن أَن نطلقه على هذا الاستلاب؟ إِن استبعاد أَي رجل إِنما يقوم على أَن غيره يستطيع أَن يخضعه لمشيئته. فإِذا أعطى رجل ثمرة جهده لغيره، وليس يملك إِلَّا قليلًا مما يمسك به صلبه، ودفع أَولاده ليعملوا بأَيديهم عملًا شاقًا، وترك الأَرض ليقضي حياته في عمل بغيض لا يريد أَن يُؤديه، كما يحدث تحت أَعيننا في عالمنا هذا الذي نُسميه مُثقفًا لأَننا نعيش

فيه فحسب، فإننا نقول في يُسر إن ذلك الرجل يفعل ذلك لا لشيء، إلَّا لأَن الموت يتهدده إن لم يفعل».

وإذ يُقرر تولستوي هذا الرأَي ويُقلبه على وجوهه، يتهيأ ليقذف به في وجه الدولة، كما قذف بآرائه الدينية في وجه الكنيسة.

يرى تولستوي أَن للاستعباد وسائل ثلاث: أَولها التخويف والإخضاع بالقوة، وثانيها الإرغام على شكل غير مُباشر، وذلك بحرمان الجماهير من الأَرض ومن الملك، وثالثها أَخذ المال من الناس في صورة ضرائب لا بُد أَن يكدحوا كدحًا هو الرق كي يدفعوها ويسدوا حاجات معيشتهم في وقت واحد.

وتجعل الدولة هذا الاستعباد مشروعًا، ولكن ما يبدو من مشروعيته، لا يلبث أَساسه أَن ينهار إذا ذكرنا أَنه قام على فكرة هي من الخرافة لا من المعقول، وذلك أَن واجب الفرد نحو الدولة أَهم من واجبه نحو أَقرانه من الناس، وأَنه لذلك يجب أَن يخدم الدولة، فإن لم يفعل حُمِلَ على ذلك بالقوة. ومعنى هذا أَن قلة تتحكم في الناس وتجبرهم على أَن يفعلوا ما يوقنون أَنه شر، ولا ترضى هذه القلة أَن تُسمى عملها هذا استعبادًا لأَنها زعمت له أَساسًا من الواجب، بل تراه خدمة تُؤدى للمجتمع لا يُمكن بدونها أَن تقوم له قائمة.

وعند تولستوي بناء على ذلك أَنه ليس من «سارق» إلَّا الدولة، وليس إلَّا هذا «المجرم» وحده يحمي كل ما في المجتمع الحديث من ظُلم، وفي رأَيه أَن الدولة ما قامت إلَّا لحماية هذا الظُلم، وما قضاؤها، وشرطتها، وجيشها، وسجونها إلَّا وسائل لهذه الحماية.. وطالما تتمسك الدولة بالملكية مبدأ فهي في رأَيه غير مسيحية وغير اجتماعية.

وماذا يجب إذًا أَن نصنع؟ هذا ما جعله عنوان كتابه؛ لأَن ما يجب في رأَيه أَن يُصنع هو هدف الكتاب، وهو ما جعل له مكانته وخطره.

يرى تولستوي أَن يقتنع المرء أَولًا بأَن الحالة الراهنة مُضادة لما غرس في قلب

الإنسان من قوانين طبيعية، ثم إن عليه بعد ذلك أَلَّا يأخذ منها إِلَّا بأَقل ما يُمكن وذلك بأَلَّا يستلب عمل الآخرين أَو يمتلك أَرضًا أَو يخدم الحكومة أَو يستعمل المال، فإن هذه وسائل الاسترقاق.

ويستطيع المرء أَن يفعل ذلك إذا نزل بمطالبه الشخصية إلى أَقل مستوى مُمكن، وإذا أَدى من العمل بنفسه ما كان يعمله له غيره من قبل أَو في عبارته هو: «إن أَمام ذلك الذي يتأَلم في إخلاص لمرأى آلام غيره وسيلة جد واضحة وجد يسيرة، وهي وحدها الوسيلة المستطاعة لمعالجة ما يحيط بنا من مساوئ واستشعار أَننا نعيش على صواب، وذلك أَلَّا نملك أَكثر من رداء وأَلَّا نملك المال، أَعني أَلَّا ننتفع بعمل الآخرين، وعلى ذلك فعلينا أَن نعمل كل ما نستطيع عمله بأَيدينا، وأَي وسيلة غير هذه تغير ذلك الوضع الذي نرى فيه الأَغنياء في أَكثر الأَيام حاجة إلى العمل يذهبون إلى ضياعهم ليعيشوا عيشة الترف والكسل، في حين يعمل الفلاحون الذين يعيشون على خبز الشعير والبصل ثماني عشرة ساعة في اليوم، ولا يجدون حاجتهم من الكساء، ولا يأَخذون قسطهم الحق من النوم؟».

وليس يريد تولستوي تحريم المال إذا كان وسيلة للتبادل، ولكنه يُحرم المال الذي هو في الواقع حق الغير؛ لأَنه جُمِعَ من كدهم فهو استلاب لعملهم أَو في الحقيقة لمالهم.

ولما كان يُطالب تولستوي كل امرئ أَن يُؤدي نصيبًا من العمل بيديه فيما يلزم لمعيشته، فهو لهذا ينكر على رجال العلم والفن دعواهم أَنهم بعملهم وفنهم يُؤدون عملًا ضروريًا للمجتمع يقتضي إعفاءهم من العمل اليدوي، إِلَا إذا انتفع أُولئك الذين يعملون بأَيديهم انتفاعًا عمليًا في معاشهم بما يصنع هؤلاء من علم وفن.

يوجب تولستوي على المرء أَن ينظر في نفسه ليرى أَنه كالآلة، لا تعمل إِلَّا إذا أَكلت، وأَن ما تأَكله إنما يوجده عملها، وعلى هذا فإنها إذا أَكلت ولم تعمل كان ذلك فيها ضربًا من المرض.

أَجل يجب على الإِنسان أَن يقتنع بِأَلا حقوق ولا امتيازات يجوز له أَن ينظر إِليها، وإِنما هو مُكلف بواجب قبل كل شيء، ومتى اقتنع المرء بذلك رأَى لِزامًا عليه أَن يأخذ بقسط في الكفاح البدني الضروري له ولغيره.

ويلوذ تولستوي بالندم والتوبة، ويراهما لازمين لكل امرئ كي يُغير ما بنفسه، فلا بُد من هذا التغيير لتحقيق ما يدعو إِليه. قال: «لقد قطعنا شوطًا طويلًا في طريق باطلة، نحن الذين لا نُعد أَغنياء فحسب، بل قومًا في موضع مُمتاز كذلك، قومًا نُدعى متعلمين، ولقد مضينا في هذه الطريق، بحيث لا بُد لنا من عزيمة قوية، أَو من أَلم هائل يعتورنا في طريقنا الباطلة كي يُمكننا أَن نثوب إِلى أَنفسنا، وأَن نسلم بكذب عيشنا.. ماذا أَصنع؟ ليس غير التوبة بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى، وذلك بِأَن أُغير نظرتي إِلى مكانتي ونشاطي، فبدل أَن نعد مكانتنا نافعة وذات خطر، يجب علينا أَن نسلم بضررها وتفاهتها، وبدل أَن نفخر بتعليمنا يجب علينا أَن نقر بجهلنا، وبدل أَن نُباهي برفق قلوبنا يجب أَن نعترف بسوء خُلقنا وقسوتنا، وبدل أَن نتأَبه ونستعلي يجب أَن نعلن ضآلتنا».

وينذر تولستوي كما يبشر، فإِذا لم يُغير الأَغنياء ما بِأَنفسهم فليس إِلَّا الدماء والثورة، وله في ذلك نبوءة ما أَعجبها إِذا ذكر المرء ما حدث بعد كتابته إِياها بِأَكثر من ثلاثين سنة. قال «إِن ثورة العُمال وما يصحبها من فظائع وتخريب لا تُنذرنا فحسب، ولكننا نعيش وهي تجري من تحتنا مخبوءة مُنذ ثلاثين سنة، وما فعلنا أَكثر من أَن أخرنا انفجارها بوسيلة أَو غيرها. هذه حال أُوروبا، وهذه حالنا، وحالنا أَسوأَ من حال غيرنا؛ لأَنه ليس لدينا صمامات للأَمان، إِن الطبقات التي تُرهق الجماهير ليس لعملها من مُبرر في نظر تلك الجماهير، وهي إِنما ترهقهم بالقوة والمكر السيئ واغتنام الفرص، ولكن شعور المقت نحونا في قلوب أُولئك الذين يُمثلون تلك الجماهير أَسوأَ تمثيل، وشعور الاحتقار في نفوس الذين يُمثلونها أَحسن تمثيل، إِنما يزدادان ساعة عن ساعة».

وبعد أَن حمل تولستوي حملة شديدة على امال كما حمل على الملك يختتم كتابه

بدعوة يُوجهها إِلى الأُمهات كي يغرسن هذه المبادئ في نفوس أَبنائهن وبناتهن، فهُن اللائي بذلك يخلقن الجيل الجديد.

***

كتب تولستوي كُتبه الدينية، وكتب كتابه هذا، وإِنه ليعلم أَنه لن يُسمح بنشرها، وإِنه ليعلم كذلك أَن كثيرين ممن يُؤمنون بالمذهب المادي وبالثقافة الحديثة سوف يسخرون مما يقول، وبخاصة أَصحاب العلم الحديث والاقتصاد الحديث.

ولكن إِخلاصه لآرائه كان مُنبعثًا من أَعماق نفسه، وكان يُؤمن أَنه سوف يأَتي اليوم الذي تشعر فيه روسيا ويشعر معها العالم أَنه أَدى إِلى أَبناء المسيحية جميعًا أَكبر صنيع بِأَن أَراهم المسيحية كما أَرادها المسيح لا كما زيفتها الكنيسة، فبين لهم طريق الكمال أَو أَراهم كيف يقيمون «مملكة السماء» على هذه الأرض وأَدى إِلى الإِنسانية أجل خدمة بِأَن بين للناس أَصل الشر، وأَظهرهم على ما في المجتمع الحديث من رذائل ومفاسد هي مبعث الفتن والثورات، وأَرشدهم إِلى طريق الخلاص من هذا كله.

ولقد حاربت الكنيسة كُتبه بكل ما في وسعها؛ فمنعت نشرها بالضرورة وأَخذت بالعقام الصارم كل من يتناولها مخطوطة، وصادرت كل مخطوط منها، وتشاور رئيس المجمع المقدس والحكومة في أَخذ تولستوي نفسه بعقاب شديد، ولكنهم ترددوا، ثم أَجفلوا من هذا الفعل، وتركوا بغير عقاب ذلك الرجل الذي يرمي الكنيسة في عصر كهذا العصر بِأَنها باطل، وأَنها قوة في أَيدي فئة ضئيلة من الناس لا وزن لهم ولا عمل يتصل بالمسيحية بأَي سبب، والذي يصف الدولة في صورتها الراهنة بِأَنها حين تزعم أَنها تقوم لخير الناس وأَمنهم هي المعتدية التي تحمي آثامها بما لديها من قوة! وأَي هدم أَقوى من هذا الهدم؟

وسخر المؤمنون بِأَصحاب العلم وأصحاب الاقتصاد من كلام تولستوي، وأَيقنوا أَن صاحب «الحرب والسلام» و«أَنا كارينينا» قد ودع إِلى الأَبد عقله، وعجبوا كيف تسيغ عقولهم أَن تقرأَ هذيانه هذا كما يزعمون إِلى جانب ما جاء به داروين، وما

كشفه العُلماء، وما أَتى به أَساطين الاقتصاد؟ واستخفوا بما يعني به نفسه من بحث في معنى الحياة وغايتها، وقالوا كيف يكون عاقلًا من يجحد بالحضارة الحديثة ومن يقول إن العلم الصحيح هو ما يعني بصلاح الناس جميعًا وحُسن نهايتهم، وأَنه وحده الجدير بِأَعظم قدر من الإجلال، وأَن مثل هذا العلم هو ما جاء به كونفوشيوس وبوذا وموسى وسقراط ومُحَمَّد؟

ولكن تولستوي ككل صاحب رسالة يعتزي بِأَنه أَرضى نفسه بقوله ما يعتقد، صريحًا بينًا لا التواء فيه ولا غموض.

ولقد حيرت مسأَلة الحياة والموت الفلاسفة من قبله وشغلت عقولهم، ولا تزال تُحير العقول حتى يومنا هذا، وما ندري ماذا يكون من أَمرها غدًا، وليس التفكر فيها مما يُعاب، بل إن الغفلة عنها هي العيب. يقول برنارد شو «ليست هُناك علامة أَقوى دلالة على حقارة عقل من العقول وغبائه غباءً أَصليًا، من احتقاره الميتافيزيقا، مهما كان من قوة هذا العقل في ميادين النشاط العملي، ولقد يكون شخص ما قادرًا أَعظم القدرة في الرياضة أَو في الهندسة أَو في الأَساليب البرلمانية أَو في السبق في إِخراج الكُتب، ولكن هذا الشخص إذا تفكر في هذا الكون مدى حياته دون أَن يسأَل نفسه: ماذا يعني ذلك كله، فإِنه (أَو إنها) أَحد أُولئك الذين وضعهم كلفن حين قسم الناس، في فصيلة من كتب عليهم الشقاء الأَزلي».

***

بين تولستوي ضلال الكنيسة، وأَظهرها غير ذات عمل إِلَّا ما تشيع في الناس من هذا الضلال، وبين للناس ما تقوم عليه الدولة من ظُلم تسعى أَن تجعله مشروعًا، وأَرشد الناس إِلى سبيل الخلاص، ولكنه يحس أَن لا بُد من كتاب يبسط فيه ماذا يجب أَن تكون الحياة، وهو إِذا هم بِأَمر يتصل برسالته لا يقعد حتى يتمه، ومن ثم كتب كتابًا جعل عنوانه «في الحياة»، وقد فرغ منه سنة ١٨٨٧.

وهذا الكتاب من أَهم آثاره الفلسفية وأَجملها، وبه تختتم تلك السنوات التي

قاربت العشر من حياته والتي جعلها لغير الفن من نشاطه، وهو كآثاره السالفة معرض لآراء يلدها عقل موهوب، برع أيما براعة في الجدل وإقامة الحجة، والإحاطة بكل ما هو بسبب من موضوعه، يواتيه بيان مشرق في سياق رائع ينفذ إلى القلوب.

يذكر تولستوي في كتابه هذا أن أمام الإنسان في حياته طريقين: أولهما طريق البدن ومطالبه، وثانيهما طريق الروح وما تنزع إليه.

وما للإنسان في حياته إلَّا دافع واحد هو ما يحلم به من سعادة، ولا يلبث الإنسان إذا نظر نظرة خالية من الهوى أن يرى أن من الخداع الذي يض الناس أن يظن المرء أن سعادته تتحقق ببلوغه ما يطلب لنفسه من مطالب شخصية، وذلك أنه مهما بلغ من نجاح الفرد في تحقيق رغائبه فلن يحول ذلك بينه وبين ما يفضي به إلى الغاية المحتومة من قوانين الوجود، فلا بُد أن يذبل كل شيء فيه حتى يذهب به الموت.

ومتى اقتنع الإنسان بهذا أحس إحساسًا شديدًا لا يدافع، بأن عليه أن يبحث عن السعادة الحقيقية في اتجاه آخر.

ولن يلبث الآن في بحثه أن يرى مبلغ ما في العلم الحديث من إخفاق، ذلك أنه بدل أن يشتغل بما يرى الإنسان صلاحه وسبيله إلى ذلك الصلاح، نراه يشتغل بقوانين تتصل بحياته المادية لحفظ النوع وتنازع البقاء، وما إليها.

ولن يوجه العلم وجهته الصحيحة إلَّا فهم الحياة فهمًا صحيحًا، وما العلم في حالته الراهنة إلَّا ذلك الذي يعلن أنه يلم بكل شيء عن البيضة في حين أنه يظل جاهلًا بسر تلك الحقيقة: ألا وهي أنه من هذه البيضة يخرج مخلوق حي.

وإن اتجاه العلم اتجاهه الخاطئ، يجعل ما وهب الإنسان من حكمة هي أجل مواهبه، تبدو بادئ الرأي كما لو كانت شيئًا ابتلى به، وذلك لأنها تؤدي به إذا تفكر، إلى إنكار الحياة، ما دام أنه لا يستطيع أن يتبين في أي اتجاه يبحث عن الحياة الحكيمة، ولكن تفكره هذا في الواقع بدء تيقظ شعوره، وإذا ما تيقظ هذا الشعور

فطن إلى أن ما كان يظن قبل من بواعث سعادته لا يعد شيئًا ما لم يره كيف تكون الحياة الصحيحة، وكيف يعيش وفق قوانينها.

وإذا فالشعور الحكيم هو الذي يوجه الإنسان نحو الحياة الصحيحة؛ لأَن ذلك سوف ينأَى به عن المستوى الحيواني الشخصي للشعور، ويجعله بدل أَن يعمر لنفسه فحسب، يضحي بهذه النفس إذا اقتضى الحال من أَجل غرض أَسمى.

وهذا الشعور الحكيم وحده هو الذي يقنع الإِنسان بأَن هُناك حياة غير حياته المادي الحيوانية وأَنها مُمكنة، وتلك الحياة الجديدة مُستقلة عن قوانين المكان والزمان، ولكي يبلغها الإِنسان بعد أَن لمحت له عن طريق ذلك الشعور، ينبغي أَن يرفع نفسه بجهاده هذه النفس جهادًا قويًا مُتصلًا، وذلك لأَن تلك الحياة الحكيمة التي تقوم على الخير تتعارض مع مطالب بدنه وشهوات نفسه، فلا بُد ثمة من صراع أَو كما تقول الأَناجيل «لا بُد أَن يُولد الإِنسان مولدًا جديدًا».

والشخص الذي يسيطر عليه الشعور الحكيم يوقن أَن الحياة القائمة على مطالب البدن وشهوات النفس مفضية حتمًا إلى الأُفول والفناء، ولذلك فهي غرور في أَعقابه الحسرة، بينما الحياة الطليقة من الزمن لا يخشى معها أُفول ولا خوف، وعلى هذا فتعلق الإنسان بالحياة المادية الوضيعة يتعارض مع صلاحه واطمئنان نفسه، فلا بُد له من الانطلاق منها والاندماج في الكون كله واستشعار اللذة والسعادة الصحيحة في العمل لخير الناس.

وما العمل لخير الناس إِلَّا مظهر الحب نحوهم، وإِن الذي ذاق عاطفة الحب ليدرك أَنها وحدها القادرة على أَن تتخطى كل عقبة، وعلى أَن تحل ما يبدو في الحياة من مُتناقضات، وعلى أَن تُهيئ للإِنسان السعادة الصحيحة فيعمل عليها دائبًا.

وليس يقصد تولستوي بهذا الحب، انجذاب فرد إلى فرد، وإِنما يريد به أَن يفعل الإِنسان الخير للناس جميعًا وللإِنسانية في حاضرها ومستقبلها.. وما ذلك الحب الفردي في أَكثر حالاته إِلَّا مظهر من مظاهر الأَنانية، وقلما كان سبيلًا إِلى الحب

الشامل الذي يستغرق الكون كله.

وإذا انطلق الإنسان من حياته الشخصية واندمج في الإنسانية، لم يعد حبه حبًا فرديًا تتجلى فيه طبيعته الحيوانية، وإنما أصبح حُبًا شاملًا لا يزال يتسع حتى يسع الكون كله، وهذا هو الخلود! أَجل، هذه هي الحياة التي لا تتقيد بالزمن، وعلى ذلك فلن يضع الموت لها حدًا؛ فهي باقية وإن فنى الجسد أَو ذلك الطين الذي هو مظهر الجانب الحيواني في المرء.

عندئذ يفطن المرء إلى أَن حياته ليست موجة، وإنما هي حركة لا تقف، وما يجعلها كالموجة التي تضيع إلَّا تصورها في ذلك المظهر الحيواني المقيد بالزمان والمكان.

بهذا الأَمل الحلو، أَو بهذه الصوفية الحالمة يختتم تولستوي نشاطه في ميدان الفكر، وهي خاتمة جميلة لمن يحن إلى الفن، ثم إنها بدء جميل للفن في وضعه الجديد أَلا وهو أَن يكون وسيلة إلى غاية.

***

يا لها من سنوات عشر في حياة هذا الرجل الفذ ويا له من مجهود ذلك الذي بذله فيها، فهو في الحق مجهود فذ، ثم يا لها من كُتب تلك التي كتبها في تلك السنوات، فهي في ذاتها عمل فذ.

ولكن هل استراح تولستوي إلى حياته واطمأَنت نفسه إلى العيش؟ كلا فما يزال بينه وبين الراحة وهدوء البال أَمد بعيد!

كتبت إليه زوجته من موسكو سنة ١٨٨١ وقد فر إلى القرية تقول «لقد بدأت تتألم مُنذ زمن بعيد، وقد اعتدت أَن تقول: إني أريد أن أشنق نفسي لأَني لا أستطيع أن أومن، واليوم ماذا يشقيك وقد اهتديت إلى الإيمان؟ أَلم تكن تعرف من قبل أَن في هذه الدنيا آلافًا من المرضى والتعساء؟ كان الله في عونك، ولكن ماذا أَستطيع أَنا أن أصنع؟».

ورد عليها زوجها بقوله: «لا تُحزني نفسك من أَجلي، وفق كل شيء لا تتهمي نفسك».

وحق للكونتس أَن تحزن وأَن تظن بعقله الظنون؛ وأَي شيء أدعى إلى الحزن من أَن ترى زوجها يهمل شؤون ضياعه إهمالًا شديدًا حتى كأَنها ليست له، فإذا ذهب إلى سمارا في صيف سنة ١٨٨١ طلبًا للعلاج لا يعنيه هُناك إلَّا النظر في حال الفقراء والاستماع إلى آرائهم وبخاصة في الدين؟ وأَي شيء أَدعى إلى الأَلم من أَن يهجر زوجته مرات فيبتعد عن موسكو هربًا من حياة المدينة كما يعلن، فإذا جاء إلى المدينة أَكب على كتبه ونسي كل شيء غيرها؟ وأَي شيء أدعى إلى الشك في عقله من رؤيته وسط الفقراء من أَهل المدينة أَو أَهل القرية يُحدثهم ويستمع إليهم، ويدعوهم إللى داره؟ وما هذا الذي يقرأَ؟ ما جدوى هذه العبرية؟ ولم يتكلم زوجها هكذا طويلًا عن المسيحية وعن الله ولم يُجادل أَصدقاءه جميعًا جدالًا عنيفًا ويضيق بهم كل مرة ويعزو إنكارهم آراءه إلى الجهل؟ إنه مريض لا شك وإن مرضه في عقله وحواسه، هذا ما تحدث به زوجته نفسها، وإنه ليلمس ضيقها مما يقول أَو يفعل، فيكتب إليها ذات مرة: «لا تغضبي كما أراك أَحيانًا، إذا ذكرت الله، فإنه أساس أفكاري جميعًا».

ولما علمت بكتابه إلى القيصر وما دار حوله من سخرية خصومه، ثم لما ترامى إليها ما يقول الناس في موسكو عن زوجها أَخذتها غاشية من الحزن.

وليت أَمره وقف عند هذا، فقد كان يزداد غرابة يومًا عن يوم؛ فهو في ياسنايا يعمل مع الفلاحين يدًا بيد، وإنه ليتطوع بقطع الأَخشاب من الغابة لمن هم في حاجة إليها، وإنه ليزرع لمن لا عائل لهن من الأَرامل، وإنه لينفض التراب عن حجراته بنفسه وينظف حذاءه بيديه، وإنه ليلبس ملابس الفلاحين فيبدو كأَنه واحد منهم، وهو في موسكو يحمل الماء من البئر ويخصف نعله بيده أَو يصنع نعلين كاملتين، وينظف حجراته وملابسه!

وإنه رغبة منه في أَن يستغنى عن المال ما أَمكنه، يمشي على قدميه أَحيانًا إذا

أَراد الانتقال من موسكو إِلى ياسنايا وهي مسافة تقرب من مائة وثلاثين ميلًا، وليس معه إِلَّا طعامه ودفتره وقلمه، ولقد يمشى وحده أَو يختلط ببعض الفقراء في الطريق، وإِنه لينام حيثما اتفق في أَي مأَوى يدله عليه الناس.

وذهب ذات مرة إِلى دير أوبتينا بولين ماشيًا، واستصحب أَحد أَصدقائه وهو رئيس إِحدى المدارس، وتابعًا له، وكان يلبس ملابس الفلاحين، وينتعل مثل نعالهم من غير جورب، ولكنه أَحس أَلمًا في قدمه فاشترى جوربًا في الطريق كما اشترى حزامًا لوقاية جسمه، وكان تابعه يحمل ملابس نظيفة في شنطة، وبعد أَيام بلغوا الدير، وأَنزلهم رجاله مع الفقراء من السائلين، وقد سر تولستوي بذلك سرورًا عظيمًا، ونام تولستوي فكان على مقربة منه إِسكاف شديد الشخير فأَيقظه، وأَشار تولستوي إِلى تابعه فنبه الرجل فصاح مغضبًا: أَتمنعني من النوم من أَجل صاحبك هذا؟

وتسرب نبأَ وجود تولستوي بالدير إِلى الرهبان فما لبثوا أَن عرفوه، واستقبله رئيس الدير الأَب أمبروز، وهو يعرفه من قبل، وأَكرم مثواه، واضطر تولستوي أَن يلبس ما كان معه من ملابس نظيفة، ثم قاده الرهبان عند النوم إِلى غرفة كبار الضيوف، وعاد في اليوم التالي ومن معه بالقطار.

وكان بيته في موسكو، حيث كانت تعيش زوجته وأَبناؤه عيشة أَرستوقراطية، مقصد المئات من محبيه والمعجبين به، وكان يعجب زائروه إِذ يرونه في إِحدى حجرتين صغيرتين خصصتا له في هذا البيت الكبير، وهو في زي الفلاحين يبدو غريبًا كأَنه لم يكن رب هذا البيت.

وكان يحج إِليه في ياسنايا أَنماط من الناس ما بين أُمراء وفلاحين وأَجانب من دول كثيرة، وكلهم ممن أعجبوا بمبادئه، وقد جاءوا كي يروه وكي يعلنوا إِليه ولاءهم، ومنهم من يخبره بتنازله عن ثروته وإِقباله على العمل بنفسه، ومنهم من يستوضحه بعض آرائه، ومنهم من يسأَله كيف يتوب وكيف يحيا الحياة التي يدعو إِليها، وما منهم إِلَّا مصدق به مبتهج برؤيته.

وكثيرًا ما وجده زائروه يعمل بمنجله في الحقل وحوله عدد من أَتباعه وتلاميذه يعملون معه، وفيهم الأَمير والكونت والمعلم والفلاح، وهو في مظهره بينهم لا يفترق عن أَي فلاح ممن يرون في القرية.

ويبدو تولستوي لزائريه راضيًا عن حياته؛ إذ هو في الواقع يحس في أَعماق نفسه عذابًا شديدًا، فماذا يُعذبه اليوم وقد اهتدى إِلى الحياة الصحيحة؟

كان مرد شقائه إِلى ثلاثة أَسباب: أَولها أَنه مهما خالط الفقراء والفلاحين لا يحس إِحساسًا كاملًا أَنه واحد منهم، وثانيها أَنه وهو الذي يرى الملك أَصل الشر لا يزال من كبار المالكين، وثالثها موقف الحكومة والكنيسة من كُتبه وآرائه.

والحق أَن تولستوي كان لا يفتأ يذكر مهما اقترب من عامة الناس ومهما خالطهم أَنه لا يزال فيه الكثير من تلك الحياة التي أَراد أَن ينطلق منها، قال دستويفسكي مرة عن ليفن: «إِن رجالًا على شاكلة ليفن قد يعيشون مع عامة الناس أَطول ما يريدون، ولكنهم لن يستطيعوا أَن يكونوا منهم، فليست هُناك قوة من التصميم أَو الإِرادة أَو الخيال تُمكن رجلًا ما أَن ينفذ غرضه كما يشاء وهو أَن يكون واحدًا من العامة».

وكان دستويفسكي على حق فيما ذكر، وما يُقال عن ليفن يُقال عن تولستوي، ولعله أَراد تولستوي بهذه العبارة ليُبين أَن ما ينزع إِليه في شخص ليفن شيء لا يُمكن تحقيقه.

وكيف يحل شخص جديد مكان شخص والنفس هي النفس؟ ليلبس تولستوي ملابس الفلاحين ما شاء وليسلك مسلكهم ما شاء، ولكنه لن يملك أَن تكون له عقلية الفلاح وروح الفلاح وإِيمان الفلاح لأَنه لا يستطيع أَن يتخلص من تجاربه وعلمه وفلسفته.

ذلك ما كان يكرب نفسه ويعذبه، فلقد فطن بعقله بعد طول النظر ولكنه لم يُؤمن إِيمان العامة، ذلك الإِيمان الذي يعيشون عليه من غير نظر أَو تفلسف، وهو

يتوق اليوم إلى هذا الإيمان ولن يهنأ له عيش إلَّا إذا استشعرته نفسه واطمأَن إليه قلبه، فما هو بعابث كما كان يفعل بالأَمس في صدر شبابه حين كان يعتزم الكمال ثم لا يلبث أَن يعود إلى مجونه، إن له اليوم رسالة من أَجلها يعيش، لقد صور له فكره ووجدانه اليوم كيف تكون الحياة وإنه يريد أَن يعلم الناس ويهديهم، فكيف يفعل ذلك ونفسه غير مُطمئنة؟

إن إحاطته بآراء الفلاسفة وإن ذكاءه وإن تجاربه، كل أُولئك يفسد عليه تخشعه وقنوته، ويحول بين روحه وبين الاطمئنان، وما يملك مهما بلغ من قوة الإرادة أَن يخضع هذه الروح؛ فالروح مُتصلة بالماضي كما تتصل بالحاضر ولا يُمكن أَن تُحبس أَو تُقيد؛ «إن مُحاولتك احتجاز الروح هي كمحاولتك أَن تمسك شُعاعًا من أَشعة الشمس، فاحبسه ما شئت وأحكم حبسه، فإنه يجد أَبدًا طريقه إلى الخارج»، هذا ما قاله بعد سنوات وهو يُصور لنا عناءه الروحي خير تصوير.

ولقد كان الفلاحون أَنفسهم ينظرون إليه في ريبة، وكان أَصدقاؤه وزوجته وأَبناؤه في حيرة من أَمره لا يصدقون أَو لا يتخيلون كيف يغدو كما يريد أَحد العامة، بعقله وثقافته وفلسفته! وأَما أَهل عصره من من الكُتاب والأُدباء فقد تناقلوا كما أَسلفنا في أُسبوع بوشكين أَنباء خبله، ولقد أَحزن ترجنيف هذا الذي يسمعه عن تولستوي وظل يُمني نفسه بعودته إلى الفن مُنذ انقطع عنه في سنة ١٨٧٨، فلما أَحس أَنه يدنو من الموت، وكان يُعاني آلام مرضه الأَخير في يوليو سنة ١٨٨٣ تحامل على نفسه وتناول رقعة وقلمًا وكتب إلى تولستوي كلمة يقول إنها رجاء مُنبعث من قلب رجل يموت، وناداه: «يا شاعرنا العظيم، يا لسان هذه الأَرض؛ أَرضنا الروسية، عُد إلى الأَدب فهو موهبتك الحقيقة، اسمع توسل رجل يموت».

ولكنه لا يعود إلى الأَدب، فقلبه غير مُطمئن بالإيمان، وهو لا يزال يُجاهد كي يُؤمن وكي يطمئن قلبه، ولن يقل عذابه اليوم عن عذابه حين كان يسأَل نفسه: ما غاية هذه الحياة.

وهيهات أَن ينتزع المرء نفسه من ماضيه انتزاعًا تامًا، وما يملك المرء إِلَّا أَن يغير بعض عاداته، ويصلح بعض جوانب سلوكه، أَما أَن يصبح على نقيض ما خلق وما بثته الحياة في نفسه، فذلك ضرب من المستحيل، وفي هذه الاستحالة عذاب تولستوي.

وكان بعض خصومه حتى آخر أَيامه يرمونه بالنفاق، ولكنه كان لا يحفل اتهامهم. رد على أَحد سائليه ذات يوم بقوله: «يقول لي الناس: إِذا كنت ترى إِن ليس ثمة من حياة حكيمة ما لم تُنفذ تعاليم المسيح، وإِذا كنت تحب هذه الحياة الحكيمة، فلماذا لا تنفذ ما تُؤمر به؟ وإِني أجيب على ذلك بأَني مخلوق وضيع أَستحق ما يُوجه إِلى من لوم واحتقار لعدم تنفيذي تلك التعاليم. ولكني – تفسيرًا لتناقضي، لا تبريرًا له – أَقول: تدبر في حياتي قبل اليوم وفي حياتي الآن، فستجد أَني أحاول الأَخذ بما أُمرت به، أَما أني لم أُنفذ جُزءًا من عشرة آلاف جُزء فهذا حق، ومن أَجل ذلك أَستحق اللوم، ولكن تقصيري لا يرد إِلى أَني لا أَرغب في تنفيذ ما أُمرت به، ولكن إِلى عدم معرفتي كيف أَفعل ذلك، علمني كيف أخلص نفسي من تلك الشباك التي أَحاطت بي – شباك الغواية – أَعني على أَمري تجدني نفذت، على أَني من غير عون أرغب وآمل أن أفعل، أَلا فلتلمني فإِني ألوم نفسي، ولكن وجه اللوم إِلى شخصي لا إِلى الطريق التي أَسلك، ثم بين الطريق لمن يسأَلون أَين الطريق المؤدية. إِني أحاول بكل ما فيّ من قوة أَن أَضع ذلك موضع العمل، وكلما فشلت مرة لست أَندم فحسب، بل إِني لأُصلي طلبًا للعون حتى أَستطيع أَن أَفعل ما أريد، وإِني لأَلقي بكل غبطة أَي شخص يبحث كما أَبحث عن الطريق وأَستمع إِليه».

هذا ما كان من أَمر تولستوي في جهاده نفسه، وما أَورثه إِياه هذا الجهاد المرير من ضنى ومن عذاب سوف يُصاحبه حتى يغمض الموت عينيه.

أَما ما كان من أَمر ملكه وثرائه، فإِن تولستوي حينما فاتح زوجته برغبته في أَن يتنازل عمّا يملك، وأَن يعيش وأُسرته عيشة مُتواضعة تتفق وَما يعتقد، لم تأَخذ كلامه أَول الأَمر إِلَّا على أَنه ضرب من خبله لا يلبث أَن يزول، ولكنها لما رأَته يعود إِلى

ذلك أكثر من مرة، ولما أيقنت أنه جاد، لم تملك دمعها. ثم إنها أخذت تعنف عليه، وقد أخذتها الحيرة من أمره، وأحست الحزن في أعماق قلبها، وصارت لا تستطيع أن تصغي إليه كلما أشار إلى ذلك الأمر، فإذا أصر على الكلام صرخت مهتاجة، وولت عنه مُدبرة.

وكان هو من جانبه يضيق بها وبمن لا يفهه من أصدقائه وأبنائه. قال: «إني لأعجب مرارًا لم قدر عليّ أن أرى غباءهم واضحًا هذا الوضوح كله، بينما هم غير قادرين على أن يدركوا مبلغ خطأهم وغباءهم، ولذلك يظل التصادم بيننا، ونلوم بعضنا بعضًا بغير فهم، وليس يغيظني إلّا أنهم كثيرون وأنا واحد بينهم».

وكانت تعلن إليه زوجته أنها لا تبخل بصدقة مهما عظمت على الفقراء والمساكين، ولكنها لا تتصور كيف تتنازل الأُسرة عن أملاكها، وتعيش عيشة هؤلاء الفقراء بعد أن ألفت حياتها في وضعها الراهن، وهو عمّا تقول معرض فالملك أصل الشر، وهو بشير للناس بدين جديد فكيف يمتلك الضياع العامرات ويدعو الناس في الوقت نفسه إلى دينه؟

ألفت الكونتس حال زوجها، وباتت مصدقة بإخلاصه وجده فيما يقول أو يعمل، بعد أن كانت ترد ذلك إلى مرض أو خبل. ولئن كان يحزنها تغيره هذا أشد الحزن فما لها حيلة فيه، حتى الصبر فإنها كثيرًا ما تطلبه فلا تجده، وكيف تصبر مثلًا على رؤية زوجها في ملابسه القروية الخشنة، وخلفه كلبه يشخص إلى حفلات الرقص فيقف هُنيهة ثم ينصرف! وما عسى أن يقول الناس؟ ولكن الناس قد فرغوا من عجبهم منه، وذهبوا مذاهبهم في تأويل ما يرون من حاله.

ويحزن نفسها منه غير هذا انصرافه عنها وعن أطفاله، وتعود إليه وساوسها القديمة فترى أنه لا يحبها، ويضيق ذرعًا بها فيعلن ذات مرة أن أعظم ما تتوق نفسه إليه أن يهجر بيته وأهله. ويشتد غمها وتعود إلى مثل ما سلف من حالاتها من البكاء واليأس والرثاء لنفسها والغيرة حتى لتقول: «إني أسأل الله أن يميته فإني لا أطيق

العيش بغير حبه، إني لا زلت على ما منحته من حب في هذه ااالسنوات العشرين، وإذا لم يعد فسوف أعلم أنه يحب امرأة أُخرى».

وتقدم ذات مرة على الانتحار فتمشى في الغابة إلى أَحد أَحواض الاستحمام وتنزل في ماء قرب من التجمد، فيه قطع الثلج، بغية أَن تأَخذها رعشة عنيفة تميتها، ولكنها تبقى فيه زمنًا طويلًا دون أَن يصيبها شيء، فتعود إلى بيتها مثقلة النس.. وبعد يوم واحد تثبت في مذكراتها قولها، وقد تم بينهما الصلح: «لقد بكينا معًا، ورأَيت في فرح أَن الحب القديم، ذلك الذي حزنت على فقده في تلك الليلة المخيفة، لا يزال حيًا فيه».

وتحس الكونتس أَنه لم يعد بينها وبين زوجها من خلاف إلَّا في نظرتيهما إلى الحياة، وتعبر عن هذا الخلاف أحسن تعبير بقولها في مذكراتها: «لا يسع ليو إلَّا أَن يكتب ويتكلم مُندداً بحياة المدينة وبحياة الطبقة العُليا بوجه عام، فإنه رجل يسبق عصره، وهو يشير إلى الطريق التي يجب أَن يسلكها الناس، ولكني واحدة ممن في زحمة الناس، إني أَعيش معه وأَرى الضوء الذي يحمله كل رجل مثله يسبق جيله، وإني أَقر أَنه الضوء، ولكني لا أَستطيع أَن أماشيه فإن لي من زحمة الناس ومن عاداتي ومن بيتي ما يعوق خطواتي».

وظلت الكونتس تروض نفسها على الصبر تارة وتغضب تارة، حتى كانت سنة ١٨٨٤ فوقع بينهما خلاف أَفضى إلى أزمة شديدة، أَما هو فكان يشكو من أَن أَهله لا يكترثون له ولا يأبهون به. قال: «إن حياتي مُؤلمة في بيتي؛ ولقد بلغ من تأَلمي أَني لست أستطيع أن أعطف عليهم، إن في أَفراحهم ولعبهم وامتحاناتهم ونجاحهم في المجتمع وموسيقاهم وفرشهم وما يشترون، شر لهم، ولست أَستطيع أَن أُفهمهم ذلك، وإني أدعوهم، ولكن كلامي لا يصل إلى أَحد، كيف يرون أَني لم أَستشعر لنفسي حياة في هذه السنوات الثلاث إلَّا العذاب! إنهم يجعلون لي بينهم موضع شيخ هزيل، ويظنون أَني لا أَملك لذلك دفعًا».

وأَما زوجته فما فتئت تشكو وتبكي، وتعلن إِلى من في الدار أَن الكونت قد اعتزم هجرانها، وأَنه لا يحبها، وكانت يومئذ ذات حمل، فأَرادت أَن تجهض جنينها، وقد زادها ذلك هياجًا وضعفًا لأَنها لم تفلح فيما صنعت لإِجهاضه.

وكان الكونت يأْوى إِلى حجرة مكتبه فيغلق بابها دونه هربًا من شكايتها وبكائها، وأثبت في مذكراته يومئذ قوله: «إِن كل ما أَفعله خطأ وإِني لأَتعذب عذابًا مُخيفًا بهذه الأَخطاء.. إِني لا أَجد وسيلة لمعاملة زوجي مُعاملة لا تُؤذي شعورها، دون أَن أَنزل على رأْيها».

وفي السابع عشر من يونيو عنف بينهما الكلام فصاح تولستوي محنقًا إِنه لم يعد يطيق صبرًا، وأَنه مُهاجر من فوره إِلى أَمريكا، ثم إِنه وضع بعض متاعه في شنطة صغيرة، ومشى يقصد تولا. فلما كان في مُنتصف الطريق إِلى هذه المدينة كبر في نفسه أَن يترك زوجته في سرير الوضع، فعاد إِلى بيته وبلغه في الساعة الخامسة من الصباح، ولما دخل الدار نزلت إِليه زوجته لتوها وقالت له: «ليو.. إِني أَشعر أَن المرض يشتد عليّ وعمّا قليل سأَلد، ماذا يغضبك؟ اعف عني إِن كنت ملومة في شيء، واصبر فإِني أَعلم مما يحيط بي أَني لن أَعيش بقية اليوم»، ولم يرد زوجها، ومشى حتى كان قبالتها فنظر في وجهها نظرة طويلة وهو صامت ثم انصرف، وبعد ساعة ولدت له بنتهما أَلكسندرا.

وكتب بعد ذلك يقول: «لقد كانت عودتي خطأً، وأَظن أَن فراري واقع لا محالة عاجلًا أَو آجلًا».

وبعد شهر أَثبت قوله: «لقد دخلت على حجرة مكتبي، وبدأَت منظرًا هستيريًا انتهى بأَن أعلنت أَنه ما من شيء في حالها يُمكن أَن يتغير، وأَنها شقية، وأَنها تريد أَن تفر إِلى أَي جهة ما، ولقد أَسفت لها، ولكني لم أَملك أَن أَصنع شيئًا، ولسوف تبقى إِلى آخر يوم من حياتي حجر طاحون حول عنقي وحول أَعناق أَطفالي، ويجب أَن أَتعلم كيف أَتجنب الغرق وحول عنقي هذا الحجر».

وحل الصفاء في أُغسطس بينهما محل الجفاء، وكأَنما أَرادا أَن يخرجا مما كانا فيه من غم لا يطيقانه فلاذا بالصلح، ولما انتهى الصيف رحلت الكونتس وأَولادها وبناتها إلى موسكو، وبقي الكونت في ياسنايا.

وكتب إليها في الريف مُغتنمًا هذا الصلح عسى أَن تقنع برأيه، وذكر لها أَنه لا يستطيع أَلبتة أَن يعيش يشة هي على نقيض ما يعتنق من عقيدة، واقترح أَن يأَتي تخلصه مما يملك شيئًا فشيئًا، ورجا منها أَن تُفكر في الأَمر قبل أَن ترد فلا تكتب ردها ساعة فراغها من قراءة كتابه.

وجاءه ردها فإِذا هي ترفض أَن تصغى إلى شيء مما يقول، وإِذا بها على الرغم من عبارات ودية في كتابها تسخر منه مُتمثلة بالمثل القائل: «دع الطفل يلعب بِأَي لعبة يشاء طالما أَنه لا يصرخ».

ويئس من إِقناعها فكانت هذه آخر مُحاولة له، ولذلك ترك لها الثراء ليحيا هو حياة الفقراء، فجعل لها الولاية على ما يمتلك جميعًا وفي طبع ما صدر في كُتبه حتى سنة ١٨٨١.

هذا ما كان من أَمر شقائه بما يمتلك وما كان من مسلك زوجته حياله، ولقد قنع على رغمه بهذا الحل وإِن كان لا يراه حلًا.

أَما ما كان من شقائه بسبب موقف السلطات منه، فإِن من أَعاجيب القدر أَن يقذف تولستوي بآرائه في الدين والاجتماع في وجهي الكنيسة والدولة، في وقت كانت الدولة فيه، وكان بوبندو نستسوف رئيس المجمع المقدس ومن حوله رجال الدين، يحصون على الناس خطواتهم، ويكادون يملكون عليهم أَنفاسهم. كان هم الحكومة كما أَسلفنا خنق كل فكرة قبل أَن تنمو، وكان الناس في نظرها فريقين، الخاضعين للنظام القائم، وهؤلاء لا خوف منهم، والناقمين عليه وهؤلاء هم الأَشرار، وكان يكفي أَن يتهم المرء بِأَنه ناقم، حتى ولو لم يبد منه شيء من قول أَو عمل ليذوق النكال.

لذلك كان من أَعاجيب القدر كما قلنا أَن تأَتي آراء تولستوي في ذلك العهد، وليس معنى ذلك أَنه لم يكن وقتها، بل معناه أَنه كان أَصلح وقت لها، وليس في الأَمر غرابة، فما تفتقد الأَفئدة والأَبصار النور إِلَّا إِذا اشتدت الظُّلمة، وما تهفو الأَنفس إِلى النسيم إِلا إِذا ضاقت بما يخنقها، وما يدرك الناس معنى الأَمن إِلَّا إِذا أَحاط بهم الخوف، وما يقدر الناس الحرية حق قدرها وتزداد محتبهم لها إِلَّا إِذا اشتد بهم الظلم، فكأَنما جاءت آراء تولستوي يومئذ على قدر، فقد جاءت وفيما يفعل خصومه البرهان على أَن فيها خلاص الإِنسانية كما أَراد بها صاحبها.. وما كان لرسالات الرسل جلالها وروعتها ومعنى هداها، إِلَّا لأَنها تشرق في ظُلمات الزمن، وكذلك مع الفوارق شأَن المصلحين في كل عصر.

هذا ما كان يعتزي به تولستوي، وإِن كان أَحيانًا ليضيق بالعصر ومن فيه إِلَّا من اتبعه، وهم قليلون يومئذ، وما كانت قلتهم في رأيه إِلَّا لأَنه لا يستطيع أَن ينشر كُتبه.

ولقد بلغ من مُحاربة الحكومة إِياه أَنها منعت ظهوره في مُجتمع عام سنة ١٨٨٣، فقد دعته جمعية مُحبي الأَدب الروسي ليقول كلمة في ترجنيف عقب موته، وقبل تولستوي من أَجل ترجنيف، وإِن كان لا يحب الاجتماعات، وأَقبل على إِعداد كلمته في حماسة، وتهيأَ الناس في موسكو ليشهدوا الاحتفال، وليروا كاتب روسيا الأَكبر، ولكن الحكومة لم تسمح له بالكلام أَو شهود الاجتماع، بل لقد منعت الاحتفال نفسه.

ولسوف تستمر المعركة بينه وبين السلطات حتى موته، ولولا ما توافى له من مكانة في قومه لم يبلغها أَحد قبله، حتى لقد كان يصغي إِلى صوته كل رجل في روسيا، وفي مقدمتهم القيصر نفسه، لأَلقي به في السجن أَكثر من مرة كما قلنا أَو نُفي من الأَرض، ولكن ذلك ما عجز عنه الظلم في عنفوانه، وكفى بذلك شهيدًا على مجده إِن كان يعد في حاجة إِلى شهادة أَو إِلى تمجيد.

***

عاش تولستوي عيشة الزاهد بعد أَن ترك لزوجته ثروته، فحرم أَكل اللحم على نفسه لما يتضمن أَكله من قسوة القتل والذبح ولما ينم عنه من نهم، وحرم على نفسه الصيد وشرب الخمر والطباق، فليس له اليوم من رياضة إِلَّا المشي أَو ما يعمل من عمل بيديه في الحقول والغابات أَو في صنع الأَحذية، أَو في خصف ما تمزق منها.

ولم يعد له مما يدرأ به السأم عن نفسه إِلَّا اللعب مع أَطفاله ومسابقتهم في العدو وقص القصص عليهم، أَو الاستماع إِلى بعض الأَلحان، أَو لعب بعضها على البيان، ثم يعود إِلى أَحذيته القديم منها والجديد إِن كان في موسكو أَو إِلى منجله أَو فأَسه إِن كان في ياسنايا.

وإِن نفسه لتستريح إِلى المسكنة، وإِلى مُخالطة المساكين والحدب عليهم، ودعوتهم إِلى داره ومؤاكلتهم، ومُصاحبتهم حيث يجلسون في الطرقات وحيث يعملون إِن كان لهم عمل.

ولم يعدم تولستوي من أُسرته من يعطف عليه ويُؤمن بما جاء به، أَلا وهما بنتاه ماري وتانيا، وكانت ماري سنة ١٨٨٥ في الخامسة عشرة من عمرها وكانت فتاة رقيقة الإِحساس جميلة الصوت ذات حُسن ورشاقة، وقد عزّ عليها أَن يترك أَبوها هكذا وحده، وأَحست ذلك من أَعماق نفسها، فآثرت جانبه، وتركت أَصدقاءها وصديقاتها، وأَدارت ظهرها للهو الحياة ومفاتن المدنية، وهي بعد في أَول ا لشباب، وانطلقت إِلى أَبيها في عزم مُصمم، وراحت تكتب له ما يريد وتخف إِلى ندائه، وتسعى إِليه أَينما وجد. ثم أَخذت تعمل بتعاليمه، فكانت تخدم فقراء القرية ما وسعتها الخدمة، وصارت تعمل في وهج الشمس مع القرويات، وتنظف حجرتها وتُهيئ طعامها بنفسها، وأَحبها جميع من في القرية وبخاصة النساء، وكن يفضين إِليها برغائبهن ويظهرنها على كل ما في نفوسهن.

وكانت تانيا في الحادية والعشرين، جميلة المحيا، نشطة، ذات ذكاء وعقل، وكانت شديدة المحبة لأَبويها كليهما كما كانت تحظى بحبهما، وكانت تعين أُمها في أُمور البيت

في همة ونشاط ثم تنطلق إلى أَبيها تنظر ماذا يريد، وتجيبه إلى ما يطلب، وتبقى بين يديه تكتب ما يملي عليها أَو تستقبل زائريه وتحسن ضيافتهم.

وكان يغشى الجانب الذي يقيم فيه الكونت من البيت أَنماط من الناس، من فُقرائهم وأَغنيائهم، وكانت الكونتس لا تعبأ كثيرًا بهذا الجانب، أَما جانب إقامتها هي وأَبنائها وبناتها فكانت تحرص على مظهر أرستوقراطيته وعظمته، تقيم فيه الحفلات والولائم، وتستقبل العلية من الضيوف نساءً ورجالًا يأَتون في المراكب الفخمة وفي مظاهر الأُبهة والنعمة.

وكان إذا غشى زوجها حجرة من الحجرات الأرستوقراطية عقب عمل، وانبعثت منه رائحة السماد والعرق أَسرعت فأحرقت أقراصًا ذات دخان طيب الرائحة، فيضحك الكونت قائلًا إنها بهذا البخور تحرق الأَرواح القذرة.

***

وغضن وجهه العمل المتصل والجهد العقلي ومتاعب زوجته حتى ليحسب أَنه قارب السبعين وهو لا يزال دون الستين، وأَخذ الشيب يشيع في فوديه ولحيته، ولكن لا يزال لبدنه حيويته وقوته، ولعينيه بريقهما ويقظتهما، ولن يخمد هذه الحيوية أَو يطفئ ذلك البريق إلَّا الموت.

ويبدو في وجه الكونت ما يبدو في وجه القديسين من الهدوء والسكينة والاحتشام، كما يبدو ذلك في هيكله كله، ومرده إلى ما كان يملأَ رأَسه أَبدًا من التفكر في رسالته.

على أَنه يتخفف أَحيانًا من همه فيضحك مع الضاحكين ويتندر، وتعود إليه عذوبة روحه ونشوة نفسه حتى لكأَنه ألقى عن كاهله عشرين سنة، ولكنه يحتفظ بوقاره وشخصيته، وما زاره أَحد في جده أَو مرحه إلَّا وجد نفسه مأخوذًا بقوة هذه الشخصية، وما استطاع أَحد قط سخر منه ولم يره أَن يسخر منه وهو بين يديه مهما لبس من ثياب أَو عمل من عمل.

وكانت تصدر منه أَحيانًا كلمات يعجب لها سامعوه، ويحارون في تفسيرها كما نحار لأَنها لا تشاكل حياته الجديدة، ومن ذلك قوله لقوم يُجادلونه في الذهاب إلى حيث يشهدون ساره برنار وكانت يومئذ في موسكو: «إِني شديد الأسف لأني لا أستطيع أن أذهب كذلك»، ولقد كان ينكر عليهم ذهابهم، وراح ينقم على الأَغنياء ترفهم القائم على جهود الفقراء، ومن ذلك أَيضًا قوله وقد رأَى فارسين على جواديهما: «ما أَجمل وأَبهج أَن يكون المرء وجيهًا، ما أَجمل ذلك!».

وكان يُؤلمه أَشد الأَلم ما يعلم من خطأ الناس فيما يتصل بسلوكه وآرائه، أَو تعمدهم إِظهاره في صورة باطلة، تشعر بادعائه أَو نفاقه أَو طلبه الشهرة، ولكنه كان يتأسى بمن خلوا من قبله فما سلم مصلح قط من سخرية الناس ولا من أذاهم.

رأى صورة رسمه فيها أحد المصورين عاري القدمين فقال: «لقد خلع نعلي، وإِني لأشكره أن أَبقى لي سروالي، إِنها حقًا غير طبيعية وفيها كثير من الادعاء، أَلا يعلم أَني لست أمشي حافيًا؟ إِني لم أخلع نعلي على أعين الناس إِلَّا مرة واحدة، ولقد كان هُناك لسوء حظي ورأى ذلك مني».

وأَدى تغيره هذا التغير وشدة تمسكه بآرائه وإِيمانه بصلاحيتها، وعنفه في مجادلة من ينكر ذلك أَو يتشكك فيه، إِلى مُجافاته كثيرًا من أَصدقائه ومُجافاتهم إِياه، ومن هؤلاء صديقه الحميم الشاعر فت، فقد راح تولستوي يقول عنه: «إِنه لا يطلب من الحياة إِلَّا سريرًا ناعمًا، ولحمًا جيد الطهي، وزجاجة من خمر طيبة، وزوجًا من الجياد الكريمة».

ولكن آراءه من ناحية أُخرى قد جذبت إِليه من المريدين والمعجبين ممن سرهم أَعظم السرور أَن يكونوا له تلاميذ وأَتباعًا، أَضعاف ما فقد من الأَصدقاء، ومن هؤلاء من سوف يكون لهم شأَن خطير فيما بقى من حياته.

ونذكر من أَتباعه وتلاميذه فلاديميرشرتكوف وهو ضابط شاب في الثلاثين عظيم الوجاهة، من الأرستوقراط، كان والده قائدًا في حاشية القيصر، وكانت أُمه من أعرق

الأُسرات، وكان الناس يتنبأون له بمستقبل عظيم، ولكنه آثر اعتزال الجيش ليتفرغ للخدمة الاجتماعية. فقد آمن بعد اتصاله بتولستوي سنة ١٨٨٣ أن الجندية لا تتفق وحقيقة المسيحية، وتحمس لأُستاذه وصار من أكبر العاملين على إذاعة مبادئه، وسوف يظل من أَقرب أَصدقائه إليه، ومن أَكبر المخلصين له المعجبين بما جاء به، وكثيرًا ما كانت تصل مناصرته تولستوي حد التعصب له.

وقد قدم إليه شرتكوف بعد عام من معرفته صديقًا له يُدعى بيروكوف، وكان كذلك ضابطًا بحريًا، وسرعان ما انجذب إلى تولستوي وقد أَحب حديثه ثم اعتنق مبادئه، وصار من أَقوى العاملين عليها.

وتحمس لتولستوي من رجال الثقافة الروسيين وغير الروسيين: سولوفيوف الفيلسوف، وكان من نابهي العصر وأَعلامه في الفلسفة، وجاي الرسام النابه، وبولانجير المهندس، وجارنفيلد الكاتب الفنلندي الذي ترجم كُتب تولستوي وعاش وفق مبادئه، ورسانوف الناقد الأدبي الذي أَعلن قرب وفاته أنه كان جاحدًا فآمن بالله على يدي «أَعظم الرجال شأنًا ليو تولستوي»، وجولد نوايزرْ رجل الموسيقى الموهوب لويز المرمود الإنجليزي، الذي أعجب به وبمبادئه، والذي ظل صديقًا له وكتب ترجمة حياته وترجم كُتبه إلى الإنجليزية.

وممن نفذوا مبادئ تولستوي عملًا، أَمير شاب لم يره قط يُدعى خلكوف وقد أَعطى أكثر أرضه للفلاحين، وأخذ يعمل بنفسه بغير أجر حتى مرن على العمل، ثم صار يقبل أن يُستأجر، ولقد أعلن جحوده بالكنيسة الأورثوذكسية، ولما رأَت فيه الحكومة مثالًا خطرًا فقد نفته إلى القوقاز، ثم نقلته إلى ولايات البلطيق فتحمل آلام النفي راضيًا صابرًا في سبيل عقيدته، وفي سنة ١٨٩٨ سمحت له الحكومة بمغادرة روسيا فذهب إلى إنجلترا حيث عاش بين نفر من أتباع تولستوي وتلاميذه.

ومنهم فنرمان، وهو شاب يهودي في التاسعة عشرة، جاء إلى ياسنايا يطلب العمل، ثم اعتنق الأورثوذكسية وفق تعاليم تولستوي، وعمل في إحدى المدارس زمنًا

حتى جُند، وقد ظل مُعجبًا بتولستوي طول حياته وكتب ترجمة له.

ومنهم ماري ألكسندرا شمدت، وكانت رئيسة مدرسة من أحدث مدارس البنات الأرستوقراطية في روسيا، ولما قرأت كتب تولستوي اعتزمت أن تغير حياتها، ولقد عظم أخلاصها له وإقبالها على مبادئه، ولقد رفعت من بيتها صور القديسين ووضعت محلها صور تولستوي، وتحملت شقاء العيش والفاقة في سبيله، وكانت تكتب كُتبه المحظورة بيدها وتبيعها لتأكل، ولتذيع في نفس الوقت مبادئه، ثم انضمت إلى الجماعات التي تألفت في روسيا لنشر تعاليم تولستوي، وظلت بقية حياتها تعيش عاملة بيديها مُؤمنة مُتحمسة لمبادئ الفيلسوف الكبير.

ومنهم ناظر مدرسة يُدعى أورلوف، عاش عيشة الزهد والتقشف الشديد، ليعين تسعة من الفقراء، وكان رضى النفس أَبدًا مُطمئنًا على ما به من خصاصة وما يُعاني من مرض.

ومنهم فيدوروف، وهو أَمين مكتبة في أحد المتاحف، وكان تولستوي يُسميه القديس، فقد عاش في كوخ ليستطيع أَن يمد بمعونته الفقراء.

ومنهم سوتايف الفلاح، وقد كان يعيش وأُسرته وفق تعاليم المسيح كما صورها تولستوي، لا يمتلك شيئًا ولا يمتلكون، وإنما يتعاونون في عملهم ليأَكلوا، وليتصدقوا بما بقى لديهم، ولقد عوقب هذا الرجل بالسجن لأَنه رفض الخدمة العسكرية وأَنكرها لأَنها شر يجب القضاء عليه.

***

كان تولستوي يشع الإيمان على من حوله، فإذا جلس الناس بين يديه وأَنصتوا له أَحسوا أَنهم تلقاء رجل ليس له في الناس من مشبه، فيقع كلامه في نفوسهم وكأَنه يتنزل من أُفق أعظم من أن يكون أُفق مصلح فحسب، وسرعان ما تألفت في روسيا وفي خارج روسيا جماعات لنشر مبادئه، فكان منها عدد في هولنْدا وفي إنجلترا وفي وسط أُوروبا وفي أمريكا.

وعمل تولستوي بمعونة شرتكوف وبيروكوف وغيرهما، على إصدار قصص شعبية صغيرة ضئيلة الثمن، عُرِفَتْ باسم «الوساطة»، والقصد منها بث آرائه الجديدة مُغلقة في هذه القصص، وقد كتب تولستوي بعضها، وهي التي جمعت فيما بعد في كتاب عنوانه «ثلاث وعشرون قصة»، واختار أَصحابه بعضها من الآداب الأُخرى وترجموها إلى الروسية.

وأَسست جماعات من أتباعه في روسيا وفي خارجها ما عُرِفَ باسم «المستعمرات التولستوية»، حيث أَرادت كل جماعة أَن تعيش وفق ما يدعو إليه، ولكن هذه المستعمرات لم يُقدر لها البقاء طويلًا ولقد كان تولستوي نفسه غير راضٍ عنها لأَنه كان يراها مظهرًا من مظاهر الاهتمام بالشكل دون الجوهر ، مما يُؤدي إلى الفشل عند أَول صعوبة تعترضه، والجوهر عنده أَن يصلح الناس نفوسهم قبل كل شيء وذلك بفهم المسيحية على حقيقتها، فإنهم إن فعلوا ذلك عرفوا كيف يسلكون في الحياة المسلك الذي يُشاكلها وذلك أَينما كانوا، وبدون هذا الفهم لا يستطيعون شيئًا.

وكثيرًا ما نادى تولستوي بأَنه ليس هُناك ما يُسمى مبادئ تولستوي أَو تعاليمه فليس إلَّا المسيحية الصحيحة، وإذا تفطنت النفوس إليها وعاشت على مقتضاها وجدت بذلك أَنها تحيا الحياة الصحيحة.

ومما قاله تولستوي في هذا «سوف أموت وسوف يقول القائلون إن تولستوي علم الناس أن يحرثوا وأن يحصدوا وأن يصنعوا الأحذية، بينما ينسون أَهم شيء دأبت على قوله مدى حياتي، ذلك لشيء الوحيد الذي به صدقت، والذي أراه فوق ما عداه».

وقال بعد ذلك بسنوات «ينبغي أَلَّا يبحث الإنسان عن صور جديدة للحياة؛ لأَن الإنسان إذا فعل ذلك انصرف همه إلى ترتيب حياته في شكلها الخارجي.. ليعمل كل امرئ عمله على أَلَّا يتعارض تعارضًا شديدًا مع ما يعتقد، وليعمل على أَن

يتحسن في الوضع الذي هو فيه، فعندئذ يقع عفوًا على الطريقة التي تصلح له، ويجب إهمال المظهر الخارجي للحياة ما أمكن.. لا تعن نفسك به، أد عملك فحسب».

وفي سنة ١٨٩٩ كتب في مُذكراته عن لقائه دوشان أحد أتباعه في المجر «تحدثت مع دوشان، وحيث أَنه جعل نفسه مُمثلي المجر، فقد سأَلني نصحى فيما عسى أَن يسلك، ولقد اغتنمت هذه الفرصة لأُوضح الأمر لي وله؛ وقلت إِن من أَكبر الخطأ أن يتكلم عن مبادئ تولستوي وأَن يأتي ليطلب نصيحتي.. ليس هُناك ما يُسمى طوائف تولستوي ولا مبادئ تولستوي، ليس هُناك إلَّا تعاليم واحدة هي الحق؛ ذلك الحق الأَبدي الشامل الذي تُوضحه لي ولغيري من الناس الكُتب المقدسة، فإذا فهم المرء هذه التعليمات فإنه يتصل اتصالًا خالصًا بالله، ولا يشعر بعد ذلك بحاجته إِلى أَن يسأَل أَحدًا ما».

وبعد فهذا تولستوي في تلك السنوات العشر، ونعود فنقول يا لها من سنوات ويا له من رجل؛ ذلك الذي حاول أَن ينزل إِلى مستوى العامة من الناس، فارتفع درجات عن مستوى من في عصره جميعًا من الناس!

# عودته إلى الفن!

أشفق محبو الفن في روسيا من ذلك التغير الذي طرأَ على حياة تولستوي؛ إذ كانوا يرونه مفخرة بلادهم؛ فبه صارت لهم في أدب الدنيا صفحة فذة، وازداد إشفاقهم بعد موت دستويفسكي الذي ذهب له من الصيت في أُوروبا أَكثر مما ذهب له منه في روسيا، وكان أَشد الناس إشفاقًا ترجنيف ذلك الذي كان يعد تولستوي الرجاء الوحيد لأَدب قومه اليتيم، والذي قال عنه: «إني أَرى فيه فنانًا لست أستحق أن أنحني لأَحل له رباط حذائه».

ولقد تناول ترجنيف قلمه بيده المرتعشة، والموت منه قريب، وكتب إليه سنة ١٨٨٣ كما أَسلفنا يرجو منه أَن يعود إلى الأَدب، ومات ترجنيف قبل أَن يصله رد تولستوي، وظل تولستوي يصنع النعال ويخصفها، ويدع خيطه وإبره ليتناول منجله أَو فأَسه.

على أَنه كتب في سنة ١٨٨٥ تلك القصص الثلاث والعشرين، فكانت مُقدمة لعودته إلى الفن، وهي قصص جليلة القدر قالت عنها كارمن سلفا ملكة رومانيا حين قرأَتها «أَحدثت هذه القصص التي كتبها هذا الرجل العظيم وهذا الفنان العظيم من الأَثر في نفسي ما يفوق ما أَحدثته كُتبه جميعًا، وإني أَراها أَحسن قصص كُتبت قط.. إن الفن في نسقه الأَعلى شاخص فيها، وفيها الحق الأَبدي ولذلك فهي كدانتي وشكسبير والإنجيل سوف يكتب لها الخلود، ولو كانت هي وحدها ما كتب تولستوي لاستحق بها أن يعد من أكبر كتاب الدنيا، ولم تخالجه قط فكرة وضيعة أَثناء كتابته إياها، بل كان صديقًا للإنسانية المتأَلمة وكان مسيحيًا صحيحًا».

وفي سنة ١٨٨٦ عاد تولستوي إلى الفن بنشر قصته «موت إيفان إليتش» التي كتبها في تلك السنة، واستبشر الناس في روسيا وفي أُوروبا بهذه العودة التي طال بهم

ترقبها.. ولم يعد يصدق أهل أوروبا أنه طلق الفن طلاقًا أبديًا ليكسب قوت يومه فلاحًا كما ذاع بينهم مُنذ انقطاعه عنه.

عاد تولستوي إلى الفن ليجعله وسيلة لإذاعة آرائه بعد أَن رأَى من تعسف الرقابة ما رأَى، ولن يكون الفن مُنذ اليوم غاية في ذاته، وإنما سوف يكون أَداة يسخرها لخدمة الناس.

وأَعقب تولستوي قصته الجديدة بمأساة تمثيلية عن حياة الفلاحين سماها «قوة الظلام»، وقد مُنِع تمثيلها في روسيا ومُثلت في باريس لأَول مرة سنة ١٨٨٨، ثم كتب «سوناتة كروتزر» و«الشيطان» سنة ١٨٨٩، ولم تكن هذه قصصًا طويلة، فلم تزد الأُولى عن سبعين صفحة، وبلغت الثانية نيفًا ومائة، وكانت الثالثة قرابة ستين، أَما المسرحية فهي في حيز المأَلوف من المسرحيات.

***

عاد تولستوي إلى الفن، ولكن ما يحيط به في بيته اليوم غير ما كان يحيط به وهو يكتب «الحرب والسلام» و«أناكارينينا»؛ فليس له مثل ما سلف من معونة زوجته ولا من ابتهاج روحها بفنه، وليس يسكن إليها اليوم لتخفف عبء الحياة عنه، فهي نفسها العبء الذي ينقض ظهره.

كانت تضيق الكونتس بمن يغشى بيت زوجها من الناس، وكانت تسميهم «المظلمين»، وكلما أَقبل منهم فريق اشمأزت نفسها وعجبت ساخرة أن يكون أَمثال هؤلاء جُلساء رجل من العباقرة، وكثيرًا ما قالت إنها لم تقع قط بينهم على عاقل واحد.

وكانت تعني بكلامها هذا الفقراء والمجهولين، فقد كان يزور تولستوي كثيرون من النابهين في مُختلف فروع المرفة لا من روسيا وحدها، ولكن من جهات الدنيا جميعًا.

واشتدت كراهية الكونتس لصديقه شرتكوف؛ إذ كانت ترى من زوجها ميلًا

شديدًا إلى الأَخذ بنصحه، وفي هذا ما يتهدد سُلطانها عليه، ولقد كتب شرتكوف ذات مرة إلى تولستوي، ولم يكن يعلم أَن لامرأَته الحق أَن تقرأَ ما يرد إليه من رسائل، فعبر له عن أَسفه لما ينجم بينه وبين امرأَته من متاعب أَحيانًا، وكان قد شهد منظرًا بينه وبينها آلمه، وعظمت ثورة الكونتس إذ قرأَت هذه الرسالة، وراحت ترمي شرتكوف أَنه يمشي بينها وبين زوجها بالوقيعة قائلة في سُخرية مريرة «وأَظن أَن ذلك منه هو المسيحية!».

وكانت تغار الكونتس من بنتها إذ ترى إقبال أَبيهن عليهما وازوراره عنها، فقد كانتا تكتبان لأَبيهما مُذكراته وتنقلان ما يكتب من فن. قالت الكونتس «لقد كان يبهجني في الأَيام الماضية أَن أَنقل ما يكتب، وإنه اليوم يدفع ذلك دائمًا إلى بنتيه، ويحرص على إخفائه عني، إنه يثير ثائرتي بعمله هكذا في إحكام على إبعادي عن حياته الشخصية، وهذا جد مُؤلم، إن هذا الجفاء يدفعني أَحيانًا إلى أَعماق اليأس حتى لأَشعر بالرغبة في أَن أَقتل نفسي أَو أَن أَهرب أَو أَن أَحب شخصًا آخر، أَو أَن أَفعل أَي شيء أَتخلص به من رجل أعتقد على الرغم من كل شيء أَني أَحببته طول حياتي لسبب لا أَعرفه، مع أَني أَرى ألآن في وضوح أَني قد جعلت منه معبودي، دون أَن أَتبين أَنه ليس فيه من شيء إلَّا عرامة شهوته».

وكانت تعمد الكونتس إلى ما يُضايقه، ومن ذلك أَنها راحت تقول عنه إن مبعث أَعماله جميعًا الغرور والأَنانية، ثم أَخذت تنقل مُذكراته قائلة «إنه أَخذ يتململ من نقلي مُذكراته فإنه يحب أَن يُمزقها كي يظهر أَمام أَطفاله وأَمام الناس في ثوب القديسين فحسب.. إن غروره لعظيم». ومن ذلك أَيضًا أَنها قدمت إلى المحكمة من غير مشاورته قومًا من الفقراء أَخذوا خشبًا من غابات الكونت لأَنه لم يكن يمنع أَحدًا من ذلك، ولشد ما تأَلم حين عَلِمَ بذلك، قالت زوجته: «لقد أَشرف على اليأَس إذ عَلِمَ أَنهم سُجنوا، فلم يستطع أَن ينام بالليل وكان يقفز من سريره، ويذرع الثوى وهو يشهق طلبًا للهواء، ولا ريب أَنه أَنحى باللائمة علي!».

ثم تستشعر الندم فتكتب: «لماذا يعاقب الناس باسمي في حين لا أَضمر الشر

لأَحد؟ لقد بكيت النهار كله وعاودني مرض حلقي، ولقد اشتد أَسفي على نفسي.. لقد تفكرت جادة في أَن أودع كل من حولي، ثم أَتمدد على أحد قضبان سكة الحديد».

ويبلغ النزاع بينهما أَشد حالاته في سنة ١٨٩١؛ حين يعلن إِليها الكونت أَنه لا يطيق أَن يأَخذ مالًا ثمنًا لمؤلفاته، وأنه يريد أَن يتنازل عن حق طبعها، ويكون بينهما من الجدل والعناد والعنف مثل ما كان منه غداة فاتحها برغبته في التنازل عن مُلكه أَو أَشد من ذلك، ويضطر هنا كذلك أَن يسلك سبيلًا وسطًا فيكتفي بالتنازل عن حقه فيما صدر من المؤلفات مُنذ سنة ١٨٨١، ويزمع أَن يعلن ذلك في الصحف، فيبيح لكل امرئ ترجمتها وطبعها في روسيا أَو في خارج روسيا.

ولا ترضى زوجته بهذا فتتحداه ذات يوم قائلة: «إِنها سوف تكتب على تلك الكتب أَنه وإِن تنازل صاحبها عن حق طبعها إِلَّا أَنه لا يليق بأَحد أَن ينتفع بما هو في الواقع حق أَولاده»، ويُقابل ذلك منها بشيء من الفتور. ثم يقول إِنها إِن كانت تحبه حقًّا فمن واجبها أَن تُؤيده في هذا التنازل، وينطلق معرضًا عنها فيبلغ فتوره من نفسها أَكثر مما يبلغ قلقها بسبب ما تتعرض له ثروتهما من نقص «وبعد الغذاء قلت له إِني آسَف لما فهت به من كلام لم يرضه، وسوف لا أَكتب شيئًا على تلك الكُتب لأَني أَكره أَن أُسبب له أَلمًا، ثم بكيت وبكى».

ولكن الأَمر لم يقف عند هذا، فقد حدث بينهما بعد ذلك بأَيام، وقد عاد إِلى الكلام في هذا الموضوع، ما وصفته الكونتس في قولها: «لقد قلت له إِنه ذو طمع وذو غرور، وقال لي إِني أجري أَبدًا وراء المال وأَنه لم يرَ امرأَة في مثل جشعي وغبائي، وقلت إِنه عمل على إِذلالي طول حياتي لأَنه لم يعرف قبل كيف تكون مُعاملة المرأَة المهذبة، وقال إِنما أُفسد الأَطفال بالمال الذي أستحوذ عليه، ثم صاح بي أَخيرًا: دعيني وحدي! فتركته وانصرفت».

وتعتزم الكونتس للمرة الثانية أَن تنتحر، فتكبت في مُذكراتها أَن النزاع المتصل

بينها وبين زوجها قد أَنهك بدنها، ثم تمضي إِلى حيث تريد أَن تقتل نفسها، ولكن تصادف أَن قابلت أَحد ذوي قرباها فعادت معه إِلى البيت. ثم جاء الكونت فترفق بها وقبلها، فطلبت إِليه أَن يعلن ما اعتزم إِعلانه من تنازل وأَلا يذكر هذا الأَمر أَمامها بعد ذلك، ولكنه لن يفعل ذلك إِلَّا إِذا كانت تفهم أَنه مما يجب عمله، وهي لا تريد أَن تكذب فما تفهم ذلك أَبدًا.

وكتبت في اليوم التالي: «هذا جرح لن يلتئم أَبدًا؛ لقد ذهبت مرتين لأَطلب إِليه أَن يذيع تنازله عن حقه في طبع كُتبه الأَخيرة، ليطلع الناس ما شاء على ما بينه وبين أُسرته من خلاف، فليس ذلك بضائري فإِن ما أَنال من مال ببيع كُتبه إِنما أنفقه على عياله».

وعادت لهجتها إِلى العنف فكتبت بعد ذلك «إِن السبب الذي لا سبب غيره في ذلك كله إِنما هو غروره، إِنما هو ظمأه المتصل إِلى الصيت، ورغبته في أَن يتحدث كل إِنسان عنه».

ولقد ظلت كُتبه بعد ذلك مصدر شقاء عظيم له؛ فقد عادت الكونتس بعد سنوات تحاول الانتحار ذات يوم عقب خلاف شديد بينها وبينه، فجرت إِلى حيث أَلقت بنفسها في الثلج صائحة: «ليأخذوني إِلى مقر الشرطة أَو إِلى مستشفى المجانين، وجرى زوجها وليس عليه إِلَّا نصف ملابسه فأَدركها وعاد بها إِلى داره».

وأَرادت الكونتس في سنة ١٨٩١ أَن تقسم ثروة زوجها بينها وبين أَولادها، وكان تولستوي يدير لهم ظهره كلما فاتحوه في ذلك لأَنه كان لا يزال يأَمل أَن يتنازلوا عن هذه الثروة للفلاحين، ولقد سأَله أَكبر أَبنائه حين تخرج في الجامعة ماذا يتخذ لنفسه من عمل، فقال له اذهب فكن تابعًا لأَحد الفلاحين.

وأَلحوا في التقسيم فتركهم يفعلون ما يشاءون، وقسمت الكونتس الثروة بين أَبنائها وبناتها بعد خلاف شديد شجر بينهم، ورفضت ماري كما رفضت تانيا أَن تأَخذا نصيبهما، وسر أَبوهما بقدر ما غضبت أُمهما، ولكن ماري حين تزوجت بعد

ذلك بثمان سنوات شابًا أرستوقراطيًا لا يمتلك إلَّا قليلًا من المال عادت فاستولت على نصيبها، وقد كانت أُمها تحتفظ لها به.

***

كانت قصته «موت إيفان إليتش» من أَحسن قصصه القصيرة، وهي العرض الفني لمعاني كتابه «في الحياة»، فما لم يقم في النفس ذلك الشعور الحكيم لم يكن للحياة معنى.

كان إيفان إليتش قاضيًا من مُثقفي العصر لم يفهم من الحياة إلَّا ما يتطلبه الشعور الحيواني، وما زال في لهوه حتى أَصابه المرض، ثم رأَى نفسه يذوي شيئًا فشيئًا حتى دنا من الموت، وإذ ذاك أَحس بفراغ حياته من المعنى، ثم مات، ولم يترك بعده أَثرًا في قلب أَي إنسان.

وتبلغ هذه القصة مبلغًا عظيمًا من الروعة، إذ يصور تولستوي الحياة الحيوانية لإيفان وإذ يصور ما يحيط به من حسرة عند موته، وهو في ذلك كله يتناول مسائل طالما تفكر فيها بعقله قبل أَن يعرضها هذا العرض الفني الجميل.

***

أَما «سوناتة كروتزر» فهي وإن تكن أَخف وزنًا من سالفتها من حيث الفن، إلَّا أَنها أَعظم خطرًا من حيث صلتها بحياته، ومن حيث أَهمية موضوعها، ثم لما أَثارته من ضجة هائلة حين تناقلتها الأَلسن وقد منع نشرها، وما صحب هذا المنع من صخب وتنديد.

«سوناتة كروتزر» هي قصة الزوجة الخائنة، أَوحاها إليه بادئ الرأَي ما قام في رأَسه من معنى مُؤداه أَن الزواج يعوق المرء عن أَن يبلغ أَسمى ما يستطيع من الكمال.

ثم إن رجلًا صادفه في القطار ذات يوم فراح يقص عليه في حزن عميق ما عانى من خيانة زوجته، ووعى تولستوي ما قاله الرجل وتحرك له قلبه، وحدث بعد ذلك أَن

زاره في ياسنايا أَحد نابهي الممثلين وهو بلجاكوف، وأَلقى أَمامه بعض الفصول القوية المقتبسة من دستويفسكي، فأحب تولستوي أَن يُؤلف شيئًا قويًا يُقتبس منه، فلم يجد خيرًا من الموضوع الذي في رأَسه، والذي حركت به قلبه شكوى ذلك المسافر، ثم إِن أَحد أَبنائه عزف مع معلمه «سوناتة كروتزر» لبتهوفن فاتخذ اسمها تولستوي اسمًا لقصته، وجعل العاشق فيها من أَصحاب الموسيقى.

ترينا القصة تاجرًا ميسورًا يعيش في رغد مع زوجته الجميلة، وقد قدم هذا التاجر ذات يوم إِلى زوجته شابًا من أَحب أَصدقائه إِليه مولعًا بالموسيقى، فصار هذا الشاب يغشى بيت صاحبه، وكانت زوجة صاحبه مولعة كذلك بالموسيقى، ولم يكن يشك التاجر قط في أَمانة صديقه ولا في أَمانة زوجته.

ثم أَخذت الغيرة تدب في قلب التاجر، وأَرته الغيرة أَشياء لم يكن يفطن إِليها من قبل، وما زال حتى باغت زوجته وعشيقها، فقتل الزوجة الخائنة وأَفلت منه الصديق الخائن.

وقد وضع تولستوي في رأَس قصته هاتين العبارتين الإِنجيليتين اللتين نعر بهما فيما يلي «ولكني أَقول لكم إِن كل رجل ينظر إِلى امرأَة نظرة الشهوة فقد ارتكب جريمة الزنا بها في قلبه».. «ويقول له الحواريون إِذا كان هكذا شأَن الرجل مع زوجته* فليس من الرأَي أَن يتزوج الإِنسان، ولكنه يجيبهم بقوله: لا يُمكن أَن يتلقى جميع الناس هذا القول، ولكن من أَلقى إِليهم وحدهم».

كان في هذه القصة جانب من تولستوي نفسه، ولكن ليس معنى ذلك أَنها تُطابق ما كان بين تولستوي وبين زوجته في حياتهما الزوجية، فقد عاش مع زوجته حتى كتابتها ما يزيد على ربع قرن، عيشة مهما تخللها من متاعب فلا يُمكن أَن يتطرق إِليها ريبة.

ونقصد بِأَن القصة تنطوي على جانب من حياة تولستوي، أَن كثيرًا مما جاء فيها

* إِنجيل متى الإِصحاح التاسع عشر: الآية العاشرة، وكان سؤال الحواريين في صدد الطلاق ومتى يجوز.

كان نتيجة لتجربته في الحياة كرأيه مثلاً في عقبى الانغماس في الشهوة زمنًا طويلًا، وكرأيه في أن الحياة الزوجية يفسدها كما يفسد السم البدن ما يكون فيها من علاقات وثيقة مردها إلى الرغبة الجسمية، وأن الخضوع إلى هذه الرغبة مفض إلى الكارثة.

بيَّن تولستوي في «موت إيفان إليتش» كيف يُؤدي خلو الحياة من الشعور الحكيم إلى خلوها من كل معنى وانتهائها إلى الحسرة، وبيَّن في هذه القصة كيف تُؤدي العلاقة الجنسية إلى تسمم الحياة وهلاكها، وهو في ذلك يتخذ من الفن أَداته في إحساس فني لا يفتر شأن كل فنان عظيم، وشأنه هو في كل ما تناول من عمل قوامه الفن.

وصور تولستوي في القصة كيف يُؤدي التبطل والنهم في الأَكل والشرب، والفراغ والشباب، واللهو، وغشيان المسارح وصالات الرقص وقراءة قصص الحب الخليعة، إلى تسعر الشهوة في البدن، وكيف يُؤدي إلى ذلك مسلك الأَوانس في تبرجهن وزينتهن حين يبرزن ليتصيدن الأَزواج في الحفلات، ومسلك المتزوجات حين يردن أَن يظهرن في أَحسن حالاتهن من الفتنة والإغراء فيعملن وإن لم يشعرن مثل عمل البغايا في إبداء سحرهن وزينتهن.

لذلك لم يجد بوزدنيشيف ملاذًا له من إفراطه في إطفاء شهوته إلَّا الزواج، ولكنه لا يصيب في الزواج ما كان يتوق إليه من راحة؛ ذلك لأَنه في الزواج يقضي وطره أَنَّى شاء، فهو لا يخاف شيئًا مما كان يخاف منه وهو أَعزب من وساوس المرض، ومن مُجازفات اللقاء، وينتهي به الأَمر إلى أَن يُباشر زوجته طلبًا للمباشرة في ذاتها لا كما تقضي به قوانين الطبيعة، وبذلك تصبح الزوجة أَو يصبح الزوج أَداة للعملية الحيوانية فحسب. ثم يفضي الأَمر إلى ذلك الزهد أَو ذلك السأَم الذي ينشأ عن الامتلاء والإسراف، وتفسد الحياة الزوجية بهذا السأَم، وتدب الشكوك والوساوس وتسود الدنيا.

ولقد أَراد تولستوي بهذه القصة أَن يصل إلى بيان ما تقضي به الفضيلة في أَمر

العلاقة الجنسية؛ لأَن قيام هذه العلاقة على أَساس من الفضيلة من أَهم ما تكمل به النفس.

ويُعلل ما قوبلت به القصة من صخب بما حمل فيها تولستوي على الزواج؛ إذ أَن المرء يخرج منها بأَن صراعه بين حيوانيته وبين طُهره وسموه الروحي ظل قائمًا في نفسه بعد أَن تزوج، هذا إِلى ما ألمح إِليه من أَن الزواج مما يعوق المرء عن أَن يبلغ أَسمى ما يتوق إِليه من كمال في كل نواحي الحياة.

قوبلت القصة بصخب من كل جانب، فالذين يُؤمنون بالحياة الحديثة وبحرية الحب وسموه، يكرهون من تولستوي تصويره العلاقة الجنسية صورة حيوانية ليس الحب إِلَّا طلاء يخفيها، ورجال الكنيسة يسخطون عليه في دروس وعظية أَقاموها لهذا الغرض في كثير من الكنائس؛ لأَنه يصور الزواج صورة غير ما يصفون من عفة وطُهر ارتباط مقدس، ولقد أَعلن كبير منهم ذات يوم على الملأَ في كنيسته أَن تولستوي خطير على المجتمع، وأَنه يجب وضع حد له.

وسعى رجال الدين سعيهم حتى منع الرقيب طبعها، وذلك على الرغم من أَن القيصر قد أُعجب بها، فإِنهم ما زالوا يدسون دسائسهم حتى أَغضبوا القيصر بأَن أَطلعوه على يد بوبند نستوف على أقصوصة كتبها تولستوي، تدور حول معايب حكم نيقولا، وتم لهم ما أَرادوا ولكن بعد أَن ذاعت منها نسخ مخطوطة في بطرسبرج وموسكو، وكان يجتمع الناس في البيوت لقراءتها جهرًا.

أَما عن أَثر هذه القصة في نفوس قارئيها في روسيا وفي خارج روسيا فمنهم من ذهب إِلى أَنها تُؤدي إِلى عكس ما أَراده تولستوي منها، ومنهم من ذهب إِلى نقيض هذا الرأَي قائلين إِنها تركت أَثرًا طيبًا جدًا في نفوسهم.

ومما لا ريب فيه أَن تناول هذا الموضوع يُمثل ما تناوله به تولستوي من صراحة كفيل بِأَن يثير غير قليل من الإِشفاق والقلق، وبخاصة من جانب المتزمتين من الآباء والأُمهات، ولقد وافق تولستوي نفسه على إبعاد الفتيان والفتيات أَثناء تلاوتها جهرًا

في بيته.

وتنطوي نظرة تولستوي إلى الزواج على كثير من الغرابة، ولقد عزاها من يجهلون حياته إلى ما عسى أَن يكون قد أَصابه من قصور جنسي من جراء إسرافه في الشهوة، وظنوا الظنون بعلاقته بزوجته، ولكنه ظل حتى الثمانين يحس الرغبة في بدنه، كما أَنه حين كتب القصة لم يكن بينه وبين زوجته أَية ريبة كما ذكرنا.

هل كان مرد نظرته هذه إلى ما عانى من متاعب على يدي زوجته، فنفس عن نفسه بما ذكر عن الزواج، وقد غفل ضميره؟ ذلك ما يدعونا إلى الأَخذ به قوله ولما يمض على كتابتها إِلَّا زمن قصير «لا بُد أَن في قصتي شيئًا غير حميد، إِني لأَحس تلقاءها كثيرًا من السأَم كما أَسأَم مما يذكرني بها، لقد كانت هناك أَشياء كريهة فيما دفعني من دوافع لكتابتها، وسوف أُحاول أَن أتجنب ذلك في المستقبل».

ولكنه في سنة ١٨٩١ يثبت عن الزواج قوله «إِن أَهم أَسباب عدم السعادة في الزواج يرد إِلى أَن الشباب يحاطون بما يلقى في نفوسهم عن الزواج أَنه شيء يجلب السعادة، ولكن بَعُد ما بين الزواج والسعادة فهو شقاء أَبدًا، هو ثمن الاستجابة للرغبة الجنسية، وإِنا لنقاسي فيه بقدر ما وعدنا به أَنفسنا من وعود».

وقال في سنواته الأَخيرة لمكسيم جوركي «سوف أَقول الحق في النساء عندما أَضع إِحدى رجلي في القبر، عندئذ أصرح به ثم أثب فأدخل تابوتي وأجذب غطاءه فوقي قائلًا: الآن فلتفعلن ما تردن».

ولقد علق جوركي على ذلك بقوله «إِنه ينظر إِل المرأَة نظرة عداوة لا هوادة فيها، ويحب أَن يعاقبها إِلَّا أَن تكون كتي أَو نتاشا رستوف، مخلوقًا غير ضيق، إِنها عداوة الزوج الذي لم ينجح في الوصول إلى ما كان يطمح فيه من نعيم، أَو هي عداوة الروح "لدوافع اللحم التي تفضي إلى الانحطاط"».

ولقد ساء وقع القصة في نفس زوجته، وعجبت ماذا عسى أَن يقول الناس؟ ثم أَثارت القصة من حنقها عليه ومن بكائها وصخبها وشكايتها ما ترك في أُذنيه وفي

نفسه من الضجيج ما لا يقل عمّا أحدثه ما سمع من صخب خارج داره.

ولقد ساء وقع القصة في نفس زوجته، وعجبت ماذا عسى أن يقول الناس؟ ثم أثارت القصة من حنقها عليه ومن بكائها وصخبها وشكايتها ما ترك في أذنيه وفي نفسه من الضجيج ما لا يقل عما أحدثه ما سمع من صخب خارج داره.

كتبت امرأته في مذكراتها في ديسمبر سنة ١٨٩٠ «إني لأمتلئ الآن رعبًا من الحمل؛ لأن كل إنسان سوف يعلم هذه اللعنة ويردد ضاحكًا ما ذاع حديثًا في موسكو من قولهم: هذه هي المثال الحي لسوناتة كروتزر»، وكتبت في فبراير سنة ١٨٩١ «لست أدري لماذا ربطوا بين هذه القصة وبين حياتنا الزوجية، وكيف فعلوا ذلك؟ ومع ذلك فمن الثابت أن الناس جميعًا ابتداءً من القيصر إلى دياكوف صديق ليو و إلى أخيه، قد أحسوا الرثاء لحالي؛ ولماذا آخذ برأي الناس، وقد أحسست في قلبي أن القصة موجهة إلي؛ لقد جرحتني وأهانني في نظر الدنيا كلها، وقضت على ما كان باقيًا بيننا من الحب؛ وكان ذلك منه على الرغم من أنني طول حياتي زوجة له لم آت خطأ قط».

وأخذت تعنف على زوجها، وترفيه بالنفاق كما رمته من قبل؛ وتقول لو علمه الناس على حقيقته لما رأوا فيه شيئًا يستحق به ما ينسبونه إليه. ثم تدبرت في الأمر، ورأت أن خير وسيلة تخرجها من وضعها أن تسعى إلى القيصر فتوسل إليه أن يأمر بنشر القصة؛ فإن الناس إذا علموا ذلك لم يصدقوا أنها المقصودة بما كتب زوجها...

وأرسلت كتابًا إلى القصر الإمبراطوري تلتمس مقابلة القيصر «لأشرح ما عسى أن يؤدي من الظروف إلى عودة زوجي إلى سالف عمله الأدبي؛ ولأبين أن ما عزى إليه في نشاطه الحالي إنما بني على الافتراء حتى لينذر بالقضاء على نشاط هذا الكاتب الروسي وعلى روحه، ذلك الذي لا تحمد صحته اليوم، ولكنه على الرغم من ذلك قادر على العمل لمجد بلاده ».

وأذن لها القيصر، فلما مثلت بين يديه لقيها بكثير من العطف، وقالت فيما

ذكرت عن زوجها إنه يميل إلى العودة إلى كتاباته الأدبية، وأن قصة طويلة مثل قصته «الحرب والسلام» قد تبلورت في ذهنه، وأنه لا يعوزه إلا شيء من الاعتبار الرسمي يشد أزره ويفتح العمل نفسه.

وسر القيصر إذ سمع بميل تولستوى للعودة إلى الأدب، وقال «أي نبأ هذا النبأ السار! إنه كاتب عجيب... عجيب».

وقال القيصر عن «سوناتة كروتزر» إنها كتبت في صورة يعتقد أن الكونتس تولستوي نفسها لا تسمح معها حتى لأولادها أن يقرأوها...

ورغب القيصر في إظهار عطفه على الكونتس، وعلى زوجها كاتب روسيا الأكبر، فقال إنه يوافق على أن تطبع القصة في المجلد الذي تشمل مؤلفاته كي لا يشتريها إلا القليلون، فيضيق مجال قراءتها...

وسألها القيصر أسئلة عن أسرتها، ثم أبدى أسفه لاعتزال تولستوي الكنيسة ولكنه أظهر لها العطف حين اشتكت من موقف رجال الكنيسة من زوجها وما نقلوا عنه إلى السلطات من أنباء غير صحيحة...

و بعد أن سألها القيصر عما إذا كان يستطيع زوجها أن يدخل شيئًا من التغيير على «سوناتة كروتزر»، وعلم أن ذلك غير ممكن، قال إنه سوف ينظر بنفسه فيما يكتب تولستوى في المستقبل ليرى هل تنشر أو لا تنشر إذا أرسلتها الكونتس إليه...

وطلب إليها القيصر وهو يمد يده إليها مصافًا أن تنتظر حتى يرسل إلى القيصرة لتلقاها...

وعدت الكونتس هذا نجاحًا شخصيًا عظيمًا، وعزته إلى تأثير شخصيتها، وصارت تنقل إلى زائريها وزائراتها ما عدته من ثناء القيصر عليها بعد خروجها من عنده، وتعجبه من أنها لا تزال فتية وجيهة «وهذا يرضيني كأنثى، وأحس أنه كما لو كان أخذ بالثأر لنفسي بعد ذلك الذي عاملني به زوجي؛ فإنه لم يقف دون أن يرفع من شأني في المجتمع فحسب، بل لقد عمل جهده دائمًا على الحط من قدري»...

أما زوجها فلم يرض عما فعلت، وظل يقول دائمًا: إنها مقابلة لم يكن لها من داع قط...

هذا ما أحدثته القصة على صغرها من أثر؛ قال عنها تشيكوف «لست أريد أن أقول إنها عمل عظيم من أعمال العبقرية كتب له الخلود، فما كنت بالذي يقضي في مثل هذا الأمر، ولكنها في رأيي قل أن يوجد لها نظير في خطرها من حيث ما فيها من قوة التصوير، وجمال التعبير، بين ما يكتب الآن هنا أو في الخارج؛ وإنا بصرف النظر عما فيها من قيمة فنية تحمل على الإعجاب العظيم في أكثر من موضع، لنثني على القصة في ذاتها لأنها تثير الذهن إثارة شديدة كي يتفكر، فلا يسع المرء أثناء قراءتها إلا أن يصيح قائلًا: هذا حق أو هذا سخيف».

وكل ما أخذه عليها تشيكوف ما ظهر فيها من جهل تولستوي بما يتصل بالطب وبعض الأمراض؛ فإنه على حد قوله كما يتبين من قصته، لم يعن بقراءة كتاب أو كتابين المختصين في هذا الموضوع « ولكن ذلك العيب لا يلبث أن يطير أمام ما في القصة من خصائص كما يتطاير الريش في مهب الريح».

* * *

أما قصته «الشيطان» فلم تنشر إلا بعد وفاته، وذلك لأنه خشي أن يؤدي نشرها إلى شقاق جديد بينه وبين زوجته؛ وكفاه ما يذوقه كل حين من غضبها.

وهي كسابقتها تنطوي على كثير من ماضيه؛ وتدور كذلك حول الشهوة البدنية العارمة، وهي في واقع الأمر قصته مع أكسنيا إلى مدى عظيم... ثم ما كان يغالبه من شهوة أثارتها في بدنه دومنا إحدى الخادمات في ياسنايا سنة ١٨٨٠ أثناء أزمته الدينية.

وموضع المأساة فيها أن بطلها أرتنيف، لا يستطيع بعد زواجه أن يفصم ما كان بينه من صلة وبين خليلة فلاحة عرفها وهو أعزب، ويشعر أرتنيف من أعماق قلبه أن تلك الفلاحة زوجة له في الواقع وهو زوج لها، ولا يقوم هذا الشعور في نفسه إلا

بعد أن يتزوج زوجة شرعية، وهنا تبدأ المأساة...

وقد عبر تولستوي في هذه القصة ببراعته الفنية، عما فهمه من تعاليم المسيح الصحيحة عن الزواج والطلاق، وفي رأيه أن الزواج يتم فعلًا بين رجل وامرأة تغشاها؛ ولا يصح أن يفرق بينهما بعد ذلك إلا الموت؛ فإن تركها لأمر ما فعليه تبعة ما تقع فيه من مهاوي الرذيلة.

* * *

وأما مسرحيته العظيمة «قوة الظلام» فهي مأساة مريعة محزنة جدًا شديدة الوقع في النفوس، تدور حول البؤس والإثم في بيت فلاح روسي، كتبها تولستوي وقد أجبر على ملازمة فراشه شهرين سنة ١٨٨٦...

و إن ما حازته هذه المسرحية من نجاح هائل أثناء تمثيلها بفرنسا سنة ١٨٨٨ وما ظفرت به من ثناء أقطاب الفن، ليحمل المرء على العجب من مقدرة هذا الفنان الذي لم يكن قبل من كتاب المسرحيات؛ على أن مرد أمره إلى العبقرية فلا عجب إذًا؛ وهل تناول تولستوي شيئًا من الفن أو غير الفن فلم يأت به معجبًا فذًا؟ ذلك أنه يفرغ عليه عبقريته، وينفخ فيه من روحه...

أنيسيا امرأة قروية خائنة لزوجها لأنها لا تحبه؛ وقد دست له السم في طعامه وتزوجت من عشيقها نكيتا وهو فلاح كان يعمل تابعًا لزوجها؛ ولزوجها القتيل بنت من امرأة أخرى قبلها، وقد حملت هذه البنت سفاحًا من نكيتا وولدت غلامًا فقتلته أنيسيا وزوجها... هذا في اختصار هو موضوع المسرحية.

وتنتهي المسرحية بخاتمة رائعة أعجب بها النقدة إعجابًا شديدًا؛ فإن نكيتا يستيقظ ضميره، ويعذبه الندم، ويعلن على الملأ ما اقترف من الإثم، ويطلب العقاب لنفسه، فيدنو منه أبوه، وهو شيخ تقي يخاف الله ويرجو رحمته أبدًا، فيقول لابنه في نشوة روحية وقد رأي ندمه «سوف يغفر لك الله يا بني، إنك لست تجد رحمة من نفسك على نفسك، ولكنك سوف تجد رحمة الله...! الله! الله! إنه هوه»!

وقد مثلت القصة في قصر الإسكندر الثالث، وأعجب بها القيصر إعجابًا شديدًا، ولكن بويند نستسوف كتب له يحذره ما عسي أن تثير القصة حول حياة الفلاح الروسي، وبذلك نجح في منع نشرها في روسيا، وقد ظلت روسيا محرومة منها حتى سنة ١٨٩٥.

ولما مثلت في باريس لقيت نجاحًا عظيمًا، وكان من أشد المتحمسين لها إميل زولا، فأثنى عليها ما وسعه الثناء، وذاعت المسرحية حتى كانت تمثل في ثلاثة مسارح في وقت واحد.

ولم يكن زولا وحده المتحمس لها فقد كتب برناردشو إلى تولستوي يقول: «لست أذكر شيئًا في مجال الدراما كله أثر في نفسي أشد مما أثر فيها الجندي الشيخ في دراستك (قوة الظلام)، وإن منظر المملوكين السكرانين إذ يثنان بشكواها فوق القش وقد رفع أكبرهما الأصغر فوق جبنه وأنانيته، ليحتوي من قوة التأثير ما لا يمكن أن يحتويه مجرد منظر رومانتيكي».

هذا هو تولستوي بعد أن عاد إلى الفن، وهذا هو فنه في طابعه الجديد.

# روسيا تسير صوب الفلق

اشتدت حلكة الغسق في عهد الإسكندر الثالث وفي عهد ابنه نيقولا الثاني، ولكن لكل ليل نهاية، وما تشتد ظلمة الليل إلا ليدبر، ولا بد للصبح أن يتنفس…

بقي الإسكندر الثالث في عزلة تامة عن رعيته ثلاث عشرة سنة؛ يحيط به حرسه وجواسيسه، ويحيط بالناس عيونه من مدنيين ودينيين، وفي وهمه أن روسيا دانت له، وما توه طاعتها إلا لأنه لم يكن يدري من أمرها إلا ما يصف له أعوانه…

واختتم حكمه بسنتين قل أن شهدت البلاد مثل بأسهما. فقد وقعت مجاعة عظيمة في مقاطعات كثيرة سنة ١٨٩٢، وغشى الناس عذاب شديد من الخوف والجوع والمرض والموت!

وخلفه بعد موته ابنه نيقولا الثاني سنة ١٨٩٤، ولا تزال المجاعة في البلاد، ولا يزال الناس في غاشية من العذاب، وأعلن القيصر الجديد كما أعلن أبوه من قبله قوله «إلى سوف أحتفظ بمبادئ الحكم الأوتوقراطي في ثبات لا يتزعزع كما فعل والدي رحمه الله جاعلًا مجهوداتي جميعًا لخير الشعب».

وكان يسخر نيقولا الثاني من رغبة الراغبين من الأمة في اشتراك البلاد في التشريع قائلًا إن «هذه أحلام فارغة»، ولكن سخرية القدر كانت أروع من سخريته، فلسوف يرى بنفسه تحقق هذه الأحلام، ثم ترجف في عهده الراجفة، ويدركه الطوفان فيغرقه وأسرته جميعًا…

لم يجد الإرهاب في مقاومة الأوتوقراطية، وما لبث الناس أن أدركوا أن فئة قليلة من الثائرين مهما بلغ من تحمسهم وبطولتهم لن يفلحوا في القضاء على الحكومة الأوتوقراطية وإن قتلوا القيصر الأوتوقراطي؛ لذلك لم ينته عهد الإسكندر الثالث إلا وقد منى النهلست بالفشل؛ وقد أدرك هؤلاء أخيرًا أن مرد فشلهم إلى أنهم قادة لا

أتباع لهم، فالفلاحون وهم سواد الأمة يخضعون للقيصرية خضوعًا متوارثة مهما اشتدت وطأة الظلم عليهم؛ والمتعلمون قلة تفرقت أهواءهم...

ولكن قوة جديدة سوف تفعل ما لم يفعله النهلست؛ تلك هي الصناعة، ولسوف يكون بدء حكم نيقولا بدء عهد الانتقال في تاريخ البلاد الاجتماعي، ومن ثم في تاريخها السياسي...

أدى استخدام رؤوس الأموال الأجنبية في إنشاء المصانع إلى ظهور تلك الطبقة التي منها نجمت الديموقراطية في أوروبا قبل ذلك بما يزيد على ثلاثة أرباع القرن، والتي سوف تنجم منها الديموقراطية في روسيا عما قريب، وتلك هي الطبقة الوسطي، وما تزعزع الأوتوقراطية في ثورة أو في غير ثورة إلا هذه الطبقة التي تغتني وتتعلم وتطمح أو على الأقل تستنكف أن تستعبد..

وبينما تطمح هذه الطبقة وتمد بصرها إلى أعلى معتزة بالمال والمكانة، ناقمة على أولى الجاه للموروث جاههم الذي لا مبرر له، إذا بها تضطر إلى أن ترد بصرها لتنظر تحتها إلى هؤلاء الذين خرجوا من عزلة الحقول فاجتمعوا آلافًا ومئتين تحت سقف واحد، والذين يشكون من قلة الأجور وكثرة العمل، والذين يتساندون ويتهامسون، وقد أحسوا ما لهم في الإنتاج من أهمية، والذين يبدون أولى مسكنة، ولكن تهامسهم يخيف وتساندهم يشيع من حولهم الرهبة...

لن يرضى أصحاب المال عن الحكم الأوتوقراطي لأنه يستعبدهم وهم ليسوا بعد بعبيد، ولن يرضى العامل عن أتوقراطية صاحب المال، لأنه يستعبده وبرهقه، وهو وإن لم يدر ما الحرية بعد يكره الإرهاق، وبذلك يموت الإذعان شيئًا فشيئًا وتنطوي النفوس على التمرد، ويصبح التغيير أمرًا لا بد منه، لأنه مرحلة من مراحل التطور لن يجدي في صدها طغيان.

وتظهر في روسيا الأحزاب متأثرة بالعوامل الجديدة الاقتصادية، وهكذا ظهرت من قبل في أوروبا، ويكون ظهورها في روسيا أشد إنذارًا بالخطر، لأن روسيا تختصر

المراحل. فهي حين نهضت نهضتها الصناعية وظهر لها في المدن عمال، كانت قد علمت من قبل بالماركسية...

وها هو ذا حزب روسي ثوري ينشأ في عهد الأوتوقراطية، ألا وهو الحزب الاشتراكي الديموقراطي، الذي ينم مجرد ذكر اسمه عن أنه ينظر إلى الأوتوقراطية نظرته إلى شيء متخلف من الماضي لا يصح أن يبقى ساعة واحدة.

ويرى الحزب أول الأمر أن النظام البرلماني لا يكفي لإصلاح الحال على الأساس الاشتراكي المنشود فلا بد من ثورة سياسية تقلب الوضع رأسًا على عقب ثم تمهد الأرض للبناء الجديد.

ولكنهم لا يلبثون حتى يفطنوا أن آراءهم لا يمكن أن تجد دفاع حرًا وهذه الأوتوقراطية قائمة، ومهما يبلغ من عيوب الديموقراطية في وضعها السلطة والقوة في يد فئة من الطبقة الوسطى من أصحاب المال، فإنها تعطى الفرد قسطًا من حرية التفكير وحرية القول يختلف كثرة أو قلة حسب روح الدستور نفسه أولًا، وحسب روح الحكومة الدستورية بعد ذلك.

لهذا يجد هذا الحزب أن أنصاره في صفوف المال، وأن الخطوة الأولى إلى غايته أن تتسع الصناعة فتضم أكثر ما يمكن ضمه من الأفراد؛ فلا بد أن ينتزع هؤلاء الأفراد السلطة شيئًا فشيئًا من مسخريهم، وكلما ساءت حالهم كان تمردهم أشد، وكان هدفهم آخر الأمر أكثر عنفًا.

لذلك نبذ رجال هذا الحزب الإرهاب والعنف، وأخذوا ينشرون مبادئهم بين صفوف المال في هوادة حتى يحين الوقت الذي يثبون فيه وثبتهم.

ولكن حدث أن جاء العنف من ناحية أخرى؛ هي ناحية الطلاب؛ فقد اشتدت وطأة الرقابة على الجامعات حتى ضاق الطلبة بها، وما زادهم ذلك في الواقع إلا كراهة للاستبداد، وحبًا للحرية، وباتت الجامعات من أهم مراكز النشاط السياسي، و إن حرم عليهم ذلك علانية.

وفي الثامن من فبراير سنة ١٨٩٩ حدث تمرد شديد في جامعة بطرسبرج، كان مرده إلى سبب تافه في ذاته، وذلك أن مدير الجامعة كان قد أنذر الطلاب عقابًا شديدًا إذا كدروا صفو ذلك اليوم، وهو يوم الاحتفال بعيد مؤسس الجامعة. فلما كان ذلك اليوم المعلوم تصايحوا بسقوط المدير، وتركوا الجامعة، وهم ينشدون أناشيد الحرية؛ وتصدى لهم الجند في أحد الميادين وأطلقوا عليهم النار، وقتل بعضهم، وجرح عدد كبير منهم؛ واشتدت ثورة الطلاب بعد ذلك، وما لبث أن صارت حركة عامة في جامعات روسيا كلها.

وفي الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٠١ قتل أحد الطلاب وزير المعارف لأنه أمر بالقبض على نحو مائتي طالب من جامعة كييف وبطرسبرج، وجندهم عقابًا لهم على اشتغالهم بالسياسة.

وتقرب العمال إلى الطلبة؛ حتى لقد كانوا يدعون زعماء الحزب الاشتراكي الديموقراطي إلى معونة «رفقائهم الطلبة المضطهدين».

أخذ الاشتراكيون الديموقراطيون يتبعون حركات الطلاب ويتتبعون كل شغب يقع بين العمال وأصحاب المال ليوحوا إلى العمال آراءهم ومؤداها أن لا خلاص لمن يظلون إلا القضاء على الظالمين؛ فالحكومة الديموقراطية هي التي تشرع المال ما تتحقق به سعادتهم...

وأخذ رجال الشرطة يتعقبون هذه الحركات؛ وعملت الحكومة في أكثر من موطن بنصحهم فأعانت على تأسيس وحدات صناعية بين المال، وأمدتها بالمال لتزيد الخلاف بينها وبين أصحاب الأموال، وبذلك ينصرف المال عن السياسة؛ بل لقد كان يعمد الشرطة إلى إثارة الفتنة وتدبير الاغتصاب كي ينشغل العمال بأمورهم... وكان زعيم هذه السياسة وموحي فكرتها زبانوف رئيس الشرطة السريين...

ولكن هذه السياسة ما لبث أن انكشف أمرها، وتبين العمال أن ما يقوله الاشتراكيون الديموقراطيون حق. فلا رجاء لهم إلا في ظل الديموقراطية...

* * *

هذه حال روسيا في عهد نيقولا الثاني؛ عمال في المدن يربطون بين السياسة وبين متاعبهم، وطلاب في الجامعات يمقتون الطغيان وتنطوي نفوسهم على الثورة، وحزب يرتقب الساعة المرجوة ليطيح بالأوتوقراطية، وليس اعتماده على الفلاحين كما كان يرجو النهلست أن يعتمدوا عليهم من قبل، وإنما اعتماده على هذه العناصر الجديدة التي هي بحق عضد الثورة...

على أنه حدث من جانب الفلاحين سنة ١٩٠٢ في مقاطعتي خاركوف وبولتافا حادث اهتمت له الحكومة أشد الاهتمام وذلك لمجيئه من جانب هؤلاء الذين كانوا آخر من تخشى الحكومة منهم. فقد اجتمع مئات من الفلاحين في المقاطعتين، وذهبوا إلى القائمين على مخازن السادة ومعهم عربات، وطلبوا إليهم مفاتيح تلك المخازن، وأخذوها منهم عنوة وملأوا عرباتهم بالحبوب والدقيق، قائلين إن ذلك حقهم؛ ولم يأخذوا شيئًا من الماشية إذ لا حق لهم فيها..

وظلت عوامل السخط تتجمع في البلاد؛ فلما كانت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤، وتبين للناس عجز الحكومة كما تبين لآبائهم بالأمس عجز نيقولا الأول في حرب القرم، واشتد السخط من كل جانب على الأوتوقراطية، وساد شعور القلق والخوف كما يحدث في كل حرب فاشلة، رأى الاشتراكيون الديموقراطيون الفرصة سانحة فألبوا أنصارهم، وبدأت في البلاد نذر ثورة عاتية؛ فقد قتل في يوليو بليف وزير الداخلية وزعيم الرجعية؛ ذلك الذي عاقب في السنة السابقة لقتله وحدها نحو خمسة آلاف بالسجن والنفي بغير محاكمة... ولقد أطلق الروس على العهد الذي أعقب قتله اسم (الربيع).

وفي نونبر سنة ١٩٠٤ اجتمع في بتروجراد مؤتمر قوامه مائة عضو من مجالس المقاطعات، وأعلن المؤتمر أن البلاد تطلب الحريات العامة على القاعدة الدستورية كما تطلب الإصلاح والعمل المجدي، ولا بد من دعوة جمعية لوضع دستور تتحقق به هذه الأغراض جميعًا...

وما كادت تشيع في البلاد قرارات هذا المؤتمر حتى انبعثت المظاهرات، وأقيمت الاحتفالات مؤيدة لها في كل مكان... فقد كان يعد اجتماع مثل هذا في روسيا بعد ما ذاقته من صنوف البلاء كأنه معجزة.

وكان قد حل في وزارة الداخلية بعد بليف الكونت ميرزكي، وهو سياسي ذو بصيرة وذو قلب رحيم، وفي عهده اجتمع ذلك المؤتمر، وأطلق الناس على عهد (الربيع) اسم آخر هو عهد (الثقة)؛ فقد تركت الحكومة الناس يجتمعون ويتشاورون فيما تطلبه البلاد، وكأن بينها وبينهم مودة؛ وأحس الناس صفاء الربيع وبهجته وما يبثه في النفوس من أمل؛ ولكن ذلك الربيع لم يدم إلا خمسة أسابيع ثم اختتم بالدم يوم (الأحد الدامي).

على أن هذه الأسابيع الخمسة على قصرها فترة لا تنسى في تاريخ روسيا، فقد كانت أهازيج الربيع فيها نشيدًا موحدًا يهتف به شعب مستيقظ.. ألا وهو نشيد الحرية...

أما يوم (الأحد الدامي)، وهو التاسع من يناير سنة ١٩٠٥، فهو اليوم الذي أدى فيه الشعب مهر الحرية، وهو الذي يفصل بين روسيا القديمة وروسيا الجديدة؛ فلن تخضع روسيا بعده للأوتوقراطية، ولن تؤمن بوسيلة لخلاصها إلا الثورة.

أضرب العمال في الثالث من فبراير في مصنع يمتلكه في بطرسبرج أحد القسيسين هو الأب جابون، وهذا المنع هو واحد مما أقيم بوحي زباتوف. أما سبب الإضراب فلأن جابون طرد بعض العمال ولم يقبل فيهم شفاعة زملائهم.

وفي اليوم التالي انضم إلى هؤلاء زملاء لهم في مصانع أخرى؛ وفي الخامس من يناير شمل الإضراب عمال بطرسبرج جميعًا، وكان عددهم مائتي ألف أو يزيدون، ويدلنا ذلك على مبلغ ما كان في النفوس من ثورة... ولقد نسى السبب الأول وراح العمال يطالبون بالعدالة بينهم وبين مستخدميهم.

ورأى جابون أن يصانع الثوار فما الأهم، وأوحي إليهم أن يشتكوا إلى

القيصر... وكتب لهم ملتمسًا وقع عليه الآلاف في تحمس؛ والواقع أنهم كانوا يعانون أشد البؤس، حتى لقد كانوا يقولون وهم ينصرفون إلى بيوتهم الحقيرة: هيا بنا إلى مدافننا...

وظهر بين العمال أفراد من الاشتراكيين الديموقراطيين يعيبون عليهم ضعفهم إذ يتوسلون إلى القيصر، وينصحون لهم بالثورة المسلحة؛ ولكن العمال لم يستجيبوا لهم وصمموا على أن يذهبوا في مظاهرة سلمية.

ولم تتخذ الحكومة ما يدل على عدوان أو مجرد أهبة؛ وظن العمال أن السلام مصاحب مظاهرتهم فتوجهوا يوم الأحد التاسع من يناير إلى قصر الشتاء الإمبراطوري وهم جموع يذهب فيهم البصر إلى آخر ما يذهب، ومعهم نساؤهم وأطفالهم، وأمامهم جابون يحمل صليبًا كبيرًا وحوله نفر يحملون رايات من رايات الكنيسة، وكان بعض العمال ينشدون بعض الأناشيد الدينية...

وبوغت المتظاهرون وسط المدينة، وكانوا قد تحركوا من ضواحيها، بالرصاص ينصب عليهم من فرق من الجيش تحت إمرة القائد تريبوف، وسقط عشرات من القتلى رجالًا ونساءً وأطفالًا، وجرح مئات، وتفرق الباقون؛ وهكذا جرت الدماء فكانت مهر الحرية؛ وكانت القطيعة بين الشعب والقيصرية.

وانكفأ المال إلى الضواحي، وقد قر في نفوسهم الثأر والثورة؛ وأقاموا المتاريس أيامًا ورضوا الرايات الحمر ليذكروا بها ما جرى من دماء يوم (الأحد الدامي) كما سموا ذلك اليوم..

أما سخط الناس على القيصر وأعوانه فلن يصفه كلام؛ فهذا الطاغية الذي هزمت اليابان جنوده لا يفلح إلا في قتل شعبه وسفك دماء النساء والأطفال، ولذلك قامت الثورات أيامًا في أكثر الجهات وازداد عدد الضحايا، كما كثرت الاغتيالات، وكان من أهمها اغتيال الغراندوق سيرجيوس عم القيصر...

وأوشكت أن ترجف الراجفة في أكتوبر سنة ١٩٠٥، فها هم أولاء العمال

تستمر الثورة في نفوسهم، والطلبة في جامعاتهم قد انصرفوا عن دروسهم انصرافًا تامًا. فلا هم لهم إلا الاجتماعات السياسية والخطب والأناشيد؛ وكانت الجامعات في ذلك (الربيع) الذي ولى قد استردت من الحكومة استقلالها فلن يقتحمها الشرطة أو الجيش، ولن تتدخل الوزارة في شؤونها؛ وغدت الجامعات بذلك ملتقى المال والطلبة والناس من كل نمط حتى السيدات؛ يجتمعون في حرم كل جامعة ويسمعون أناشيد الحرية من جنود الثورة ويتلقون النشرات والكتيبات.

وشهدت روسيا في هذا الشهر ما يدل على إجماع عام بين الطبقات والأحزاب على اختلاف أعمالها وأسمائها ووسائلها؛ وذلك هو الإضراب الذي بدأ بعمال خط حديدي واحد. ثم ما لبث أن شمل روسيا كلها...

أضرب في اليوم العاشر من أكتوبر عمال السكك الحديدية، وفي الحادي عشر أضربت الصحف. ثم تتابع الإضراب، فلم يأت السابع عشر حتى أغلقت المصانع والمتاجر والمصارف ودور الحكومة والمحاكم، وعيادات الأطباء، ولم يبق في البلاد كلها أحد يعمل؛ ولن يرضي الشعب إلا بالحريات العامة، وبالحكم الدستوري...

وارتاع القيصر وبطانته وأعوانه لهذا الاجتماع المهيب، وزلزلت الأوتوقراطية من أساسها، وأيقن أنصارها أن هذا الشهر هو آخر عهدها بالسلطة.

وشاور القيصر أعوانه، فلم يجدوا أمامهم إلا أحد طريقين: فإما إجابة الشعب إلى ما يطلب، ومعنى ذلك تنازل القيصر عن أوتوقراطيته، وإما إقامة ديكتاتور من رجال الحرب على رأس الحكومة ليقضى على الثورة.

وما يتنازل قط طاغية عن سلطانه إلا مكرهًا؛ لذلك مال القيصر إلى الرأي الثاني، واستدعى إليه عمه الغرندوق نيقولا وكان القائد الحقيقي للجيش إلى جانب القيصر الذي هو بحكم منصبه القائد الأعلى؛ وصارح الغرندوق ابن أخيه بأن معظم الجيش لا يزال في الشرق، وأن ما هو موجود منه في روسيا لا يقوى على صب الثورة عن وجهها... وقد نقل أحد رجال الدولة عن الغرندوق أنه أخرج مسدسه وقال

لأحد رجال البلاط: « أترى هذا المسدس؟ إني ذاهب الآن إلى

القيصر فتوسل إليه أن يعلن قبول الدستور، وإلا فسأقتل نفسي بين يديه».

وأذعن الطاغية على رغمه، وأعلن في ذلك اليوم المشهود السابع عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٥ قبول الدستور، والحكم النيابي؛ وتلفتت روسيا، وهي لا تكاد تصدق عينها، إلى نور الفلق ينهل على الأفق...

* * *

أهو خبر كاذب؟ ذلك ما بات به الروس يتساءلون! فما لبثت البلاد أن سمعت، وهي في فرحها الشامل بأنباء عجيبة جاءت من الأقاليم عن عصابات إرهابية مسلحة تقتل اليهود طمعًا من القيصرية والعناصر الرجعية في صرف الثورة عن وجهها الحقيقي، وذلك بإغراء الناس بالقضاء على اليهود الذين هم في زعمها أصل الشر كله. ثم أخذت تغتال في هذه العاصفة الهوجاء الطلبة والمال من العناصر الحرة، وكانت هذه الفرق الإرهابية تنتمي إلى «جمعية الشعب الروسي» وتسمى «المئات السود»، وقد كانت هذه الفرق السوداء تعمل بوحي الشرطة وأعينهم، ومن ورائهم القيصر وحكومته؛ ولقد قتل هؤلاء «المئات السود» أكثر من أربعة آلاف، وآذوا أكثر من ستة آلاف في كثير من المدن، وذلك في مدى أسبوعين...

ومن جهة أخرى، أدى شعور الثائرين من العمال بخطرهم، ومكانتهم، واعتزازه بما ظهر من قوتهم في ثورة أكتوبر إلى طموحهم صوب السلطة دون غيرهم من الأحزاب، وبخاصة دون الاشتراكيين الديموقراطيين الذين كانوا من جانبهم يزعمون أنهم أجدر وأحق بالسلطة...

وتألف «سوفيت» أو مجلس برياسة تروتسكي قوامه مندوبون عن العمال في مصانع بطرسبرج، وغايته توجيه الثورة بحيث تقتصر ثمارها عليهم وحدهم، وأدى ذلك إلى نفور رجال الطبقة الوسطى عامة والاشتراكيين الديموقراطيين خاصة؛ وهكذا بات أنصار الثورة بعضهم لبعض عدوًا، ولم يدرك ذلك «السوفيت» ولا رئيسه تروتسكي

أنهم بما فعلوا إنما سعوا إلى هلاكهم. فإن الأوتوقراطية هي وحدها الرابحة من هذا الخلاف...

ولم يكد يمضي شهران حتى ظهرت بوادر الرجعية من جديد، وتراءت على الأفق كدرة الغسق...

في نوفمبر دبر «السوفيت» إضرابًا عامًا سببه الظاهري مطالب خاصة بالمال، ومع أنهم أفلحوا في إضرابهم في أوساط العمال، وأخافوا الحكومة، ومع أن العناصر الحرة بوجه عام لم يجاهروهم بالعدوان رضاءً عنهم لإرهابهم الحكومة، إلا أن العناصر الرجعية قد تبينت أنها اليوم ليست تلقاء حركة شعبية عامة وإنما تلقاء طبقة واحدة...

وبدأت حرب الطبقات شيئًا فشيئًا؛ وكانت كلما ازدادت قوى جانب الرجعية أو قوى أملها في القضاء على الثورة... فلما دعا «السوفيت» إلى إضراب عام ثالث في ديسمبر يكون مقدمة الثورة مسلحة للقضاء على العهد القديم كله، ورددوا دعوتهم إلى الجمهورية والاشتراكية، لم تجبهم الطبقة الوسطى. فإنها وإن كانت تكره الأوتوقراطية، إلا أنها كانت لا تذهب مذهب هؤلاء؛ وتخلى عنهم عدد ليس بالقليل من العمال أنفسهم.

وأدى نشاط العمال وشطط «السوفيت» على هذه الصورة إلى فقدان الجيش عطفه على الثورة الشعبية شيئًا فشيئًا؛ ولذلك لبي حين دعي للقضاء على هذا الإضراب الذي لم ينجح في أن يكون عامًا؛ فقد اقتصر على موسكو حيث سيطر «السوفيت» أيامًا؛ ولما سقطت المدينة بعد حوادث دامية عنيفة في يد الحكومة بمعونة الجيش والفرق الإرهابية السوداء في اليوم العشرين من ديسمبر، تلقى القيصر رؤساء «المئات السود» في قصره رسميًا..

وأرسل الجند إلى كل جهة ثار فيها العمال أو الفلاحون فبطشوا بهم وقتلوا عددًا كبيرًا. ولما اجتمع «الدوما» وهو البرلمان الجديد في مايو سنة ١٩٠٦، دهشت الحكومة أن رأت الاشتراكيين الديموقراطيين ينالون عددًا كبيرًا من المقاعد لم يظفر بمثله

أي حزب بينما حصل مالكوا الأرض على عدد قليل جدًا، وراح الاشتراكيون يطلبون توزيع الثروة توزيعًا عادلًا، وذلك بانتزاعها من كبار المالكين وكانت الحكومة أثناء الانتخابات مطمئنة إلى محافظة الفلاحين وإلى ولائهم الموروث للقيصرية. فلما رأت من الاشتراكيين ما رأت، أرادت أن تحل الدوما من أول اجتماع، ولكنها آثرت أن تريث حتى لا يكون عملها باعثًا على ثورة عامة من جديد؛ وبعد اثنين وسبعين يومًا، حلت الحكومة الدوما على يد ستوليبين رئيس الحكومة الجديد، فلم يتحرك أحد...

وبدأ على يد ستوليبين عهد أسود فظيع من الإرهاب لم تشهد البلاد قط مثل حلكته بل لم تشهد الدنيا نظير له، قتل فيه الآلاف بلا حساب، وامتلأت السجون بالآلاف، وأرسل إلى المنفي مئات الآلاف، وظل هذا الليل القاتم قائمًا حتى مصرع ستوليبين إذ رمي برصاصة سنة ١٩١١ في أحد المسارح بكييف فبدأ يتنفس الصبح من جديد...

# جهاد جديد!

اشتدت بالناس المجاعة، وقد فرغ تولستوي مما أثاره تقسيم ثروته من نزاع بينه وبين زوجته فشمر للغوث؛ وانطلق إلى موطن من مواطن المحنة، ومعه ابنته ماري...

ورأى تولستوى الفلاحين لا يجدون قوتًا إلا قليلًا من الخبز الأسود، ولا وقودًا إلا سقوف عششهم وبيوتهم؛ والموت يتخطفهم إذ يسقطون من الجوع.

ولحقت بهما تانيا؛ ثم شمرت الأسرة كلها؛ فأنشأ سيرجي ومعه أخوه إليا مطاعم في مقاطعة تولا؛ وترك ليو دروسه في جامعة موسكو، وذهب يعمل في سمارًا...

وأقام تولستوي وابنته ماري في مقاطعة دانكوفسكي عند صديقه رايفسكي الذي أعانه بكل ما في وسعه. أما الكونتس فقد شق عليها فراقهم جميعًا، وما لبثت أن أخذت بقسط من العمل؛ فأذاعت في الصحف نداء تطلب فيه إغاثة الناس وسرعان ما لبى المحسنون فاجتمع لديها مبلغ كبير أنفق في مواطن الجوع.

وكان تولستوي يقضي نهاره بين الناس، ومن حوله الكوليرا والجدري والتيفوس والإنفلونزا والهزال، لا يخاف ولا يكل، وكان في الليل يكتب المقالات الصحف يستحث القادرين على الجود والعمل، ويندد بالأغنياء الذين يعلمون ما حل بالناس ثم لا يتقدمون للنجدة؛ ولقد كان أثر مقالاته في روسيا عظميًا، يتناقلها الناس فيقرأونها في رهبة واحترام أوشك أن يكون خشوعًا، واشتدت حملة تولستوى على الأغنياء الذين لا يقبضون أيديهم فحسب، بل يبيعون حبوبهم ودقيتهم بثمن غال منتهزين هذه المجاعة.

وكتب تشيكوف، وكان يومئذ يسعف المرضي في ناحية نوفجورود

«تولستوي! آه، تولستوي! إنه في هذه الأيام ليس رجلًا حسب؛ بل هو فوق أن يكون رجلًا، إنه جوبتر».

وكان ينام تولستوي في حجرة صغيرة ليس بها إلا سرير من حديد، فلا بسط ولا ستائر ولا مقاعد، وإنه ليثب من سريره كل يوم إلى العمل ينشئ المطاعم، ويسعف المرضى..

ومات صديقه رايفسكي بالحي؛ ورقدت ابنته ماري؛ ولكنه دائب لا ينكص، وإن بلغ به الجهد مبلغًا عظيمًا، وقد أنشأ ستة وأربعين ومائتي مطعم للكبار، وأربعة وعشرين ومائة للأطفال، كان ينفق عليها مما يصله من المتبرعين من روسيا ومن إنجلترا ومن الولايات المتحدة، وقد كان لصوته دوي كبير في هاتين الدولتين...

وكان يتألم تولستوي كلما رأى أن ما يبذله من جهد على كثرته لا يخفف إلا قليلًا من هول المجاعة. فلا يزال الآلاف في عششهم لا يستطيعون الخروج لحاجتهم إلى الملابس، ولا يزال التيفوس والكوليرا والجوع تفتك بالناس؛ والدواب، وبخاصة الخيل فكانت تموت في مرابطها جوعًا..

وأشد ما كان يؤله ويملأه حنق وحزنًا ما يرى من إهمال الحكومة؛ تلك التي أنكرت أول الأمر أن في البلاد مجاعة؛ حتى كتب تولستوي ما كتب؛ وما يرى من نفاق الأغنياء، وموت ضمائرهم وقلوبهم...

وفوق ذلك لقد كان يكره هذا العمل الذي يعمل وإن شمر له سنتين كاملتين تعرض فيهما للهلاك ولكيد أعدائه؛ ذلك أنه كان لا يراه العلاج الصحيح. فإمداد الفلاحين بالطعام اليوم لا يدفع عنهم الجوع فيما هو قادم من أيامهم، وفي هذا ما يؤيد سابق رأيه في الصدقة وثابت مبدأه في الملك، وهو أنه أصل الشر جميعًا، ومنه هذا الجوع الذي يرى. كتب ذات مرة فيما كتب: «ليس مما يشاكل رأيي أن أطعم هؤلاء الذين يطعمونني، ولكني استدرجت إلى هذا العمل وأجد نفسي أوزع ما يقيء الأغنياء! وإني لأحس ما في ذلك من مهانة، ولكني لا أستطيع أن أنأى عنه بجانبي».

ولعله سمع ما كان يتهمه به الأغنياء فقد كتب إلى زوجته ذات مرة يقول: «لا تظني أني أفعل ذلك كي يتحدث الناس عنه؛ إني ما فعلته إلا لأني لم أستطع أن أذوق

السلام».

وكان أعداؤه يكيدون له؛ فقد كتب مقالة لإحدى المجلات، ولكن الرقيب لم يأذن بنشرها، وكان مع تولستوي صديقه مستر دللن مراسل صحيفة «ديلي تلجراف»؛ فاستأذنه في ترجمة المقالة، ثم أرسلها إلى صحيفته فذاعت في إنجلترا وفي الولايات المتحدة؛ وترجمتها مشوهة عن عمد صحيفة روسية في صحيفة «الجازيت» في موسكو، وكانت لسانًا من ألسنة بوبيدونستسوف، وأضافت عليها ما يشعر أن تولستوي يريد أن يوقد نار الثورة بين الفلاحين.

وثارت ثائرة الحكومة، وراح خصومه يتهمونه بأنه داعية خطير من دعاة الثورة، وأنه لا وطنية له بل إنه لعدو وطنه، وأنه غير مسيحي... وكتبت إليه زوجته ما علمت من أختها تانيا عن أثر مقالته، وكيف أخذ مجلس الدولة يفكر في حبسه، وكيف كان وقعها في نفس القيصر فقد قال: «إن تولستوي أسلمني إلى أعدائي، ولقد تلقيت زوجته، الأمر الذي لم أعمله لغيره، وعبرت له زوجته عن مخاوفها ثم قالت «أين ما تدعو إليه من حب ومن عدم مقاومة الشر؟ وليس لك من حق أن تسبب دماري ودمار أولادي».

وزعمت زوجته للسلطات أن المقالة مزورة، ولكنهم لن يصدقوا ذلك إلا إذا كتبه تولستوي نفسه؛ وقال تولستوي إنه لا يكتب إلا ما يعتقد وما لا يسر الأغنياء، وأنه فعل ذلك اثنتي عشرة سنة سجاًا. على أن زوجته خصلت منه على شهادة بأن ما نشرته « الجازيته لا يطابق أصل المقالة؛ وأضافت من عندها أن زوجها لم يرسل شيئًا إلى صحيفة إنجليزية، وغضب مستر دللن من ذلك، وأشفق على سمعته، فطلب إلى تولستوى أن يعلن أنه أذن له بالمقالة: فأعلن تولستوى ذلك في غير تردد.

وانضم دلل إلى خصومه، برغم ذلك، وراح يتهمه بالجبن قائلًا إنه يستتر خلف ثياب زوجته!

وليس هذا كل ما لقي تولستوى من عنت خصومه وسوء مكرهم، فقد راح

بوبيدونستسوف يرفع التقارير إلى القيصر طالبًا اعتقاله، وكان لهذا تأثير قوى على الإسكندر لأنه فضلًا عن تحمسه للأوتوقراطية كان مربيه؛ وطلب مثل هذا الطلب وزير الداخلية؛ وراح القسيسون في الكنائس يتهمونه في دينه ويحذرون الناس من هذا الجاحد الذي يخدع الفلاحين بما يقدم لهم من خبز ودقيق وقاش! وأعلن كبير القسيسين في خاركوف لعنة الله والكنيسة عليه، ودعا الله أن يقضى القيصر علي شره قبل أن يستشري...

واستأذنت ابنة عمه ألكسندرا على القيصر ودافعت عنه، ولم تذكر اسمه مجردًا بين يديه بل وصفته بقولها عبقري روسيا الأكبر؛ وأصغي إليها القيصر ثم قال إنه «لا يميل إلى أن يجعل منه شهيدًا فيكسب بذلك استنكار العالم المتمدن كله»؛ وكان حقا على القيصر أن يحجم هكذا عن أن يؤذي رجلًا تتجه إليه الأفئدة في المعالم جميعًا وقد باتت لروسيا به مكانة عالية في أدب الدنيا..

وخرج تولستوى من جهاده في المجاعة بما زاده يقينًا من مبادئه واستمساكًا بها إن كان في حاجة إلى زيادة؛ وبما زاده كرهًا لما في أسرته من مظاهر الأرستوقراطية، فقد كتب إلى ابنته تانيا سنة ١٨٩٤ يصف متألمًا تأهب زوجته وبعض أبنائه الذهاب إلى إحدى الحفلات.

***

لم تشغل ذلك الرجل العجيب أعماله المضنية في المجاعة، ولا مقالاته في الصحف، عن أن يكتب كتابًا في آرائه السياسية، كان يعده متممًا لما كتب في الدين وفي الاجتماع، وقد فرغ من هذا الكتاب في صيف سنة ١٨٩٣؛ وجعل عنوانه «مملكة السماء تقوم في أنفسكم»، ولقد فاقت شهرة هذا الكتاب في الشرق والغرب جميع ما كتب في غير الفن.

شرح تولستوى في كتابه هذا ما ينبغي أن تكون عليه السياسة مستمدة من المسيحية كما فهمها؛ قال إن مملكة السماء يمكن أن تتحقق على الأرض، إذا كان

سلوك الناس في الحياة أو كثرتهم مطابقًا لما يمد مظهرًا من مظاهر الشعور الحكيم أو الشعور المسيحي من قوانين خلقية، مسطورة في الإنجيل منقوشة على كل قلب سليم.

وجماع آرائه ذلك المبدأ الذي سماه «عدم مقاومة الشر بالعنف»؛ وهو من مبادئ تولستوى التي ذهب لها صيت عظيم في المشرق والغرب؛ ولعله كان أعظمها ذيوعًا، ولعله أعظم ما اشتهر به الكاتب العظيم وأقوى ما أثر به في أذهان الفكرين والقادة وفي مقدمتهم رجل الهند الفذ، وشهيد الإنسانية العظيم المهاتما غاندي، حواري تولستوي وإن لم يره، وتلميذه الروحي، وخليفته في أكثر مبادئه.

يرى تولستوي أن آلام البشرية جميعًا، مردها إلى العنف والقوة والشر، وهي كلها مترادفات؛ ويري أن تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ العنف على هذه الأرض، والخطأ كل الخطأ في مقابلة العنف بالعنف، ومرد هذا الخطأ إلى أن الناس يتوهمون أن ما كان نتيجة محتومة لجملة حوادث معينة يمكن علاجه بتلك الحوادث نفسها التي أفضت إلى تلك النتيجة السيئة... والصواب الذي لا صواب غيره، هو أن ننظر من فورنا في الأسباب التي أدت إلى ما حدث، وقضى على هذه الأسباب، فننتزع من الشر دوافعه؛ أما إذا قاومناه بمثله فإننا نضع شرًا تلقاء شر وقد نزيده عنفًا وتجددًا.... فضلًا عن أننا نقبل الشر ونأتي ما نكره وما نريد أن نتخلص منه.

وينفي ذلك ما أذيع خطأ عن تولستوي من أنه لا يحارب الشر؛ كلا فهو يحاربه كما نرى وهو يرى ذلك في مقدمه مبادئ الإنسان، ولكنه يحاربه على صورة تتلخص في انتزاع ما يقوم عليه الشر من غل فينطفئ...

لا تلق الشر بالعنف فيستفحل؛ بل أقض على أسبابه تنتزع منه غله فيفزغ فيموت؛ كالكرة من المطاط الممتلئة بالهواء فإنك إن ضربتها توثبت، ولكنك إن أفرغتها مما بها لصقت بالأرض... هذا مجمل رأي تولستوي..

وعدم مقابلة الشر بالعنف، فضلًا عما فيه من «امتصاص» قوة ذلك الشر كما عبر تولستوي، أو انتزاع ما به من غل، يقرب بنا كذلك من الحب المسيحي المنشود

الذي هو قوام «مملكة السماء».

***

ويريد تولستوي أن يطبق رأيه هذا فيرينا كيف نحارب الشر في الدول الحديثة ويأتي بآراء تجعله أجرأ من كتب في روسيا، بل في أوروبا، عن الدولة ولقد كانت آراؤه هذه الديناميت تحت قاعدة البناء العتيد إذا انطلق خر البناء من أساسه.

كان لا يعترف تولستوي بالدولة في وضعها القائم يومذاك، ويراها شرة في شر؛ ولذلك كان من أكبر الهادمين أو كان إمامهم الأكبر؛ ويرى أنه يجب على كل ذي شعور مسيحي ألا يطيع الدولة إلى أي عمل غير مسيحي، وفي مقدمة ذلك الجندية، على ألا تكون القوة وسيلته، بل عدم المقاومة...

ويجب عليه بعد ذلك أن يرفض كل عمل قائم على استلاب جهود الناس أو مؤد إلى ذلك أو حام له؛ فلا يقبل أن يكون قاضيًا أو موظفًا أو شرطيًا؛ ويجب أن يكون سلوكه إنسانيًا لا وطنيًا وأن يكون أساس هذا السلوك ما يؤمن أنه الحق، وفق ما يستشعر من المسيحية الحق...

وما دامت الدولة أساس الشر جميعًا، وما دام أنها أبعد ما تكون عن المسيحية، وإن تنكرت فظهرت في غير حقيقتها، فيجب على المسيحي الحر ألا يعترف بها؛ وأن تكون هذه نظرته إلى الدول جميعًا كفرنسا أو إنجلترا مثلًا، لا إلى روسيا وحدها.

والمسيحي الحر لا يرضى أن ينتفع بشيء من نظم الدولة؛ فلا يجب أن يثري في حمايتها؛ ولا يجب أن يستعين محاكها ولا شرطها؛ ولا يحب أن يستخدم شيئًا قام على مجهودات الغير...

ويجب ألا يمتلك شيئًا، وألا يتداول المال؛ وعليه أن يعمل ليأكل فهو إن ترك العمل واستخدم غيره استعبدهم بماله وامتلك أضعاف ما يحتاج إليه، أما إذا عمل بنفسه هو وأسرته فإنه يمتلك بقدر عمله ويدع لغيره كذلك أن يمتلك فلا يستعبد...

ويرى تولستوي أن عدوان الأفراد، وما قد يأتونه من إثم أو باطل، إنما نتخذه مثالًا لما يجب ألا يكون؛ وبذلك نستطيع أن نندد به، وندعو الناس إلى اجتنابه؛ أما الدولة فضررها أعظم فهي كما بين في أكثر من موضع عدوان في ذاتها، لأن وجودها في ذاته سبب ما يعاني الناس من عذاب مادامت تقوم لتحمي استعباد فريق من الناس فريقًا غيره؛ ولذلك فهي إثم وباطل دائمان، ولكنهما يتخذان مظهر الفضيلة بادعائهما النظام والأمن والعدالة والإصلاح؛ وعلى ذلك فلا يجد فيها المرء ما لم ير الحقيقة ما يجده في عدوان الأفراد من أمثلة يجب اجتنابها، وإنما يجد فيها أمثلة لما يجب أن يكون وهنا الضرر الخفي، ضرر اللص أو الفاسق الذي يلبس مسوح الرهبان.

ويعود تولستوى في هذا الكتاب فيحمل على العلم الحديث وعلى الكنيسة؛ أما العمل فلأنه يجحد بتعاليم المسيح، وأما الكنيسة فلأنها تسيء تصويرها..

ولكن تولستوي على شدة ما في آرائه من هدم هو أقوى مظاهر الثورة، يحرم الثورة وسيلة للقضاء على الدولة لأن الثورة عنف وشر؛ وإنما وسيلته المقاومة السلبية أي «امتصاص» ذلك الشر وتفريغه فتصبح الدولة وليس لها وجود بصورتها الحالية، إذ لم تعد تقوم على شيء؛ وهذه المقاومة السلبية في عدم الاعتراف بالدولة واجتنابها اجتنابًا تامًا.

والمسيحي الحر في رأي تولستوي لا يطيع أحدًا إلا الله فلا يقسم بين الولاء القيصر ولا للدولة لأنه لا يحق له أن يعيش إلا في منأى عن ذلك النظام الآثم.

وينبغي ألا يضع نفسه في موضع من يعمل بقوة خارجية كالتدمير والضرب والقتل مثلًا؛ فإن وضعه الصحيح أن تنطوي نفسه على إنكار الدولة وإن ضرب هو أو قتل؛ فإذا ضل الأفراد ذلك أو كثرتهم، أصبحت الدولة وليس لها وجود...

ويبين تولستوي الفرق بينه وبين الثوار في قوله «إنا نخطئ إذا جعلنا بيننا وبين الأحزاب الثورية مواضع نلتقي فيها؛ إنهم يصيحون بقولهم لا دولة، لا ملكية، لا ظلم، إلى غير ذلك، ونصيح مثل صياحهم؛ ومع هذا فالفرق عظيم بيننا وبينهم؛ فعند

المسيحي لا وجود للدولة، وهؤلاء يريدون أن يهدموها؛ وعند المسيحي لا وجود للملكية وهؤلاء يريدون أن يقضوا عليها؛ والناس جميعًا عند المسيحي سواء، وهؤلاء يريدون أن يقضوا على عدم المساواة: ذلك أن الثوار يجاهدون الحكومة من خارج أنفسهم؛ والمسيحية لا تجاهد أبدًا؛ إنها تحطم قواعد الدولة من داخل النفس».

وعند تولستوي أنه لو رضيت الآلاف المزايدة التي تأبى الخضوع، أن ترسل إلى سيبيريا أو إلى السجن أو أن تجلد، لكان عملها السلبي على هذه الصورة من البطولة، أجدى مما يفعل الثائرون؛ فإن الثورة المنبعثة من داخل النفس والتي تجعل سلاحها عدم المقاومة أبعد أثرًا من الوثبات العنيفة ومن الجمعيات السرية؛ ولكي ينير نظام الدنيا ينبغي أن يغير الناس ما بأنفسهم؛ فلابد من ضمير هادئ لا يتزعزع وإن حمل البدن ألوان العذاب؛ لا بد من ثورة النفوس لا ثورة الأيدي...

وحين يصف تولستوي ما يحل محل «ذلك المجرم»، كما يسمى الدولة، يبدو مغرقًا في الخيال وتبدو آراؤه سديمية إلى حد بعيد؛ فهو يدعو إلى أن يقوم الإخاء والحب والإيمان بين الناس مقام الأنظمة والقوانين والسلطة؛ ولا بد أن يتنازل أصحاب الثراء عن ثرائهم، فلا يأخذون من الدنيا إلا ما يحتاجون إليه على أن يكون ذلك ثمرة عملهم بأيديهم؛ ولا بد أن يتنازل من أفسدتهم الثقافة الحديثة عن آرائهم كي يصلحوا الوضع الجديد؟ ولا بد أن يجعل أصحاب الفن فنونهم يسيرة حتى تصبح في متناول العامة... فإذا قلت الفوارق بين الطبقات أمكن أن تصل إلى الوضع الذي يسوى بينها فيه بساطة الطالب أو تساويها وعلى ذلك فلا محل للحقد والبغض، ولا داعي لسلطة أو قوة ترغم أحدًا، لأنه سوف لا يوجد من يرغم...

ولقد كان تولستوى عظيم الإيمان بمبادئه هذه، فهي أعظم من أن تكون فكرًا يملأ رأسه؛ لأنها ضياء يشيع في نفسه وينير له الدنيا؛ هي إيمان مثل إيمان الأنبياء يملك قياده فلا يخطر قط على باله إلا أنه الحق؛ ولذلك كم كان ألمه عظيمًا أن لم يستطع أن يجعل أسرته تعيش وفق هذه المبادئ؛ هذه هي المأساة الحق في حياته وإليها ترد كل أسباب شقائه...

ومهما يكن من غموض آرائه فيما يقترح لتنفيذ مبادئه، ومهما يكن من رأي بعض الناس في استحالة هذا التنفيذ، فمما لا ريب فيه أنها أحدثت من الأثر في الفكر الحديث، في الشرق والغرب، ما يجعلها من تلك الآراء التي يسمها المؤرخون صانعة جيل أو باعثة عصر...

وليس من الإسراف القول إن آراءه قد أحدثت من الأثر في نفوس أهل عصره، ما لم تحدث أعظم منه آراء ماركس أو نيتشه أو داروين أو فرويد كل في محيطه؛ أما في روسيا، فليس من كتابها ولا من مفكريها جميعًا من مهد السبيل لينين وتروتسكي كما مهدها تولستوى، عدو الثورات، ومبدع مبدأ عدم المقاومة، وإن بدا في قولنا هذا ما قد يعد تناقضًا...

وليس في الأمر تناقض ما، فهذا الرجل أول من تحدى القيصرية في عنفوان قوتها؛ وهذا الرجل أول من تحدى الكنيسة في أوج سلطنها؛ وهذا الرجل أول من زعزع الملكية في وقت كان لا يطمع فيه غيره إلا في شيء من الإصلاح؛ وهذا الرجل أول من بث الشجاعة في قلوب الناس، في وقت كان الهمس فيه ما تخشى عواقبه؛ ولئن كان جان جاك روسو أبا الثورة الفرنسية فإن ليو تولستوي أب لثورة الروسية العالمية...

ولم تنطفئ شعلته بعد موته، فهذا غاندي الشهيد كما أسلفنا، وإن لم يكن مسيحيًا، قد أخذ سياسته في كفاحه عن تولستوي؛ وما كان أسلوبه في عدم المقاومة، وما بثه في نفوس أتباعه من موقف سلبي في وجه السلطة، وما كان عزوفه عن الترف، وما كان اعتزاله الصناعة الحديثة، وأخذه بمبدأ العمل في البيت، وما كان استغناؤه أو استقلاله السياسي، بإقلاله من مطالب الحياة... ما كان ذلك جميما إلا مستمدة من أستاذه المسيحي...

«لا تقاوم الشر بالعنف»؛ في هذه العبارة فلسفة تولستوى الأخلاقية، وبها قذف على المدنية الحديثة، والدولة الحديثة، فزعزع أساسهما.

وما يستنكر العنف مستنكر من كتاب اليوم، وما يندد مندد بالحرب وسفك الدماء، وما يسخط ساخط على العدوان والاغتصاب، وما يغضب ذو ضمير حي من عنت المتسلطين من الحكام ومن طغيان الطاغين، وما يتألم متألم من ظلم اجتماعي إلا وفي نفوس هؤلاء جميعًا صدى ما صاح به تولستوي فملأ سمع العصر...

ولكن الإنسان على الرغم من ذلك كله هو الإنسان، ولو أخذ الناس بتعاليم المصلحين، فضلًا عن رسالات المرسلين، لما انبعثت في الأرض تلك الشرور، وآخرها تلك الحرب المائلة، التي قوبل فيها العنف بالعنف، في صورة يفزع منها، وكان لروسيا موطن تولستوي فيها دور خطير.. ولكن خطأ الإنسانية على كل حال لا يقدح في مبادئ رسلها وهداتها.

# آلام جديدة وكتب جديدة!

في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥، تولستوى وزوجته بموت ابنهما إيفان، وكان في السابعة من عمره؛ وقد عظم حزن الأبوين على هذا الغلام؛ كتبت الكونتس صباح اليوم التالي «مات ابني العزيز في الساعة الحادية عشرة ليلة الأمس؛ رباه! إني أعوذ بك إذ أفكر أني لا زلت حية حتى الآن»؛ ولقد ذرف أبوه الدمع، وصار يقلب كفيه جزعًا، فلك كان ينظر نظرة الرجاء إلى هذا الغلام، قائلًا إنه هو الذي سوف يحمل رسالته من بعده إذا عاش… كتب بعد موته بثلاثة أيام «لقد دفنا فانشكا… يا للرزء لا، إنه امتحان روحي».

وصار تولستوي يتفكر في الموت أيامًا بعد فقد ابنه، حتى لقد كتب وصية وأثبتها في مذكراته كما لو كان موقنًا من دنو أجله…

ولقد كان يؤله ما يرى من جزع زوجته وألمها، ولولا أنه كان يخشى إذ هو غادر روسيا ألا يسمح له بالعودة إليها لا ستصحبها إلى رحلة في أوروبا لعلها تنسي..

وأثبت في مذكراته قوله «لقد قابلت أحد القسيسين الأذكياء فأخبرها بحق مبين: ذلك أن الأمهات اللائي يشكلن أطفالًا يتجهن إلى الله أول الأمر، ولكنهن بعد ذلك تشغلهن شواغل الدنيا، وعندئذ يبتعدن عنه؛ وإنه ليحذرها من ذلك؛ ولكن يخيل إلى أن ذلك لن يحدث لها».

ولقد صدق كلام القسيس؛ فالبنت الكونتس أن التمست العزاء لقلبها في مصاحبة موسيقي شاب يدعى تانيف؛ وما لبث مؤلف «سوناته كروتزر» أن رأى قصته تكاد تمثل في داره!

أحست الكونتس ميلًا نحو هذا الشاب، وكانت تصغى إليه، وتقبل عليه ثم سألته ذات ليلة عقب إحدى الحفلات في موسكو أن يصحبها ماشيًا حتى منزلها وكان

على مسافة ساعة أو دون ذلك قليلًا، ثم زارته بعد ذلك في حجراته حيث كان يقيم؛ وصار بعد ذلك يختلف كثيرة إلى دارها؛ وكانت تخرج الكونتس محبته للرياضة وقد أزينت وانتقت ملابسها...

وتهامس الناس؛ وتهامست ماري وتانيا، حتى الصغار فإنهم لم يحبوا أن يروا تانيف هذا في مكان أبيهم فهو لا يكاد يفارق أمهم...

وظل تولستوي ساكتًا زمنًا طويلًا وإن كان ليعلم هذه الصلاة علمًا وثيقًا؛ وإن كان شديد الغيرة عظيم الحنق على زوجته...

أما هي فلم تعد تحفل غضبه وإن تظاهرت بالرثاء له، كتبت إلى إحدى صديقاتها سنة ١٨٩٦ تقول «كلما فكرت في حنق زوجي وغيرته العمياء، أحسست بشيء كثير من الغضاضة والخجل، ورغبت في وضع حد لهذا كله فللموت أهون من اتهاماته المسيئة إلي، أنا التي حرصت طول حياتي أشد الحرص على ما توجبه اللياقة حتى لا يجد زوجي ولا أطفالي في سلوكي ما أخجل منه».

وظل تانييف يزور الأسرة وهو لا يدرى شيئًا عما يحدثه مجيئه بين الكونت وزوجته؛ والكونت لا يفعل شيئًا وإن غضب، حتى كان ذات يوم سنة ١٨٩٧ يتحدث إلى زوجته فأخبرته أن تانييف قادم ليقيم عندهما أيامًا؛ فصاح بها قائلًا إنه سوف يغادر الدار إن وطنها قدما تانييف؛ ثم إنه بارح الدار إلى أخيه سيرجي ليقيم عنده وهو يقسم أنه لن يعود...

وكانت زوجته تؤكد أن صلتها بتانييف صلة أفلاطونية؛ ولا تعبأ بما يقول الناس ولا بغضب زوجها.

وعاد تولستوى إلى بيته بعد بضعة أيام، وكأنما كانت الكونت تثأر لنفسها من زوجها لما كان من إعراضه عنها؛ كتبت تقول بعد أن ذكرت ما تحس من إشفاق على زوجها لاعتلال صحته وتزايد نحافته، وغيرته «ولست أدري ما إذا كان ذلك خطأي؛ حينها اتصلت أسباب المودة بيني وبين تانييف شعرت أن من الخير أن يكون لي

صديق كهذا في كبرى، فهو رجل مهذب رحيم موهوب.

وكتبت تصف حال زوجها عقب مجيء تانييف «كان مما يخيف رؤية ما في وجه ليو نيقولا فتش من غيرة مريرة حين علم بوصول تانييف».

ولما رحل تانييف كتبت تقول «إن ليو نيقولا فتش سعيد اليوم هادئ البال... إن السبب الذي يدعوني من أجله ليو نقولا فتش إلى قطع صلتي بتانييف هو تألمه؛ ولكن مما يؤلمني كذلك أن أفقد صداقته؛ وليس في هذه الصداقة إثم قط؛ وإني لأشعر بكثير من الفرح كما ذكرت شعوري البريء نحو ذلك الرجل؛ حتى إني لا أستطيع أن أقطع ما بيني وبينه فأبعده عن حياتي».

وتمادت الكونتس في غيها، فكتبت بعد شهر تدعو تانيف لزيارتها، وكأنها لا تطيق بعده عنها، أو كأنها تشعر اللذة في إيلام زوجها وانتصارها عليه، وما كانت في الواقع لتفعل ذلك، لو كان زوجها سيد بيته، ولو لم يكن يقيم في هذا البيت كما لو كان ضيفًا على الأسرة.

ولم تخبر زوجها بفعلها مخافة أن تؤله وتسيء إلى صحته كما زعمته «ألا يعجب تانييف إذا علم؟ ولكني لا أملك ألا أستشعر عظم السرور كما ذكرت تلك الموسيقى الحلوة، ثم ذلك الحديث البهيج مع شخص مثله مربح ذي وجاهة».

ولما سمع زوجها نبأ هذه الزيارة الثانية، صاح متعجبًا، «إني لم أعلم بشيء من هذا»؛ وأخذ أطفالها ينقلون إليها ما يقول الناس عن صلتها بتانييف، وأعلن الكبار منهم سخطهم واستنكارهم، ولكنها لم تحفل شيئًا من ذلك، وكتبت تقول: إني لأفتخر أن يقرن الناس بيني وبين ذلك الرجل العجيب الموهوب المهذب ذي القلب الرحيم؛ إن لي ضميرًا صافيًا؛ وإني لبريئة براءة الطفل الوليد في بدني وفي روحي، حتى في عقلي، أمام الله وأمام زوجي وأمام أطفالي».

ثم قالت بعد ذلك وقد ازداد سخط أبنائها واحتجاجهم: إنهم جميعًا يعتقدون أني أسيرة حب! ألا ما أقبحهم وما يظنون. إلى اليوم أكبر سنًا من أن أفعل ذلك، وليس

مما يشاكل سني تلك الكلمات ولا هذه الأفكار».

واعتزم تولستوي أن يهجر البيت ثانية، وترك كتابين لزوجته؛ ذكر في أحدهما السبب الحقيقي، وكتب الآخر لتطلع عليه الناس إذا شاءت حتى لا تلوث سيرتها الألسن... على أن الكتابين لم يقعا في يدها إلا بعد موته...

وذلك أنه على الرغم من تصميمه لم يستطع أن يقدم على هذا العمل، وقد نفكر طويلًا في عواقبه، وما عسى أن يتحدث عنه الناس في روسيا وفي غير روسيا، وأذعن آخر الأمر للبقاء مكرهًا، وإن كان ليعتزل أسرته، ويكب على كتبه وأوراقه، وكان يومئذ يكتب في الفن ما هو؟ ولعله كان يلوذ بالكتابة لينسى متاعبه وآلامه...

وظلت زوجته تشكو وتسخط؛ فتارة منه ومن إعراضه عنها، وتارة من بنتيها ومن أبنائها الصغار منهم والكبار، وتارة من نفسها، لا تهدأ ولا تستقر على حال.

أما تولستوى فكان يكر به فوق متاعب امرأته، تفكره في شيخوخته، لا خوفًا من الموت وإن كان شديد التعلق بالحياة، ولكن خشية ألا يتسع ما بقي من عمره لا يريد أن يكتب مما يجول في خاطره من معان في الفن وفي غير الفن، وكان كذلك يؤلمه ما يحس من وحشة وقد مات بعض أصدقائه ونفي البعض، وتزوجت ابنته ماري، وخطبت تانيا، وعما قريب تذهب إلى زوجها.

كان هذا حال تولستوي والقرن التاسع عشر يقرب من نهايته، وهو يطل على السبعين من عمره؛ ولكن آلامه هذه لم تلوه عما هو من رسالته بسبيل؛ أو تصرفه عن الكتابة؛ فكل شيء يهون عند ذوي الرسالات وأصحاب الفن إلا رسالاتهم وفنونهم بالضرورة لأنها وحياتهم شيء واحد...

كتب تولستوى ما بين سنة ١٧٩٥، وسنة ١٨٩٩ كتابًا طويلًا في الفن ما هو وما غايته، وقصة هي ثالثة قصصه الطويلة، وإن كانت لا تزيد حجمًا عن نصف وأنا كارينينا، وتلك هي قصته والبعث. ثم كتب قصتين أخريين هما «السيد والتابع» و «الأب سرجيوس» ولم تنشر الثانية إلا بعد موته؛ يضاف إلى هذه مقالات كثيرة في

أمور شتى؛ كمقدمة لقصص موباسان، وبعض آرائه في الدين، والوطنية والسلام، وكيف يقرأ الإنجيل، وغيرها من الدراسات القصيرة...

ونحب قبل أن نتكلم عن الكتابين أن نعرض ما كان منه حيال السلطات بسبب عدوانها على بعض أصحابه وتلاميذه وفي مقدمتهم شيرتكوف، واضطهادها بعض الفرق الدينية لمخالفتها الكنيسة الأرثوذكسية...

نشطت الحكومة في تعقب كل حركة ترى فيها خروجًا على الأوتوقراطية. لأن ما كان يزعج القيصر وأعوانه يومئذ هو ما وصفه بالأحلام من نزوع نحو الحكم الدستوري، وقد كان في القوقاز قوم جعلوا المحبة أساس علاقة أفرادهم بعضهم ببعض وعلاقتهم بغيرهم من الناس جميعًا؛ بل بغير الناس من المخلوقات؛ وكانت ترى هذه الطائفة واسمها: «الدوخوبر» أن الناس جميعًا سواء، وأن الطاعة للحكومة لا تكون فيها يتعارض ومبادئهم وضمائرهم وإرادة الله...

وكان مما يتعارض و إرادة الله في رأيهم الخدمة العسكرية. لذلك تداعوا سرة إلى اجتماع اعتزموا فيه حرق أسلحتهم، ولكن الحكومة علت بما بيتوا فأرسلت إليهم خيلها ورجلها، وأذاقتهم بأسها، وقبضت على كثير منهم فألقت بهم في السجون. ثم أعقب ذلك اضطهادهم اضطهادًا قاسيًا؛ فكتب شيرتكوف احتكام إلى الرأي العام في كتيب وضع تولستوى مقدمة له بعنوان «الغوث»، وقد اهتم تولستوي بهذه الطائفة لأنه كان يرى في مبادئهم ما يشبه كثيرًا من مبادئه؛ وكانوا قد علموا فعلًا بتعاليمه على لسان زعيم لهم قرأ كتب تولستوى فحرم أكل اللحم بينهم، وجعل الملك شائعًا؛ كما حرم مقاومة الشر بالعنف.

وما زال تولستوي يدافع عنهم حتى كفت الحكومة عن اضطهادهم، وسمحت لمن يريد السفر بمغادرة روسيا؛ فسافر عدد منهم إلى كندا، وقد سمحت لهم حكومتها بالهجرة إليها.

وراح بعض أصحاب تولستوى، ومنهم بييركوف وتريجوبوف وشيرتكوف، يحصون

ما ارتكبت الحكومة من صور العدوان؛ ولكن الحكومة باغتت بيت شيرتكوف بالتفتيش، واستولت على كل ما جمعوا؛ ثم نفت بيروكوف وتريجوف إلى بلاد البلطيق، وخيرت شيرتكوف بين أن يصحبهما أو يغادر روسيا فآثر أن يغادر روسيا ليقيم بإنجلترا؛ وقد ودعه عند سفره عدد عظيم من الناس كان في مقدمتهم تولستوى.

وراح بوبندونستسوف، ومن ورائه الكنيسة والحكومة؛ ينفون الأسر المسيحية الخالفة للأرثوذكسية إلى سيبيريا ويأخذون أولادهم عنوة لتعليمهم في مدارس أرثوذكسية؛ ولجأ كثير من الفلاحين ممن أخذ أولادهم إلى تولستوى، نكتب يلعن هذا العمل إلى صحيفة «أنباء روسيا، فخافت من نشر ما كتب وعلت به الحكومة، واشتد حنقها على تولستوى؛ وعادت إلى زوجته مخاوفها من بطش يحيق به، ولكنه لم يعبأ بذلك، ولم تجرؤ الحكومة على أن تناله بشيء».

***

«ما الفن؟» ذلك هو عنوان ذلك الكتاب الذي يضاف إلى دراساته الدينية والاجتماعية والسياسية...

ولا بد لمن يقرأ هذا الكتاب أن يكون ملمًا بفلسفته جميعًا حتى يستطيع أن يدرك ما يذهب إليه؛ وفي هذا الكتاب كما في غيره خصائص عبقريته وأستاذيته. قال عنه برناردشو «ما من رجل يعرف الفن معرفة وثوق إلا تبين فيه صوت أستاذ».

ولقد أحدث الكتاب صخبًا عظيمًا في أوساط الأدباء؛ فإن تولستوي يقول لأكثرهم بهذا الكتاب إنهم يعملون عبثًا، فما كان ما يزعمون من أعمال فنية متصلًا بالفن كما عرفه من قريب ولا من بعيد...

يحمل تولستوى الفن ثلاثة ضروب: الفن الطيب والفن الخبيث، والفن الباطل أو الزائف؛ ولا تقاس قيمة الفن بمقياس مجرد كنظريات علم الحال مثلًا، وإنما تقاس بصلته بالناس وبالمبادئ السامية التي لابد منها لحياتهم؛ وعلى ذلك فلا يمكن تجريد الفن من الفضيلة...

ونرى في هذا الذي يقول كيف غير تولستوى رأيه في الفن، وكيف بعد كما أسلفنا بعد اشتغاله بالدين وتفلسفه في الاجتماع والسياسة عن سابق نظرته... وجعل الفن وسيلة لا غاية...

والفن الحق هو أن تنقل إلى غيرك ما تحسن في نفسك مما تأثرت به تأثرًا عميقة، والفرق بينه وبين الزائف من الفن، أن يحس الفنان حقًا في أطواء نفسه ما يريد أن ينقله إلى غيره، وأن يبلغ من قوة الأداء أن يؤثر في غيره بحيث يجعله شريكًا له في إحساسه، ولا عبرة بالإحساس الذي ينقله من حيث ضآلته أو عظمته ومن حيث مرحه أو حزنه، ومن حيث عنفه أو هدوئه؛ ولا عبرة كذلك بوسيلته في الأداء؛ فقد تكون كلامًا أو صورة أو لحنًا؛ ولا بطريقة الأداء ما دام أنه ينقل ما في نفسه إلى نفس غيره، وإنما تتجلى قوة الفنان حقًا في كمال هذا النقل، وكلما كثر عدد من يشاركونه نفس إحساسه كان إلى ذلك الكمال أقرب.

هذه قيمة الفن من حيث هو أما قيمته من حيث غايته، فردها إلى نوع الإحساس الذي ينبعث عنه؛ فإن كان منبعثًا عن إحساس في المستوى الحيواني فهو إن كان في أحسن حالاته لا يضر، وإن كان في أسوأ حالاته فضرره كبير بما يفضي إليه من إلهاب العواطف وبلبلة العقل، وإن كان منبعها من الشعور المسيحي الصحيح، أعني ذلك الشعور الحكيم العاقل، فهو يجمع الناس على أسمى درجات الفهم والحب.

ولقد بعد الفن في المدنية الحديثة والثقافة الحديثة، عن ذلك الشعور الحكيم الذي أخذت به جميع الأديان من بوذية وإسرائيلية ونصرانية وإسلامية، والذي اعتنقه أساطين الفكر في العالم من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، وفقد الفن بذلك وظيفته في السمو بالنفوس والعقول وأصبح ملهاة أشبه بلعبة لاعب؛ ولئن قال قائل إن الفن في الأمم البدائية ضرب من اللعب فيرد على ذلك بأنه إن وصل إلى ذلك الوضع في الأمم المتمدنة، كان دليلًا على انحطاطها إلى مستوى البدائيين..

ولقد أصبح في أوروبا منذ النهضة فنان: فن العامة وفن الخاصة، وبات فن

الخاصة قاصرة على فئة معينة، وقد حيل بالضرورة بينه و بين العامة لما يتطلبه من نفقات لا يطيقها العامة، وما زال يضيق ويبعد عن الروح العالمية حتى ليحسن تسميته الفن الإقليمي؛ ثم ازداد ضيقًا فسماه أصحابه بالرمزية وأحري به أن يسمي الببغاوية؟

وكلما قل من يستجيب لفن من الفنون دل ذلك على انحطاطه، لأن الناس ما لم تفسد عواطفهم المدنية إنما يسيطر عليهم شعور متحد وتحركهم مؤثرات واحدة، وعلى ذلك فالفن السامي تستجيب له تلك الروح العالمية التي لا تتأثر زمان ولا بمكان ولا بظروف مصطنعة.

كتب تولستوى ذات مرة في مذكراته إثر قراءته صفحة لبسكال «لم أستطع أن أملك دمعي، وتبنيت اتحادي بذلك الرجل الذي مات منذ مائة سنة. وماذا عسى أن يكون ثمت من معجزات، إذا كان المرء حيال مثل هذه المعجزة؟».

والفن الزائف هو ذلك الذي لا ينبعث عن شعور حقيقي في النفس، وإنما هو وليد التقليد والرغبة في كسب المال والشهرة أو تملق عواطف الجمهور؛ وهو يبدأ من حيث ينتهي الوحي، وقوامه الكذب والبهرج الزائف والطلاء الخادع؛ وحسبك أن صاحبه يحاول أن يؤثر في النفوس ونفسه فارغة، ويزعم أنه ينقل إليهم إحساسه وما يحس شيئًا؛ ولقد يكون له المقدرة على التعبير في ذاته ويبلغ في ذلك حد البراعة، ولكنك لا تحس فيه شيئًا من الروعة ولا من الجلال كالحلية الزائفة يعجبك بريقها وزخرفها، ولكنك لا تلبث حتى تتبين أنها ليست جوهرية وإنما هي أكذوبة أو خدعة...

والفن الزائف ضرر بالغ لأنه يفسد الذوق، ويلبس الحق بالباطل أو الصحيح بالزائف، وبذلك يضل الشعور فيتبلد ويميت القلب فلا ينبض.

***

في سنة ١٨٩٩ نشر تولستوى قصته والبعث، وقد بدأها كما أسلفنا سنة ١٨٩٥؛ ولقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية، وذهب لها صيت عظيم وقال عنها أكثر

النقدة إنها وحدها تكفي لأن تسلك تولستوى في أعظم الفنانين من كتاب القصة؛ وقد بيعت منها آلاف النسخ؛ ولكن تولستوى لم يأخذ منها قرشًا واحدة، وإنما جعل ما جاءت به من المال جميعًا لإعانة أولئك الذين رحلوا إلى كندا من «الدوخوبر»؛ وقد جاءت من إنجلترا وحدها بثلاثة آلاف من الجنيهات ثمنًا للطبعة الأولى.

وتدور القصة حول تلك الفكرة التي عبر عنها من قبل وهي أن الرجل إذا ترك امرأة تغشاها فعليه إثم ما تنحدر إليه من الرذيلة..

أما فكرة القصة، فقد بعثها في نفسه تذكره ما كان منه في صدر شبابه من إغوائه إحدى الخادمات؛ ثم إن أحد أصحابه قص عليه نبأ امرأة بريئة اتهمت بالقتل في إحدى المحاكم، ففي هذا إلى ذاك وبنى منهما القصة...

عرف نخليو دوف أثناء جلوسه ذات مرة عضوًا في هيئة المحلفين في إحدى القضايا، في بغي متهمة بجريمة قتل نكراء، تلك الفتاة الجميلة البريئة كاترينا ما سلوفا التي أغواها منذ عشر سنوات فاستليها أعز ما كانت تحرض عليه؛ واستيقظ ضميره فإذا به يشعر شعورًا روحيًا عجيبًا يملك زمام حياته وكأنه ولد من جديد...

وزارها نخليودوف في السجن بعد الجلسة، وهاله إعراضها عنه وعنفها عليه؛ ثم أتى لها بأحد المحامين وحاول أن يتزوجها فرفضت، وآثرت أن تذهب إلى المنفى مع سيمنسن الثائر الذي عرفها في السجن وأحبها والتي أحست نحوه بالاحترام؛ ولما حانت ساعة الرحيل وودعته أما سلوفا أحس أنها تحبه وأنها تضحى بنفسها للمرة الثانية حتى تدعه حرًا يتزوج من يشاء فإن زواجه منها يلحق به العار؛ ومع أنها كانت تحس الفرح في نفسها بهذه التضحية، فقد تألمت ألمًا شديدًا عند فراقه دون أن تطلعه على شيء..

هذه هي الحكاية؛ أما القصة فلن تعرف إلا أن تقرأ؛ فهي بحق إحدى روائع هذا الفن، ولكن كانت دون «الحرب والسلام» هو «أنا كارنينا» إلا أن فيها مواقف لا تقل روعة إن لم تزد أحيانًا عما في أختها؛ ثم إنها في جملتها تفوق في جمالها وقوتها

مئات مما كتب في عصرها من القصص ولو عدت أحاسنها لكانت من بينها بلا ريب.

أما نخيلو دوف فهو تولستوى؛ وهو آخر ما صور به الكاتب نفسه في قصة كبيرة؛ وري هنا تولستوي في العقد الثالث كيف يحاول مرات أن يغير ما بنفسه ويتخلص من آثامه، ثم لا يلبث أن يذعن كل مرة لمغريات الحياة.

وفي القصة وصف رائع لصراعه النفسي بين مطالب الجسم ونوازع الروح؛ وفيها كذلك صور بهيجة لأيامه الأولى، أيام الهوى والشباب؛ وفيها عدد عظيم من أروع شخصياته وفي مقدمتها ماسلوفا، وإن المرء ليعود إلى قراءة القصة المرة بعد المرة مشوقًا إلى ماسلوفا مصاحبًا لها بخياله وقلبه في السجن حتى يتصورها كأنها امرأة عرفها في الحياة ويتصور السجن كما يتصور مكانًا زاره بنفسه؛ وفيها كثير من آرائه الجديدة أجراها على لسان نخيلودوف فإن تخيلودوف برغب في إصلاح المعايب الاجتماعية القائمة، ويرغب في توزيع أرضه على الفلاحين؛ وهو يقول لأحد أصهاره «ما القانون إلا أداة للاحتفاظ بالوضع الراهن لمصلحة طبقتنا»؛ وهو يشير إلى أن الحب ينبغي أن يكون أساس العلاقة بين الناس، وما لم يفطن الناس إلى ذلك فلا سلام بينهم، إلى غير ذلك من فلسفة تولستوى وآرائه.

ثم إنه حمل فيها على الكنيسة وسخر من بعض الطقوس والشعائر، وصور بوبندونستوف صورة كريهة في شخص قسيس كبير اشمأز نخيلودوف من السلام عليه، الأمر الذي سوف يشتده حقق هذا التسلط والذي لن يغفره لتولستوي.

أما قصته «السيد والتابع» فهي تقع في قرابة سبعين صفحة، وتدور حول التضحية ونبذ الأنانية، وموضوعها مثل موضوع قصته «موت إيفان إلينش» وفيها كثير من تجاربه الماضية في أول شبابه وما خبر من الحياة. بيد أن أهميتها تقوم على ما جاء فيها من آرائه عن الموت والحياة؛ فنحن تلقاء رجل يقرب من الموت ولكنه لا يخاف، ويجد الحياة الحق في أن يعيش عيشة الإخاء والمحبة مع من يتصل بهم من الناس. فإن السيد وهو تاجر قروي قد دهمته وتابعه عاصفة ثلجية وضلا عن

طريقهما، ولما كان السيد متأثرة بالملابس، ولما كان جسمه من الشبع ممتلئا بالحرارة، فقد ألقي بنفسه فوق تتابعه ليدفئه، وتعرض هو الثلج؛ ولما أصبح الصبح وكشف الفلاحون عنهم الثلج وجدوا التاجر قد أشرف على الموت؛ ولكنه كان مرحًا يحس الغبطة في أعماق نفسه؛ فقد نجا تابعه من الموت المحقق...

***

وتقع قصته «الأب سرجيوس» في نحو ستين صفحة، وتعد من أعظم القصص الصغيرة في أدب العالم، وهي من حيث الفن قصاري ما بلغه فنه في سنواته الأخيرة؛ ويمثل الأب سرجيوس إلى حد ما القس أمبروز كما يمثل قسًا آخر يدعي أنطوان وقد كان من قبل فارسًا في الحرس القيصري؛ كما أن فيه جانبًا من تولستوي نفسه أثناء كفاحه النفسي ضد الغرور والشهوة...

كان سرجيوس ضابطًا وجيهًا في الحرس؛ ثم أصبح قسًا وأعرض عن الدنيا، وأخذ يسمو على الغواية، و بلغ من عزيمته أن قطع أحد أصابعه حتى لا يذعن لغواية فتاة لعوب تحدته أن تغويه وراهنته؛ وأصبح قديسًا يصنع العجائب في معالجة الأمراض؛ وتبدأ مأساته حين يقع في شرك بنت غير جذابة أحضرها إليه أبوها ليعالجها؛ ثم يخرج إلى الدنيا فيضرب في الأرض متسولًا ليتعلم الخشوع الصحيح، وينتهي به الأمر إلى أن يعمل خادمًا في سيبيريا لأحد الفلاحين ابتغاء التوبة.

وقد كتب تولستوى هذه القصة في إيجاز وعمق فهم، وبلغ فيها ذروة الفن حتى ليعدها النقدة كما ذكرنا إحدى روائع القصة القصيرة؛ وكان يفطن صاحبها إلى ما فيها من جمال وروعة حتى لقد فاه ذات مرة على شدة كرهه للتحدث عن آثاره، وقد كان يقرأ جوركي فصلًا منها على بعض جلسائه «حقًا لقد أحسن الرجل الهرم كتابتها».

***

كان تولستوي يلتقي الناس في بيته فيتحدث إليهم في كل موضوع؛ وكان

يلاطف محدثه ليزيل من نفسه كل تهيب كي يقول ما يريد؛ وكان يزوره

كثير من الطلاب ومن رجال الثقافة فيستمعون إليه، وينظرون إليه في ملابس الفقراء، وقد ابيضت لحيته وتغضن وجهه وكأنهم بين يدي قديس، وكان يجعل كلامه أبدًا في مستوي أفهام الحاضرين من زائر به. يجب أن يكون واضحًا يسيرًا كي ينقل إليهم آراءه كما يفهمها وشعوره كما يشعره في غير نقص أو زيادة.

وكان حريصًا على تواضعه وخشوعه خارج داره حرصًا عليهما في داخلها. وقف ذات مرة بإحدى المحطات فنادته سيدة تحسب أنه فلاح، وطلبت إليه أن يحمل رسالة إلى زوجها في حجرة الاستراحة؛ ولما فعل ذلك أعطته بعض دريهمات؛ ثم سمعت أحد الناس يخاطبه بلقب الكونت، وما لبثت أن علمت أنه تولستوى؛ فاشتدت ربكتها، ثم سألته أن يرد النقود فضحك وقال كلا: هذا مال كسبته...

وذهب ذات مرة لزيارة نائب حاكم تولا، فلم يجده ولكن رئيس الشرطة هناك بالغ في تحيته والإجلال له وسعى بين يديه، وكان لا يفتأ يخاطبه بصاحب السعادة؛ وأراد تولستوي أن يشتري تذكرة السفر بنفسه، ولكن الضابط ألح عليه أن يشتريها له فرض مكرهًا، وسأله الضابط أي درجة يريد؟ ثم قال في لهجة الواثق: «عربة خاصة على الأقل يا صاحب السعادة،، وكان تولستوى يريد الدرجة الثالثة ولكنه أراد أن يخفف دهشة الضابط فقال: أريد الدرجة الثانية.

وذهب لزيارة عظيم، وكان في ثوبه المتخذ من جلد الماعز ينتعل مثل نعال الفلاحين؛ فاشمأزت الخادم منه ولم يكن سيدها بالبيت، واقتحمته نظرتها فقال لها في تواضع: أرجو أن تخبري سيدك أن تولستوى جاء لزيارته؛ وأخذت الفتاة تعتذر إليه فسرى عنها وانصرف.

وكانت رياضته المشي، وركوب الدراجة، وكانت شيئًا حديثًا في روسيا يومئذ؛ ولعب التنس، وكان يلعب في خفة ومهارة وقد قرب من السبعين؛ أما في البيت فكان يستمع إلى الموسيقى أو يلعب الشطرنج...

وعظم صيته في روسيا؛ وسمت منزلته حتى ما يعلوه في أذهان الناس إلا القيصر، أما الذين لا يؤمنون بالقيصرية فكانوا يرونه أعظم رجل في روسيا كلها.

دعاه أحد العلماء سنة ١٨٩٤ إلى محاضرة علمية في موسكو، فتردد لأنه لا يحب الظهور في المجتمعات وما زال صاحبه به حتى قبل؛ ولما ذهب إلى هناك لم يكن في المكان مقعد فأجلسوه على المنصة، وما أن على الناس، وما أن رأوه حتى أخذوا يصفقون في تحمس شديد، ونهض تولستوي في ملابسه القروية، وأحنى لهم رأسه، فعادوا يصفقون طويلًا، وازدادت حماستهم له، وأقبل علية العلماء يحبونه ويعبرون له عن احترامهم له وتجلتهم لشخصه، وذلك على الرغم ما هاجم به العلم الحديث والعلماء من قبل، والناس يزدادون تحمسًا له كأنهم حيال زعيم عظيم؛ مع أنه قلما حضر اجتماعًا من قبل؛ ودهش تولستوى من الملابس الرسمية، وقال لصاحبه بعد الاجتماع إنها لم تكن محاضرة علمية وإنما كانت كرنفالًا علميًا.

ولا مثلت في موسكو مسرحيته « قوة الظلام » هرع إلى داره مئات من المثقفين ومن الطلب: يظهرون له شديد إنجابهم بها، وكان يتلقاهم مسرورة؛ وكانوا يعجبون بما يرون من حياته وتواضعه.

أما صيته في أوروبا وأمريكا، فتدل عليه آلاف الرسائل التي كانت تنثال عليه من الكتاب والشعراء ورجال الفكر من كل سن؛ وكان يرحب تولستوى بالرد على كل شخص يحس أنه تأثر بتعاليمه فيجيبه عن كل ما يسأل ويتخذ منه على البعد صديقًا وتلميذًا.

وكان زائرو روسيا من الأجانب يذهبون لرؤيته في موسكو أو في ياسنايا؛ ومن سافر منهم دون أن يراه كان بعد ذلك من سوء حظه، وكان يخجل من ذكره. لبني قومه...

كان كثيرون من الأوروبيين والأمريكيين يسافرون إلى روسيا لرؤيته، وما زاره قط إنسان إلا تعلق به وظل محبًا له طول حياته..

ولقد قرأت الكاتبة الأمريكية النابهة «جان آدمز» كتابه «ماذا يجب إذا أن نصنع»، وكانت تعني بالفقراء، وأقامت عدة مراكز لخدمتهم ومعوتهم حملها إعجابها به على السفر إليه من شيكاغو، وقد تأثرت برؤيته تأثرًا عظيمًا كأنها منه حيال أحد القديسين، وعادت إلى وطنها تذيع مبادئه وآراءه.

على أنه لم يسلم من خصوم له راحوا يسخرون منه في وطنه، وقلما سلم مصلح من أمثال هؤلاء؛ وكان خصومه في المجمع المقدس خاصة، وكان كبيره بوبندونستسوف؛ وقد نشروا كتبًا يتهمونه فيها بالجنون والمروق من الدين: فأعرض عن أذاهم، وهو الذي يدفع السيئة بالحسنة ويدعو إلى عدم المقاومة...

وتلقي سنة ١٨٩٧ كتبًا يتهدده فيها مرسلوها بقتله لكفره ونسوقه، وانزعجت زوجته، ولكنه لم يعبأ بشيء ولم يتخذ أية حيطة لنفسه.

# عقاب و ثواب!

أهل على الدنيا قرن جديد هو عصر العلم المدمر والعنف الباغي، والشر المتحفز، وتولستوي في الثانية والسبعين، نبي تخلف في الدنيا من عهد كونفشيوش يدعو إلى المحبة والسلام، وينذر الناس أن يقابلوا عنفًا بعنف...

ولكم تندد بالحرب حتى لم يدع بعده قولاً لقائل، ولكم صرخ في وجه الحكومة بأن لا حكومة حتى يعيش الناس عيشة الإخاء؛ ولكم دعا الناس أن ينبذوا ما يدعونه من وطنية هي من بواعث الشر وأن يتحابوا جميعًا في مشرق الدنيا ومغربها؛ ولكم أنذر أصحاب المال أن ما يملكون من مال أكبر أسباب البغي والاسترقاق والحرب؛ والنجاة في أن ينفضوا أيديهم من هذا الشر ويعملوا ليعيشوا... ولكن هذا النبي المتخلف من الماضي البعيد أو هذا الحواري الثالث عشر للمسيح كما سماه بعض الناس، لا يستطيع أن يهدي العالم المتوثب الضال...

على أنه يتفكر في عشيرته الأقربين فيؤلمه أشد الألم أنهم لم يستجيبوا له، وهذه امرأته كم خوفته بأن تقتل نفسها إذا هو وزع على الناس ما يملك أو إذا تنازل عن حقه في طبع كتبه! وأي ألم أبلغ من هذا في نفس هذا الذي أراد أن يغير الدنيا؟

وإنه لينظر في نفسه فهل هو راض عن نفسه؟ لقد لبس ملابس الفقراء الشعر الناس بالمساواة، وعمل بيديه كيلا يحتقر الناس العمل؛ ولكن هل هو فلاح مؤمن حقا؟ هل هو إسكاف حقا؟ كلا إنه لا يزال الكونت تولستوى على الرغم من هذا كله، و إلا فما هذا القصر الذي يعيش فيه وما هذه النعمة التي يتقلب فيها أهله؟

«قد يبدو ما أنا فيه من وضع زائفة في نظر الناس» هذا ما قاله سنة ١٨٩٨، ولقد أثبت بعد ذلك بعشر سنوات قوله «لو أنني علمت عن رجل أجنبي أنه يعيش مترفًا، ويأخذ كل ما يستطيع أخذه من الفلاحين، ولا يبالي إذا قبض عليهم، في حين

أنه يزعم أنه مسيحي وأنه يعلم مبادئ المسيح، ولا يعطى الصدقة إلا دريهمات، ويستتر خلف امرأته من عواقب أعماله الحقيرة، فإني لا أتردد أن أسميه صعلوكًا... وقال في موضع آخر يسأل نفسه «أتعيش حقًا وفق ما تعلم من مبادئ؟.. كلا!.. إني لشديد الخجل وإني لآثم وإني لجدير بالاحتقار».

ولكن ما الحيلة؟ لقد حاول الفرار مرتين ليعيش مع الناس واحدة من الناس، ولكن ضعفه أمام ما تنذره به امرأته يعود به إلى بيته... ما حيلته في هذا الضعف؟

ومن أراد أن يقف على ما كان يصطرع في نفسه، فليقرأ قصته «الأب سرجيوس»، ولينظر كيف كان هذا القس، وقد أحاط به مريدوه يسأل نفسه أهو يعيش عيشة القديسين عن باعث مقدس حقًا مرده إلى الله أم أنه يفعل ذلك بدافع ما ألقاه الشيطان في نفسه من غرور مرده إلى الرغبة في تحدث الناس عنه وعن مقدرته وصلاحه؟ وما كان عذاب سرجيوس بنفسه إلا عذاب تولستوى...

***

ولكن الناس يجيئونه ليرشدهم ويهديهم؛ وإن عامة الناس ليرون فيه قديسًا؛ و إن خاصتهم لينقسمون في أمره قسمين، ففريق يؤمن به ويراه أعجوبة العصر، وروح الخير متجسدة وسط مظاهر الشر لتكون في هذه الدنيا عزاء للموقنين وبرهانًا على أن الخير في الدنيا مستطاع لولا ما يصنع الإنسان بالإنسان؛ وفريق يراه أسطورة لا أكثر من ذلك...

وهو بين هؤلاء وهؤلاء رجل فذ على أية حال؛ وقد اتضحت في وجهه وقد علت به السن سمات الأبرار، غول شفتيه ابتسامة رقيقة، وفي عينيه وداعة وهدوء، وفي محياه ضراعة تشبه أن تكون مسكنة، وفي وجه المتغضن المصفار ولحيته العريضة البيضاء ما يبعث الهيبة والمحبة في النفوس...

وإن هدوءه لهدوء اللاعب الذي أجهده طول التأمل وطول العمل، وطول صراعه الداخلي بينه وبين نفسه..

وهو اليوم يعاني المرض والأوجاع؛ ولقد اشتدت عليه وطأة الملل في آخر سنوات القرن المنصرم حتى لقد أوشك أن يودع الدنيا مع ذلك القرن؛ وإنه ليتفكر في الموت ويوطن نفسه كما يقول على ملاقاته في أي وقت...

ولم يكن أحسن حالًا أول القرن الجديد إن لم يكن أسوأ، فما زالت الأسقام تلح على بدنه حتى ليحس ضعفًا شديدًا يكاد يقعده؛ ولقد عاوده مرض كبده الذي كان ينتابه قديمًا؛ وإن صديقه تشيكوف ليحار في أمر مرضه ولا يستطيع أن يقول ما هو...

فإذا زالت عنه أوجاعه خيل إلى أصحابه أنه عاد إلى سالف حيويته ونشاطه، ولكنه في الواقع كان يشعر أن فيه ضعفًا وإن كان لا يزال يجري ويسبح في الماء ويركب الدراجة ويلعب التنس، ويؤدي كل صباح قسطًا من الحركات الرياضية، ويمشي مسافات طويلة...

***

وما أبل تولستوي من مرضه إلا عاد إلى الكتابة، فإن الحنين إلى الفن موهبته الحقيقية كما قال ترجنيف، كان لا يفتأ يعاوده طالما كان يستطيع أن يشرع القلم؛ ولذلك كان لا يفرغ من مقال أو بحث إلا أقبل على عمله الأصلي وهو الأدب...

وهكذا يعود أعظم كتاب القصة في القرن التاسع عشر إلى كتابة القصص والمسرحيات في القرن العشرين، ولا تزال للأسد الهرم قوة مخالبه...

وماذا يتخذ اليوم موضوعًا لفنه؟ إنه يتم قصة عن حياة بعض أهل القوقاز هي قصة «الحاج مراد» التي كتب قدرا منها سنة ١٨٩٦ والتي أراد أن يتمها سنة ١٩٠١ ولكنه لم يكتب نهايتها إلا سنه ١٩٠٤؛ وإنه يكتب في نفس الوقت مسرحية سماها «الجثة الحية»؛ وما يتمها حتى يكتب أخرى تحت عنوان «النور يضيء في الظلام» هذا إلى بعض الأقاصيص الصغيرة يشرح بها فكرة أو يعلق على حادث..

وكانت قصة «الحاج مراد» تضف جهاد المسلمين في القوقاز للتخلص من

الروس، ولذلك جاء فيها أسماء عربية أبقاها المؤلف كما هي وكتبها بالروسية حسب نطقها، كالمرشد والمريدين والإمام والغزوات، والشريعة، والطريقة، وغيرها؛ وأعلام عربية كالحاج مراد وجميل بك، ومُحَمَّد وحمزة؛ وفي القصة كثير من صور البطولة القائمة على النجدة وإنكار الذات في سبيل العقيدة.

ولقد شهد تولستوى الحاج مراد سنة ١٨٥١؛ في تفليس أيام كان يمتحن لالتحاقه بالجيش، وكتب إلى أخيه سيرجي يصف له إذعانه للحكومة الروسية.

في أبريل سنة ١٩٠٠ حين اشتدت وطأة المرض على تولستوي وظن أنه لن ينهض منه، أرسل المجمع المقدس بوحي من بوبيدونستسوف إلى الكنائس سرًا بألا يقام شيء من صلاة أو دعاء أو غيرها من الطقوس على تولستوى إذا مات ولم يتب ويستغفر عن ذنبه ويعترف بالكنيسة الأرثوذكسية، حتى يكون في ذلك عبرة لغيره. وموعظة للناس. ولكن تولستوي لم يتب ولم يمت، وباء بونبد ونستسوف بالخيبة.

لم ينس نوبندونستسوف ما جاء في قصة «البعثة من حملة على الكنيسة» ولم ينس سخرية تولستوى من صلواتها ولم ينس «توبوروف» تلك الشخصية التي تمثل الغباء والادعاء، والتي قصد بها تولستوى بوبيدونستسوف نفسه...

هذا ما زال بوبيدونستسوف يسعى سعيه لدى السلطات حتى ظفر بموافقتها على معاقبة تولستوي؛ وكان هذا العقاب حرمانه من رحمة الكنيسة في فبراير سنة ١٩٠١، وذلك على الرغم من أن تولستوي كان يحمل على الكنيسة منذ عشرين عامًا...

وفي صباح اليوم الذي صدر فيه ذلك العقاب، كان تولستوى صحبة صديق له يزور أحد الأطباء في موسكو؛ وعرفه الناس في أحد الميادين فسرعان ما اجتمعوا حوله متزاحمين يحيونه، ثم تعالت أصواتهم بالهتاف له وهم يلوحون بقبعاتهم؛ وعظم الزحام وامتد حتي تعذر السير، وأخذت تولستوي حيرة ودهشة، وحاول أن يصل إلى عربة تقله فما استطاع ذلك زمنًا طويلًا؛ ولما جاء له صديقه بعربة حال بينه الناس وبين ركوبها، وظلوا يهتفون باسمه ويعظمون حرية الفكر والشجاعة في الحق، والمروءة

والإنسانية والمحبة، وغيرها من مبادئ تولستوى، حتى جاء عدد من فرسان الشرطة فأفسحوا له الطريق في عسر شديد.

وكانت هذه الظاهرة الرائعة أبلغ رد على بوبيدونستسوف، وأقوى برهان على قصر نظره فقد جعل منه شهيدًا، وقد أجفل من ذلك الإسكندر الثالث من قبل...

وقد كان بوبيدونستسوف يغرى به بعض السفهاء قبل الحرمان، فكانوا يؤذونه بسفههم وكان يقابل ذلك منهم بالحلم؛ ولقد كان يلقاه أحدهم فيقول: هذا هو الشيطان في صورة بشر، فيبتسم له تولستوي ويعرض عنه.

وكان تولستوى يرحب بالأذى، ويتحدى السلطات، لأنه كان يوقن أن ما يلحقه من أذى إنما يعطف عليه القلوب، ويزيد الناس تعلقًا به، فلما صدر هذا الحرمان، ودوي في روسيا كلها وفي العالم كله، اتجهت أذهان الملايين إلى تولستوى ورسالته؛ ولعل تولستوي بينه وبين نفسه قد شكر بوبيدونتسوف سوء ما صنع!

وأقبلت الألوف على بيت تولستوي من كل نمط ومن كل طبقة، وانثالت عليه البرقيات والكتب من كل جهات العالم[1]، حتى الهدايا فقد كان بعض الناس يرسلون

---

[1] أرسل إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كتابًا هذا نصه.

«أيها الحكم الجليل المسيو تولستوى..

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك، إذ سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء و نفسك؛ هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووفقك إلى الغاية التي هدى البعير إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لبنت بالعلم وثمر بالعمل، ولأن تكون مرته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيًا ببت به ورقي جنسه، وشعرت بالشفاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت إلى الدين فخرقت جب التقاليد ووصلت به إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ماهداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتعمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هاديًا للعقول، كنت بعملك حاثًا للعزائم والهمم وكما كانت آراؤك ضياء يهدي به الضالون، كان مثالك في العمل إمامًا يهتدي به المسترشدون».

إليه منها ما يعرون به عما في قلوبهم.

وكان يزدحم بيته بالآلاف من الطلبة المتحمسين الذين كانوا يرون في كتاباته دعوة عامة للانطلاق من القيود؛ وكانت صورته الشهيرة التي رسمها الفنان ربين معروضة في بطرسبرج، فكان المئات من المعجبين يمرون بها، وقد زينها الشعب بالزهور من كل جانب؛ وتداولت الأيدي سرًا قصتين سخر بهما واضعهما من الحكومة عامة ومن بوبندونستسوف خاصة، وأقبل الناس عليهما إقبالًا عظميًا؛ وكان عنوان الأولى «الأسد والحر» وعنوان الثانية «الحمامات المنتصرة».

وتدخلت الحكومة لمنع مظاهر الحفاوة به فأزيلت الصورة المزينة بالزهر، واستبعدت كتبه من المكتبات العامة، ومنعت الصحف أن تنشر أي نبأ عنه، حتى البريد والبرق، فقد أمر عمالها أن يرفضوا برقيات التهنئة!

ولقد اشتد حنق الكونتس على الحكومة، وكتبت رسالة احتجاج شديدة أذاعتها في روسيا وفي خارج روسيا؛ ولكن تولستوى لم يأبه لما فعلت الحكومة وكأنه لم يعلم من ذلك شيئاً...

وعلى الرغم من شدة إنكاره الثورات لأنها من أعمال العنف، كان الأحرار ينظرون إليه نظرتهم إلى أحد قادة الحرية، وذلك لأنه خاصم الدولة والكنيسة، وأراد أن يقوض بنيانهما...

ولقد أذاع تولستوي بعد شهر من حرمانه ردًا على المجمع المقدس خلاصته أنه لن يدين إلا ما يعتقد أنه الحق، وما يملك أن يذعن لغير ما اطمأن إليه قلبه وعقله ومما جاء فيه قوله «إني أحب الحق أكثر مما أحب أي شيء في هذه الدنيا؛ والحق عندي حتى الآن هو ما يطابق المسيحية كما أفهمها؛ وإني لأتعلق بهذه المسيحية، وبقدر تعلقي بها يكون هدوء نفسي وسعادة روحي؛ وبهذا الهدوء وهذه السعادة أقرب من الموت».

ولم يكتف تولستوى بالرد على المجمع المقدس، فأذاع نداء للقيصر وحكومته

يدعوه فيه إلى المساواة بين شعبه وإلى احترام حرية العقيدة وحرية التعليم، فإن في ذلك السلامة والأمن؛ واختم نداءه الجريء بقوله «إنك إذا فعلت هذا، فبه وحده يصبح مقامك آمنًا وتصبح قويًا حقًا».

***

وفي يوليو سنة ١٩٠١ رحت العلة بتولستوى ولزم فراشه؛ ولم تدعه الكونتس فيما هو فيه من أوصابه، وذلك أنها كانت قد علمت بتلك الوصية التي كتبها من قبل، وعلمت أن ابنته ماري حملت إليه نسخة منها وهو في سريره ليضع عليها إمضاءه، فأسرعت إلى حجرته فقابلت ماري خارجة منها، فطلبت منها الوصية، وراحت تعنفها وتهمها بالنفاق وتصرخ في وجهها مهتاجة، ثم دخلت على زوجها صارخة شاكية في حال من أعنف حالات هياجها، وطلبت إليه الوصية باكية صاخبة، فلم يجبها إلى طلبها فازداد بكاؤها وهياجها؛ ورأت ماري ما أحدثه ذلك من سوء الأثر في أبيها، فقد ازداد وجهه اصفرارًا وكادت تنقطع أنفاسه، وازدادت نبضات قلبه سرعة، ودنا منه الموت.

ولما رأت أمها لا تكترث لذلك ولا تفتأ تكرر عزمها على الانتحار، ناولتها الوصية فمزقتها؛ ولقد أثر ذلك أسوأ الأثر في نفس تولستوى وبدنه، حتى لقد عد نجاته من الموت أعجوبة؛ أما الكونتس فقد حسبت أنها بلغت ما أرادت، ولكنها لم تكن تعلم أن نسخة من الوصية كانت مع ابنها سيرجي وأخرى كانت مع شيرتكوف.

ولما تحسنت حال تولستوي بعض الشي أشار عليه الأطباء أن يسافر إلى القرم ليقضي الشتاء هناك؛ وصحبته زوجته وابنته الكسندرا في نهاية أغسطس إلى يالتا؛ وقد وضع وزير السكة الحديد عربة سفر خاصة تحت تصرفه حرصًا عليه من التعب؛ ونزل تولستوي في دارة إحدى صديقات زوجته وظل هناك حتى شهر يونيو سنة ١٩٠٢.

وفي يالتا استأنف تولستوى الكتابة في قصة «الحاج مراد»؛ وكان يقيم على مقربة منه مكسيم جوركي وكذلك كان يقيم تشيكوف في يالتا منذ بضع سنين؛

وكثرت زيارامما للكاتب العظيم؛ ولقد كان تولستوى يحب تشيكوف ويعطف عليه ويؤمن بموهبته ويثني على مقدرته وذوقه؛ ولم يكن يظفر جوركي منه بمثل هذا الرضاء؛ وقد قال عنه «إنك تستطيع أن تخترع أي شيء إلا السيكولوجي؛ وكثيرًا ما يقع الإنسان على هذا الاختراع السيكولوجي فيما يكتب جوركي، وذلك لأنه يصف ما لم يحس قط».

وفي يناير سنة ١٩٠٢ أرسل تولستوى من يالتا كتابًا إلى القيصر نيقولا الثاني خاطبه فيه بقوله «أخي العزيز» وراح تولستوي في جرأة لا يستطيعها غيره يذكر القيصر بمساوئ الأوتوقراطية، كما راح يحمل على الكنيسة الأرثوذكسية، ولم يدع تولستوى نقيصة من نقائص حكمه إلا أحصاها «ابتداء من إجابتك التي أثارت استنكار الشعب الروسي كله وهي التي وصفت بها أعظم رغباته الشرعية بأنها حلم من الأحلام إلى عنادك وتمسكك بالعقوبة البدنية على ما بسط لديك من أسباب للقضاء على هذا العمل السخيف، الذي لا معنى له، والذي هو تحد لشعور الشعب الروسي».

وقد حمل تولستوى هذه الرسالة الغرندوق نيقولا، ليعطيها للقيصر، وكان قد زاره هذا الغرندوق في يالتا وأظهر له الود والاحترام قائلًا إن ضيعته هناك رهن مشيئة الكاتب العظيم إذا أحب الرياضة أو الإقامة فيها.

وما من دليل على مكانة تولستوي يومئذ في وطنه أبلغ من أن يحمل هذا الغرندوق كتابه إلى القيصر فيقرأه القيصر علي ما فيه من جرأة ولا يفعل بكاتبه شيئًا!..

وحدث أن ساءت صحة تولستوي ذات مرة في يالتا وظن أهله أن الموت مدركه لامحالة. فكانوا يقومون إلى جانب سريره، كل منهم مدة معينة؛ وبلغ ذلك المجمع المقدس فأخذ يذيع أن الكاتب العظيم قد عاد إليه صوابه عند احتضاره، وأنه عاد إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وأرسل المجمع قسيسا إلى يالتا، فطلب الدخول على

الشيخ المحتضر؛ ولكن تولستوى أبل من مرضه، ولا على هذه الأنباء على لسان ابنه سيرجي تبسم ضاحكًا وقال «أيستطيع هؤلاء السادة أن يفهموا أنه حتى في وجه الموت إذا أضيف اثنان إلى اثنين فلا يزال مجموعها أربعًا؟».

ولقد كان يجزع تشيكوف جزعًا شديدًا كلما اشتد المرض على تولستوى؛ كتب ذات مرة إلى أصدقائه فقال: إني أخاف موت تولستوي، ذلك أنه إذا مات أحدث موته فراغًا عظميًا في حياتي؛ فإني لم أحب إنسانًا قط كما أحبته؛ ولست مؤمنًا ولكني أرى عقيدته أقرب العقائد إلى قلبي؛ وفضلًا عن ذلك فإن وجود تولستوي في دنيا الأدب يجعل من اليسير ومن الممتع أن يكون الإنسان كاتبًا؛ حتى ولو تفطن المرء إلى أنه لم يفعل شيئًا وأنه ليس بفاعل، فليس ذلك بالخطب الجلل طالما أن تولستوى يصنع ما يغني عن الجميع؛ وتحقق مؤلفاته الآمال التي ترجى من الأدب؛ ولتولستوى ثبات عظيم وسلطان كبير، وما دام حيًا انتفي من الأدب كل غث من الكلام وكل فاسد من الذوق، وبعد عنه كل ادعاء كاذب؛ وسوف يحفظ سلطانه للأدب مستواه العالي؛ وبغيره ترى الأدباء قطيعة بغير راع، والأدب خليطة لا تقع فيه على شيء.

وكان يرى أهل بالتا الكاتب العظيم في عربة يدفعها ابنه سيرجي، وهو يقرأ له رسائله أو بعض فصول قصته «الحاج مراد»؛ فإذا أوى إلى منعزل أملى عليه أو على ألكسندرا صفحات جديدة فإنه يحب أن يفرغ من هذه القصة.

وكان إذا عادت إليه عافيته يمشي على قدميه خفيفًا نشطًا، فيبدو وهو في الرابعة والسبعين وكأنه في أول كهولته.

ومرضت ألكسندرا في صيف سنة ١٩٠٢، فكره تولستوى المقام في القرم ولذلك عاد إلى ياسنايا.

# نذير!

«لست أدري كيف يستطيع البشر أن يعيشوا، وهذه الأموال تحيط بهم من كل جانب!» ذلك ما صاح به تولستوى ذات يوم وهو يحاور صديقًا له في أوائل القرن العشرين.

ولقد ظل تولستوى نذيرًا لقومه ولبني الدنيا في السنوات العشر التي شهدها من حياة هذا القرن الجديد؛ وكان كل ما يعلم نبأه من شر في روسيا أو خارج روسيا يؤلمه ويكرب روحه حتى ليشرف به على اليأس؛ ومن ذلك طغيان الأوتوقراطية في روسيا، والمخالفات العسكرية والاستعداد العلمي للحرب في أوربا ولم يقعده المرض ولا الشيخوخة عن أن يجهر برأيه منذرًا قومه كلما أحس أن عليه أن يفعل ذلك؛ ولقد رأينا كيف أنذر القيصر نفسه وهو في يالتا وحذره عاقبة حكمه في جرأةٍ لم يكن يستطيعها غيره في بلد مثل روسيا أو في غير روسيا من بلاد الله...

ولما عاد من يالتا لم يكف عن الجهر برأيه في كل أمر يخشى عواقبه، وظل نذيرًا للطاغين وإن تماروا بتلك النذر..

في نوفبر سنة ١٩٠٢ أذاع «نداء لرجال الدين» يقول لهم فيه إن ما يزعمونه من الدين ليس من المسيحية في شيء، وأنهم أفسدوا الناس «وإن الناس منذ أجيال طويلة وقد أقاموا حياتهم على مبادئ لا يمكن مصالحتها على المسيحية الصحيحة، يشعرون شعورًا تامًا أنهم يعيشون عيشة مسيحية، وعلى ذلك، فلا يمكن أن يردوا إلى المسيحية الحقيقية».

وفي أبريل سنة ١٩٠٣، حمل حملة شديدة على تلك المذابح التي ارتكبتها الجماعات الإرهابية اضطهادًا ليهود وكانت تعمل هذه الجماعات بتدبير من الحكومة كما بينا من قبل، وعرفت مذابحها باسم «البوجروم» ولقد ندد تولستوي بهذه

«البوجروم» التي هي النتيجة المباشرة لتلك الدعاوى القائمة على الكذب والعنف، تلك الدعاوى التي أسرفت فيها الحكومة الروسية».

وفي مايو سنة ١٩٠٤، أعلن تولستوى سخطه على الحرب الروسية اليابانية في مقالة عنوانها «عودوا إلى أنفسكم» ونشر في هذه السنة مقتطفات ما وقع عليه في مطالعاته، وعده منبعثة من ذلك الشعور الحكيم أو الشعور المسيحي الذي يدعو الناس إليه وسمى هذه المقتطفات «أقوال الحكماء».

وأعقب ذلك في سنة ١٩٠٥ بنشر مقالة عنيفة عنوانها «الحل الوحيد»، ولكن الحكومة وضعت يدها عليها وحالت دون نشرها...

ولم يقر تولستوى ثورات ١٩٠٥ لأنها كانت قائمة على العنف، كما أنكر على الحكومة ما تأتيه من ضروب العنف والبطش بالناس؛ ولو كان غيره مكانه للحقه أذى كثير من هؤلاء الثائرين المتعصبين المتحمسين؛ والحق أن كثيرين من الأحرار ودعاة الديموقراطية قد نقموا منه ما يقول، ولولا عظيم مقامه في قومه لانصرف كثير من الناس عنه..

وكان ألم المصلح الشيخ عظيمًا لما يرى حوله من مظاهر العنف من كل جانب؛ ولكنه لم يسكت، وكان الثائرون في صخبهم وضجيجهم يصغون إلى صوته وكأنهم ينصتون منه إلى نبي، كما كانت تصغي الحكومة إلى هذا الشيخ الذي تزعجها كل كلمة منه، وإن لم يستحب هؤلاء ولا هؤلاء إلى ما يدعوهم إليه.

وقست الحياة على الرجل الذي كان يدعى يومئذ «رجل العالم» وفدحته أعباؤها، فقد ماتت ابنته الحبيبة ماري سنة ١٩٠٦، وهي التي أخلصت الحب لأبيها ومبادئه، ولم تأت هذه السنة حتى كان أكثر أصدقائه قد غادروا الحياة؛

– ديا نوف واستراخوف وجي وتشيكوف وابنة عمه الكونت ألكسندرا، ثم أخوه سيرجي.

وقبل موت ابنته مرضت زوجته مرضًا شديدًا وعملت لها جراحة؛ وقد كان

عطف زوجها عظيمًا وألمه لمرضها أعظم؛ ولعلهما ما شعرا بالحب بينهما فيا سلف من حياتهما أكثر مما شعرا به في تلك الأيام؛ ولقد قال لها زوجها إنه يحس الوحشة في البيت لخلوه من وقع أقدامها ومن صوتها وإنه لذلك لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب..

وكدر روحه غير ذلك ما كان من مسلك بعض بنيه حتى ليحب أن بريحه الموت، فقد كان أحدهم عضوا في هـ المئات السود » و إن أباه ليدعو الدنيا كلها إلى السلام والمحبة! وكان ابنه ليويعارضه بكتاباته و ينكر آراءه جميعا، ولقد

كتب يحبذ الحرب الروسية اليابانية بينما يقرأ الناس لأبيه ليو الكبير سخطه على هذه الحرب!

وأزعجه شيء آخر، وذلك أن زوجته استدعت الشرطة لحراسة الغابات في ياسنايا لأن الفلاحين يسرقون شجرها ويعتدون على حراستها، ولقد أطلق بعضهم الرصاص ذات مرة على كبير الحراس، وكان تولستوى كلما مر بهم على ظهر جواده ورآهم يقطعون الشجر بمناشيره وفؤوسهم أدار وجهه عنهم وتظاهر بأنه لا يرى شيئًا..

وكان يؤم تولستوي ما يغالط به البطلون أنفسهم والناس، وما يسخرون به من كتاباته لوجود هؤلاء الشرطة يحرسون أملاكه؛ ولما يئس من إقناع زوجته بضرورة صرفهم صاح بها ذات مرة كفى كفى يا سونيا.. إذا كنت لا تفطنين إلى أن الحياة في حراسة الشرطة الذين يقبضون على الفلاحين ويلقون بهم في السجن تضيق بها نفسي فلا فائدة من الكلام ».

وظن الفلاحون أنفسهم به الظنون فعند بعضهم أنه هو الذي فعل بهم ذلك ولقد كانت الكنيسة توحي إليهم أنه الشيطان في ثوب إنسان؛ تحدث عن ذلك أحد أصدقائه مرة فقال: رأيته وقد دفن وجهه في يديه المرتعشتين والدموع تتساقط من عينيه، وهو يئن في صوت مسموع قائلًا: آه لتلك المنظر الذي رأيته الآن وتلك الكلمات التي سمعتها... فبينما كنت على ظهر جوادي رأيت بعض الفلاحين في عربة وتحدثت إليهم؛ لقد صوبوا في نظراتهم وصعدوها ثم تكرهوا لي؛ ثم نهض أحدهم

وصاح بي: ألا زلت حيًا أيها البجعة العجوز؟ ألم يأخذك الشيطان بعد؟ كان ينبغي أن تموت من زمن بعيد، لقد عشت إلى أرذل العمر. أنظر إلى جواده الهزيل العجوز! فسألته: ماذا دهاك وما ذا تعني؟ أنا تولستوى من ياستايا بوليانا؛ فأجاب: إنا نعرفك حق المعرفة أيها الهرم الذي يمتص دماءنا، كان ينبغي أن نكون فرغنا منك منذ بعيد».

وأصرت الكونتس على بقاء الشرطة، ولا يملك زوجها أن يصرفهم، وما يستطيع فرارًا اليوم لو أراد...

حسبه هذه الآلام، وحسبه أسقامه فوق آلامه؛ ولكن صوته لن يفتأ يدوى في أنحاء روسيا، وتتجاوب به الدنيا كلما دعا إلى ذلك داع؛ لقد هاله ما يفعل ستوليبن بالأحرار من شنق ونفي وأسر، فكتب مقالة عنوانها «لا أطيق أن أظل صامتًا»؛ وراح يلعن الطغيان والطاغين ويعدد مساوئ الحكومة ويصور مظالمها، ويصرخ في وجه الظلم غير هياب! وقد جاء في هذه المقالة التي أعادت له سابق منزلته في نفوس الأحرار قوله «لا أستطيع أن أعيش وأنا على علم أن ذلك يقع حولي.. يجب أن نصيح وأن نصرخ! و إذا كان لا بد للحكومة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح، واقتراف أعظم الآثام، فها هو ذا رأسي أقدمه فدية لبني وطني» واختتمها بقوله «لقد كتبت ذلك وسأعمل على نشره بكافة الوسائل في روسيا وخارج روسيا ليحدث أحد أمرين. فإما أن يوضع حد لتلك الأعمال الوحشية، وإما أن أوضع أنا في السجن بعيدًا عنها، حيث أشعر شعورًا واضحًا أن تلك الأعمال لا ترتكب بسبب ما أذيع من آراء... وخير من ذلك أن معه في على المشنقة لأهبط بثقلي معلقًا في ملحفتي التي تدور حولي حنجرتي العجوز فألقي مصرع أولئك الذين يقتلون بغير حساب».

ولقد عظم وقع هذه الصيحة في نفوس الناس جميمًا، وطرب لها الأحرار وأشفق منها ستوليبين في طغيانه وإرهابه، وأخذته منها الرهبة فبادرت الحكومة بمصادرتها، وأنزلت أشد العقاب بناشر بها من رجال الصحافة وأخذت تكيد لتولستوى فاستولت على كتبه وعاقبت من يبيعها، واضطهدت سكرتيره جوزيف ثم نفته من روسيا متهمة إياه أنه يذيع آراء ثورية.

ولما اعتقل جوزيف كتب تولستوى إلى ستوليبين يطلب إليه أن يعتقله هو بدل جوزيف لأنه المسؤول وحده؛ ثم أذاع نداء آخر ندد فيه بطغيان الحكومة لما لم يرد عليه ستوليبين، واختتمه بقوله «إن الذين يضيقون بما أذيع من آراء ويضيقون بنشاطي، إذا لم يكن لهم طاقة على الصبر ويريدون أن ينكلوا بأي امرئ، خليق بهم أن يوجهوا عنفهم إلى، لا إلى أصدقائي ومريدي لأن تبعة آرائي تقع على وحدى».

ولكن ستوليبين على تجبره لم يستطع أن يمس بالأذى هذا الأعزل الشيخ الذي يستجيب لصوته الملايين، والذي يزلزل بقلمه الطغيان من أساسه، ويفعل وحده بهذا القلم ما لا يفعله ألوف الثائرين مجتمعين!..

***

ذهب لتولستوي من الصيت ما لم يذهب مثله لرجل غيره في عصره حتى لقد كان يسمي كما ذكرنا «رجل العالم» وسماه آخرون «نبي هذا العصر»؛ وكانت ترد إليه في شيخوخته مئات الرسائل من أنحاء العالم؛ كما كان يزوره الأعلام من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، بل ومن أمريكا والهند واليابان؛ وكثيرًا ما كتب إليه زعماء القلم من أمثال شو ورومان رولان وولز، وغيرهم، يهنئونه أو يسألونه النصح. وكثيرًا ما هبط ياسنايا أنماط من الناس مصورين وصحفيين ومثالين، وصناع وتجار يطلبون لبضائعهم الرواج بتقديم بعضها إلى تولستوى وكتابة اسمه عليها".

ومن زائريه فتاة خيرها أبوها إن هي نجحت في الامتحان بين ساعة ذهبية أو دراجة أو زيارة تولستوي فآثرت زيارة تولستوي، وجلست أمامه معجبة بالتحدث إليه...

ولما قرب يوم ميلاده الثمانون، وهو الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٠٨، أخذ أنصاره يتأهبون لاحتفالات عظيمة يقيمونها في طول روسيا وعرضها.

وكتب تولستوي إلى بعض أصحابه برجو منهم ألا يفعلوا ذلك فبهذا وحده يدخلون السرور على نفسه ولئن كفوا فإن شكره إياهم لعظيم..

وأخذت الحكومة من جانبها تتأهب لمنع المظاهرات في هذا اليوم، كما أخذ رجال الدين يتواصون ألا يشارك أحد في جفاوة به؛ وأنذر ستوليبين الصحف بطشه إن نشرت ما يثير...

وفي صباح عيده الثمانين، تقاطرت الوفود إلى داره على صورة لم يعرف لها مثيل من قبل؛ وظل الناس أفواجًا من كل طبقة يحجون إلى ياسنايا، وكان بينهم وفود من الدول الأوروبية الكبرى ومن أمريكا ومن الهند ومن اليابان.

وتلقي في هذا الصباح وحده ألفي برقية من روسيا ومن أنحاء الدنيا بينها برقيات من أكابر الكتاب، وأكداسًا لا تحصى من الرسائل، ولقد ظل عمال البريد غادين رائحين طول يوم ميلاده هذا بين مكاتبهم وداره...

وصدرت الصحف في ذلك اليوم وإذا بها جميعا على اختلاف نزعاتها مزينة بصوره وكأنها لكثرة ما جاء فيها عن تولستوى أعداد خاصة به، وكلها تفيض بالحديث عن مؤلفاته وجهاده ومكانته وموضع أدبه بين أدب الدنيا..

ووجل ستوليبين وأعوانه، فلم يقبضوا على أحد من الخطباء الذين تعاقبوا على المنصات في أماكن كثيرة يتحدثون إلى ألوف المستمعين عن تولستوى وجهاد تولستوي... ومن أبلغ ما قيل فيه قول أحدهم «لقد تبين اليوم للناس أن أعداءه هم أعداء الحرية والفضيلة، وأن نصراءه هم نصراؤها».

والرجل وادع في داره، ينظر الألوف إلى محياه المغضن ولحيته البيضاء ويديه المعروقتين وثيابه الريفية، وينصتون إلى ما يقوله خاشعين كأن عليهم الطير؛ ثم ينصرفون وفي نفوسهم أعظ السرور لأنهم رأوا «نبي العصر» واستمعوا إليه.

# جحيم لا تطاق!

ألم يأن لهذا الشيخ بعد طول عنائه وقد بلغ الثمانين أن يستريح؟ كلا!.. فما يريحه إلا الموت وإنه منه لقريب؛ ولقد قدر على هذا الرجل الذي تنصت الدنيا إليه، والذي نعت فوق ما ذكرنا من نعوته بأنه «ضمير الدنيا»، أن يكون شقاؤه ببيته وخاصة بامرأته أكثر من شقوته بتكاليف رسالته!

لايزال ينهض من فراشه المتواضع، والصبح يتنفس، فيلعب محركًا أعضاءه بعض الوقت على قدر ما تطيق شيخوخته، ثم يكنس حجرته بيده ويصلح ما تشعث من فرشه، فإنه خادم نفسه، ثم يغتسل ويرتدي ملابسه، ويذهب إلى حجرة الطعام فيصيب منه قليلًا ويشرب الشاي، ويتحدث بعض الوقت مع زوجته وبناته ومن يتفق وجوده من الصحاب...

ويأتي إليه سكرتيره برسائل ومجلات وكتب تحمل الطوابع من أنحاء الدنيا، فيتأفف «إني أريد أن أظل في وحدتي لا أتصل بغير الله... وخير ما أصنع أن ألقي بهذا كله في النار فأتخلص من ضياع الوقت، وأتجنب ما عسي أن أنتفخ به من غرور».

ويفض الرسائل فيقرأ، ويضيق أحيانًا ما يطلب الناس من نصح وقد نشر آراءه في كتبه؛ ولكنه لا يحب أن يخيب رجاء الطالبين فيرد على رسائلهم، وكانت بين تلك الرسائل التي عظم اهتمامه بها رسالة من إنجلترا سنة ١٩٠٩ من شخص قال إنه تلميذه وذلك الشخص يدعى غاندي.

ويتجه إلى حجرة مكتبه فيذكره سكرتيره بأن فلانًا وفلانًا ومراسل كيت وكيت من الصحف قادمون لزيارته، فيعبس ويحدد الساعة والمدة، فماذا يرد هؤلاء وهو يحب أن يخلو إلى نفسه؟

ويقرأ ويتأمل ساعات في هذه الحجرة التي لا يغطي أرضها شيء، والتي يعلق الفأس والمنجل على أحد جدرها، وتوجد أدوات الإسكاف على منضدة في أحد جوانبها!.

ويركب عند الظهيرة فرسًا هادئةً حلت محل جياده السابقة، إن أحس في نفسه القدرة، أو يمشي على قدميه، ويستغرق في مشاهد الطبيعة ومجالي القرية ساعة أو بعض ساعة لا يفوت عينيه شيء جل أوهان، فهو منذ حداثته محب الكون كله، ولا يزال لعينيه نفاذها إلى أعماق الأشياء...

ويصيب من الطعام في محاف متواضعة على المائدة الكبرى ما كان نباتًا فحسب؛ ويدع لأسرته ولضيوفه ما طاب لهم مما يشتهون؛ وإنه ليضيق أبدًا بهذا الترف ويتنهد تنهدًا عميقًا، فما طمعه في أن يصلح الدنيا وهو النبي الذي لم يؤمن به عشيرته الأقربون؟ ولكن ماذا عسى أن يصنع؟ لقد طالما سأل نفسه ما حيلتي، وإنه ليحس مرارة الخيبة وبخاصة إذا سخر خصومه منه ورموه بالادعاء!

ولقد كانت الكتب لا تزال تأتيه حتى سن الثانين من قوم يرمونه بالنفاق ويقولون إنه يقول مالا يفعل فهو يعيش عيشة مترفة، ولقد كان ذلك أكبر ما يؤلمه ويكدر خاطره، حتى ليعود باللوم على نفسه مرارًا أن لم يفر من بيته فيعيش بقية عمره بين الفقراء وينفي عن نفسه هذه التهمة..

ويلقي زائر به في المساء، ويحاور من يحاورونه؛ وقد يمشي معهم بعض الوقت في حديقة الدار؛ ولقد يدعهم إلى حيث يجلس في جانب منها وسط بعض الفقراء ممن جاءوا يطلبون معونته أو نصحه..

ويستمع أول الليل إلى الموسيقي، أو يتحدث مع صحابته الأدنين وأفراد أسرته؛ ثم يدخل حجرة مكتبه قبل أن يأوي إلى حجرة سريره فيكتب في مذكراته ما يعن له كتابته...

***

ولو ترك الرجل على هذه الحال لقضي بقية عمره كما يشاكل شيخوخته، وما ينتابه أحيانًا من المرض فإن الضعف الشديد ليصيبه بين حين وحين حتى ليفقد ذاكرته ويكاد أحيانًا يفقد وعيه كما ذكرت ابنته ألكسندرا.

ولكن أنى له الراحة وزوجته لا تزال تلاحقه حتى في هذه السن ببكائها وشكاياتها، ولا تفتأ تهدده بالانتحار؟ وما كان يطيق ذلك منها بالأمس وبدنه قوي فكيف به اليوم وهو يدنو من الموت؟

وإن الناس ليتهمونها أنها تتصنع ذلك لتخيف به زوجها؛ ولتحمله على الإذعان لما تريد: وقد علموا أنها تفعل ذلك لأسباب تافهة، ومن ذلك أنها أرادت أن تقدم للمحاكمة ذات يوم في صيف سنة ١٩٠٩ شخصًا طبع بعض قصص زوجها القصيرة؛ وطلبت إلى زوجها أن يمضي الشكوى ولما رفض ذلك جن جنونها وأعلنت إليه أنها سوف تشرب السم؛ وما زال بها حتى عدلت عن ذلك، وقد قبل أن يبقى فلا يذهب إلى مؤتمر السلام في ستوكهلم كما اعتزم من قبل منا لرضائها...

ولكنها دائمة الشكوى؛ وماذا تشتكي منه اليوم ولم يعد للغيرة محل، وقد قسم زوجها ثروته كما أرادت؟ وهل تكف هذه المرأة عن الشكوى والصخب يومًا؟ وهل كفت عن ذلك منذ تزوجها؟ ولكن لشكواها اليوم قصة...

وهذه القصة هي قصة صراع عنيف بين شيرتكوف وفريقه، وقد عاد من منفاه منذ بضع سنوات، وبين الكونتس وفريقها. وكان من فريق شيرتكوف ما كوفتسكي طبيب تولستوى الخاص وابنته ألكسندرا؛ أما فريق الكونتس فكان أكثر أبناء تولستوى...

أما موضوع الصراع فهو مذكرات تولستوي وأوراقه إلى من تؤول بعد موته، ثم كتبه وحق نشرها وما مآل ذلك؟ وكانت الكونتس تري بالضرورة ألا وجه للخلاف، فالمذكرات لها دون غيرها، ونشر الكتب من حقها وحق أولادها؛ وإنها لتعجب كل العجب من أي رأى خلاف ذلك؛ ولكن شيرتكوف يرى للمسألة وجهًا آخر على

أعظم جانب من الخطورة؛ وكان يؤيده فيما يذهب إليه أصحاب تولستوى المقربون ومؤدي ما يذهب إليه شيرنكوف أن تولستوي إن لم يتنازل عن كل حق له في مذكراته وأوراقه ومؤلفاته فيجعلها للشعب بغير مقابل، لم يصدق الناس دعوته، وبذلك تذهب جهوده وجهود أصحابه أدراج الرياح.

وعلى ذلك كان يرى شيرتكوف أن إخلاصه الشديد لمبادئ تولستوى، وهو أقرب حوارييه إليه، يقتضيه أن يبذل كل ما في وسعه كيلا تنجح الكونتس في هذا الصراع، فما أعظم خيبته وخيبة تلاميذ تولستوي جميعًا إن هي نجحت؛ وإنه ليرى أن نجاحه هو أهم من حياته ذاتها، فما قيمة الحياة إذا انهارت الدعوة التي أخلص لها وتحمل في سبيلها ما تحمل من نفي وعذاب؟

وكان تولستوى وزوجته وطبيبه وابنته الكسندر في زيارة شيرنكوف بضيعة له قرب موسكو؛ إذ كانت الحكومة تحول بينه وبين الإقامة في ضيعته قرب ياسنايا، وهناك أمضى تولستوي بإشارة شيرتكوف وعلى غير علم من زوجته بالضرورة وصية غواها أن تكون مذكراته وأوراقه ومؤلفاته جميعًا منذ يناير سنة ١٨٨١حقًا لكل من يريد الانتفاع بها بعد موته؛ واختار شيرنكوف منفذًا لهذه الوصية المؤرخة في سبتمبر سنة ١٩٠٩.

ولعلها أحست ما أثار شكوكها، فإنها ما كادت تصل إلى ياسنايا حتى دخلت على زوجها في سريره، وكان قد حمله الطبيب إليه حملًا لما أصابه من جراء تزاحم الناس عليه في محطة موسكو حتى لقد فقد وعيه أكثر الطريق، وراحت تطلب إليه مفاتيح مكتبه في عنف وهو لا يعي ما تريد، ومازالت تصيح به وهو صامت حتى أستطاع الطبيب بمعونة ألكسندرا أن يحملها على العدول عن ذلك الطلب حتى يفيق.

وسألت ألكسندرا أحد المحامين، وكانت على علم بالوصية فأفتى بعدم قانونيتها لأنه لا يوصى بملك «لكل إنسان»؛ وتشاور أصحابه في الأمر مع شيرتكوف فأوفدوا ف. م. ستراخوف إلى تولستوى بصيغة أخرى جعلت فيها إلكسندرا الوارثة الوحيدة

له.. ولما عرضت على تولستوى نفر منها لأنها ضد مبادئه، ولكن ستراخوف خونه ما عسى أن يقول الناس إذا هو أورث أسرته مؤلفاته، وما كان قد جعل ألكسندرا وارثته إلا لكي نستطيع أن تنفذ رغبته في إباحة النشر لكل طالب..

وعجب ستراخوف أن يذهب تولستوى إلى أبعد ما يطلبون، فقد أسر إليه وإلى ألكسندرا أنه سوف يجعل لابنته الحق في مؤلفاته جميعها لا في تلك التي صدرت في السنوات الثانية والعشرين الأخيرة.

وسوف يوصى بأن تشتري ألكسندرا من أمها ضيعة ياسنايا ما تربح من تلك المؤلفات لتوزع الضيعة على الفلاحين بعد وفاة الكونتس...

وذهب ستراخوف إلى موسكو حيث أفضى بذلك إلى شيرتكوف وعاد بصيغة حسب الوضع الجديد صحبة جولدنويزر الموسيقى ليكون شهيدًا معه على هذه الصيغة.

وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٩ دخل الشاهدان البيت سرًا، ولم تعلم الكونتس عجينهما، وكتب تولستوى بخطه الوصية الجديدة ووقع عليها كما وقع الشاهدان؛ ثم خرج الرجلان من البيت فلبثا ساعة وعادا ضيفين عاديين، ولقيتهما الكونتس مرحبة؛ ولقد عبر ستراخوف عن خجله من خداعه إياها حين وصف هذه الحادثة بعد ذلك بسنتين في إحدى الصحف...

***

كانت سنة ١٩١٠ آخر سنى تولستوي في هذه الحياة؛ وفي هذه السنه لقي تولستوي من العذاب على يد زوجته ما جعل بيته جحيمًا لا يطاق...

وحسب هذا الشيخ الذي لم تخل حياته العجيبة يومًا من شقاء بعقله منذ صدر شبابه ما كان يلاقيه في أيامه الأخيرة من عذاب الضمير. وأشد ما كان يعذبه يومئذ تفكره في مقامه بين أسرته، وكيف تبعد مظاهر الأرستوقراطية من حوله عن مبادئه؛ وإنه ليشقى بذلك حتى لتلح عليه الرغبة في الفرار....

ولم تدعه زوجته فيما هو فيه، فأخذت تعذبه بغيرتها من ابنتها ألكسندرا وإظهار حقدها عليها بين يدي أبيها، وقد عادت من القرم حيث قضت بضعة أشهر طلبًا للعلاج من ذات الصدر.

ثم إن زوجته لا تزال تصر على معاقبة الفلاحين، فقد لقي تولستوى ذات يوم وهو علي ظهر فرسه ومعه طبيبه أحدهم يساق إلى السجن متهمًا بسرقة بعض الأخشاب، وقد كان أحد تلاميذ مدرسته وهو صغير؛ فعاد إلى البيت فوجد من زوجته إصرارًا على موقفها منه، وقد بلغ من تأثره أن حمله طبيبه إلى فراشه وقد فقد ذاكرته...

وذهب تولستوى في يونيو لزيارة شيرتكوف وقد سمح له بالمقام في إحدى ضياعته القريبة، ولما قضي هناك بضعة أيام وكتب إلى زوجته أنه عائد في الخامس والعشرين، أرقت إليه في الثاني والعشرين تطلب عودته من فوره وتزعم أن مرضًا شديدًا أصابها؛ واتفق أن كان ذلك اليوم على موعد مع أحد كبار الموسيقيين جاء له خاصة ليسمعه ألحانه، فأبرق تولستوى إلى زوجته أنه عائد في اليوم التالي، فظنت أن ذلك عمل شيرتكوف وأبرقت إليه تلح في وجوب عودته في الثالث والعشرين؛ ولم يجد بدًا فعاد، ووجدها في فراشها، فما كادت تراه حتى أخذت تصرخ وتئن وتوجه إليه أعنف الكلام، وقد أثبت في مذكراته بالليل قوله «وجدت الأمور أسوأ مما توقعت.. هستيريا وهياج فوق الوصف... لقد استطعت أن أضبط نفسي ولكني لم أكن لطيفًا كما ينبغي»، وأعقب ذلك أيام من العنف والبكاء والشكوى والتهديد بالانتحار.

وشخص شيرتكوف إلى ياسنايا ليصلح ذات بينهما، فما زاد حضوره الأمر إلا عنفًا، فلقد اندفعت خارجة من البيت والمطر ينهمر عقب حوار بينها وبينه اختتمه وقد يئس من إصلاحها وإنه لذو غضب بقوله «إنه لو كان له زوجة مثلها لقتل نفسه أو لهاجر إلى أمريكا، وإذا كانت ترغب أن تميل بالحوار إلى ما في قتلها زوجها من مزايا أو مضار فإنه لا يسمح لنفسه بمحاورتها...

وكان أعظم ما يغيظها من شيرتكوف فضلًا عن سالف كرهها إياه أنه يحتفظ عنده بمذكرات منذ سنة ١٩٠٠؛ وكانت تسعى جهدها لتسترد هذه المذكرات، مخافة أن ينشر منها بعد موت تولستوي ما يعلم من نشره الناس أنها أساءت إلى زوجها وأشقته، بينما كانت تحرص أشد الحرص أن يعلم الناس أنها وهي زوجة كاتب عظيم قد أعانته وهيأت له من أسباب الراحة والسعادة ما سهل عليه عمله...

ولما عادت إلى البيت مبتلة مرتعدة، لم يستطع زوجها تهدئتها؛ وسألته صارخة لماذا يجعل شيرتكوف أهم منها فيوكل إليه الاحتفاظ بالمذكرات؟ فلما أجابها بقوله لأنه أقرب أصدقائه إلى قلبه وأكثرهم فهمًا لمبادئه ازداد هياجها وقالت لزوجها: «إذا فاقتلني.. أعطني أفيونًا». وظلت تبكي حتى الخامسة في الصباح؛ ولم يجد معها قول زوجها المكدود «إني لأرضي أن أتوسل إليك جاثيًا على ركبتي والدموع في عيني أن تهدأي»، فقد أجابته أنها تفعل كل شج يطلبه منها حتى لو طلب أن تعيش في كوخ فلاح إذا هو أبعد شيرتكوف.

وعاد شيرتكوف في اليوم التالي فألقى إليها كتابًا يثني عليها فيه ويعلن لها مودته ويستأذنها في لقاء أمه لتصلح بينها وبينه، ويشكرها على ما أرسلت من خيل لأمه أثناء قدومها، ولكنها لم تقبل فيه شفاعة...

وبعد أيام أرسلت إليه تطالب المذكرات؛ ولما لم يرسلها إليها عادت تهدد زوجها بالانتحار وخرجت ثانية من البيت فألقت بنفسها ليلًا على الحشائش المبللة وراحت تنتحب...

وفي الحادي عشر من يوليو أيقظه ابنه ليو عند منتصف الليل، وأفضى إليه أن أمه في الحديقة تهيم على وجهها، ولن تدخل البيت إلا أن يذهب إليها بنفسه؛ ثم قال الغلام وقد تباطأ أبوه من إعياء وهذا شيء مثير، فإنه يجلس هادئا في كرسيه وهو الداعي إلى التسامح وعدم المقاومة، بينما ترقد أمي على الأرض، وتعتزم أن تقتل نفسها، وكتب الشيخ المنكوب في مذكراته وليلة مريعة حتى الساعة الرابعة، وأسوأ من

كل شيء ما قال ليو؛ لقد أنبني كما لو كنت طفلًا، حين طلب إلى أن أذهب إلى الحديقة لأعود بصوفيا أندريفنا ».

وكتب الشيخ المعذب كتابًا إلى زوجته وقد علم أنها تعد السم لنفسها، وعدها فيه أنه لن يعطى مذكراته الحالية لأحد، وأنه سوف يسترد ما لدي شيرتكوف من مذكراته ويضعها جميعًا في مصرف تولا؛ وأثنى عليها في كتابه قائلًا إنه يحبها منذ عرفها وأنه لن ينسي معونتها، وما كان من جهودها في تربية أطفالها؛ وأنه ليس بينه وبينها من خلاف إلا في نظرتهما إلى الحياة؛ ولقد تركها حرة تحيا كما شاءت، ورضي لنفسه بالتعب والمشقة وحده؛ وإذا كانت تخشى شيئًا مما كتب في مذكراته فإنه مستعد لأن يكتب أن ما جاء عنها لا يعبر عن الحقيقة لأنه نتيجة غضب وقتي؛ حتى شيرتكوف فإذا كانت تريد ألا يراه فإنه يفعل ذلك مع ما فيه من عظيم الألم لصاحبه؛ واختتم كتابه بقوله إنها إن لم تهدأ بعد ذلك فسوف يغادر البيت إلى غير عودة وإلى حيث لا تعلم مكانه، ولن يذهب إلى شيرتكوف، بل إنه سوف لا يسمح له حتى بالإقامة على مقربة منه؛ ولن يثني عن عزمه فإن الحياة على هذه الصورة مستحيلة..

وأرسل ابنته ألكسندرا إلى شيرتكوف، فعادت بالمذكرات؛ وحاولت ألكسندرا أن تخفيها عن أمها ولكنها أخذتها عنوة منها وقرأتها، وفي اليوم التالي وضعت في غلاف وختمت بخاتم تولستوي وأودعت مصرف تولا؛ وقد أشيع أن شيرتكوف وأصحابه قد شمروا عن سواعدهم فنسخوا كل ما جاء فيها عن الكونتس قبل أن يعطوها ألكسندرا، مخافة أن تشوه الكونتس تاريخ زوجها بعد موته...

ولم تكتف الكونتس بما فعل زوجها فألقت على مكتبه كتابًا منها، تعبر فيه عن مبلغ ما ساورها من خوف مما تهددها به، ولذلك فهي تنصت إلى وقع أقدامه، وترتاع إذا غاب عن البيت، وطلبت إليه أن يعطيها مفتاح خزانة المصرف ووثيقة استلام المذكرات؛ ولما لم يجبها زوجها عادت تهدده بأكل الأفيون!

وازداد مقتها لشيرنكوف ولم تعد تطيق مجيئه إلى بيتها، حزمت متاعًا لها،

وخرجت من البيت تبغى الفرار، ولكنها لقيت ابنها أندرو قادمًا فعادت معه؛ وألقت بنفسها بين يدي زوجها باكية، وخفف عنها ما لقيت من عطفه فهدأت قليلًا...

ولو أنها علمت ما فعل شيرنكوف لما وقف جنونها عند حد؛ وذلك أن قصة الوصية قد أضيف عليها فصل جديد؛ فإن تولستوي خاف أن تموت ألكسندرا قبله، فأراد أن يضيف إلى الوصية أن ابنته تانيا تخلفها وارثة له في هذه الحال؛ وذهب تولستوي خفية إلى حيث يقيم شيرتكوف وكتب هذه الوصية وشهد عليها بعض الأصدقاء في الثامن عشر من يوليو سنة ١٩١٠ ولكنه نسي أن يذكر أنه سليم الحواس؛ ولذلك كتب وصية أخيرة بعد ذلك بخمسة أيام في غابة زازكا حيث جلس على جذع شجرة وقد ركب إلى هناك ومعه جولدنو مزز وسكرتير شيرتكوف فشهدا على ما كتب.

وأذعن تولستوى، ابتغاء ما هو في أشد الحاجة إليه من هدوء، فكتب إلى شيرتكوف يطلب إليه ألا يحضر إلى بيته، ويرجو منه المعذرة ويفهمه أن ذلك إلى أجل يرجو أن يكون قريبًا.

ورد عليه شيرتكوف أنه يقبل ذلك عن طيب خاطر إذا كان فيه هدوءه، بيد أنه يخشي أن يذهب صاحبه في تهدئة زوجته إلى حد أن يصبح بمنأى عن «تلك الحرية التي يجب أن يتمسك بها أبدًا ذلك الذي يريد أن ينفذ مشيئة الله الذي أرسله لا مشيئته هو فحسب»...

وراحت الكونتس تشمت بشيرتكوف وتعلن أنها سوف تقطع كل صلة بينه وبين زوجها؛ ثم إنها تلقت من أمه رسالة تحتج فيها على ما تطلق به الكونت لسانها فيه من طعن، فلا تحفل ذلك ولم ترد عليها....

ومن عجيب أمرها أنها أثبتت في مذكراتها في أغسطس أنها تحب أن تصفح عنه وتساله، ولكنها تردف ذلك بقولها «بيد أني كما ذكرت صورته وما يبدو على وجه ليو نيقولا فتش من سرور بلقائه لا يلبث أن يعاودني الألم».

وأخذ شعور الندم يساور تولستوي على ما كتب إلى صاحبه؛ فقد أثبت في مذكراته في السادس من أغسطس قوله «إن رضائي بأن أحول بيني وبين شيرنكوف عمل مضحك، وفيه إذلال لي، وهو مخجل ومحزن».

وليت زوجته قنعت بذلك، فلقد كانت تلحق به أحيانًا وتراقبه من بعد إذا خرج الرياضة مخافة أن يتصل بشيرنكوف؛ ولما علم ذلك غضب أشد الغضب وكتب في مذكراته يقول «إني أفكر في أن أفر وأترك لها كتابًا ولكني أخاف أن أفعل ذلك ولو أنه خير لها».

وعذب تولستوى شعور آخر، وذلك ما يحس فيما فعل في قصة الوصية من خداع لأسرته، وكاد يطيع صديقه بيروكوف وكان يعلم نبأها، فيفضي إلى الأسرة بكل شيء، لولا أن أرسل إليه شيرتكوف كتابًا طويلًا حذره فيه عاقبة ذلك واختتمه بقوله « \إنك إن فعلت ذلك فليس يألم أصحابك فحسب بل إن فضيحة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأدب تلحق بكتاباتك التي بشرت فيها بالحب والتوافق»..

وزار تولستوى وزوجته ابنتهما تانيا في بيت زوجها بدعوة منها، وهناك حسنت حاله فاستطاع أن يقرأ وأن يلعب الورق وأن يلاعب حفدته ويقص عليهم القصص، ونسيت زوجته هواجسها وهمومها.

ولكنها قرأت في إحدى الصحف أن الحكومة سمحت لشيرنكوف بالمقام في ضيعته القريبة من ياسنايا فثارت ثائرتها، وراحت تطلب إلى زوجها أن يؤكد قطعه كل صلة له بشيرتكوف، وإلا فهي سوف تقتل شيرنكوف بأن تدس له السم؛ وبلغ من ثورتها أن صاح بها زوج ابنتها قائلًا إن لم تهدأ فسوف يقنع الأسرة كلها بأن يعيش زوجها بعيدًا عنها؛ وردت على ذلك بقولها إنها تنشر كتابًا في الصحف تفضحه فيه ثم تشرب السم فتموت...

وعادت وجدها إلى ياسنايا فرضت صورة شيرنكوف من حجرة زوجها واستدعت قسيسًا ليطرد روحه الخبيثة من البيت.

وكان هذا عقب كتاب طويل جاءها من شيرتكوف عملًا بإشارة تانيا، يطلب فيه مغفرتها ويعتذر عما كان من عبارات شديدة فاه بها مغضبًا بين يديها؛ ولقد ردت عليه تعلن له سخطها وتشمت به قائلة إن زوجها وعدها أن لن يراه أبدًا وأخذت الكونت تطلق لسانها بالطعن في زوجها، وتطلع الناس على ما جاء في مذكراته الأولى، حتى لقد خرج أحد البولنديين من البيت باكيًا، لما يرى من سوء حظ تولستوى في أيامه الأخيرة، وقد سافر هذا السفر الطويل لرؤيته ولكنه لم يره...

وكدرته حتى ابنته ألكسندرا، وإن كان ذلك عن غير قصد منها، فقد رفعت أمها من مكتب أبيها صورته مع ابنته كما فعلت بصورة شيرتكوف، واشتد غضب ألكسندرا؛ ثم إنها رأت أباها يقف إلى جانب أمها أمام مصورة شمسية في يوم ذكرى قرانها فلم تمالك نفسها ودخلت عليه وحده بعد ذلك تعلن إليه أنه لا يليق أن يضحي بابنته وصديقه بسبب أوهام امرأة؛ وتألم أبوها وقال «لقد بدأت تسلكين سلوكها».

وانصرفت مغضبة، ولما أرسل إليها أبوها يدعوها إليه رفضت أول الأمر، ثم كظمت غيظها ودخلت عليه؛ وجلست ليملي عليها رسالة، ولكنها ما كادت تمسك القلم حتى أسند رأسه إلى ذراع كرسيه وأجهش، وكان بكاؤه يقطع كلامه، نهضت إليه ابنته واعتذرت بين يديه باكية..

ولم تطق ألكسندرا المقام بالبيت فاستصحبت إحدى صديقاتها إلى بيت صغير لها، ولما استأذنت أباها قال لها: «إن الأمور كلها تفضي إلى نهاية واحدة».

وأحس الرجل وحشة عظيمة بعد ذهاب ابنته؛ وبخاصة لأنه فقد كذلك عطف الصديق فقد جاءه قبل ذهابها كتاب عنيف من شيرتكوف مليء بالعتب الذي يقرب من التأنيب... واشتد ألم تولستوي من هذا الكتاب، وكتب في مذكراته في الخامس والعشرين من سبتمبر يقول: «إنهم يمزقونني إربًا إن الرغبة في الفرار منهم جميعًا تساورني بين الحين والحين».

وفي الثالث من أكتوبر أخذ تولستوى إغماء وهو في فراشه، وخاف طبيبه على حياته؛ وظل على هذه الحال زمنًا، وكان يحرك يده على ملاءته كما لو كان يمسك بها قلمًا ويكتب؛ ولما عاد إليه وعيه قال «أريد أن أكتب، فأسرع إليه طبيبه بورقة وقلم فكان ما خطه عليها «المعقولية.... المعقولية... المعقولية» وعاد ثانية إلى غيبوبته وكان يرتعد في شدة ويحرك ساقيه في عنف؛ وحضرت ابنته ألكسندرا فواجهتها أمها بقولها «إني أقاسي أكثر مما تقاسين فإنك تفقدين أبًا وأنا أفقد زوجًا أعد مسؤولة عن موته».. ثم ذهبت إلى أحد قماطر زوجها وأخذت إضبارة من الورق؛ ورأى ذلك ابنها سيرجي وأخته تانيا، فأخفيا المفاتيح كما أخفيا مذكرات أبهما، وما زالا بأمهما حتى أعادت الإضبارة إلى مكانها!

وعاد إلى تولستوى وعيه بالليل ونام نومًا عميقًا؛ وفي صباح اليوم التالي أحست الكونتس شيئًا من الندم فطلبت إلى ابنتها أن تبقي بالبيت، ووعدت ألا تغضب زوجها ثانية؛ وعند ذلك صاح بها ابنها سيرجي أنها إن لم تكف عن سلوكها، فسوف يدعو مجلسًا من أفراد الأسرة ليقوم على مراقبتها...

وخففت الكونتس من غلوائها قليلًا حتى لقد سمحت لشيرنكوف بالحضور إلى المنزل؛ ولقد ارتاح تولستوى إلى ذلك كثيرًا، وإن كانت زوجته لتظن أنهما يتآمران، وتنصح له أن يحذر من «باطل صديقه وخداعه».

ولكن ارتياحه لم يطل، فما لبثت أن هبت العاصفة من جديد عاتية لا تبقى على شيء؛ وذلك أنها علمت بالوصية في الثاني عشر من أكتوبر، وللمرء أن يتصور مبلغ ما ركبها من جنون... لقد ذهبت إليه صارخة ترغي وتزيد، وتجهش، وراحت تتهدده تارة وتقبل يديه تسأله أن يلغيها تارة، والرجل في ربكته ودهشته لا يعلم كيف جاءها هذا النبأ؛ ولقد زعمت أنها وقعت على مذكراته في صيوان ما فقرأت نبأ الوصية.

ولم يجبها زوجها إلى ما طلبت على الرغم من ثورتها ومن توسلها، قالت إنها سوف تعلن بعد موته أنه كتبها وهو مجنون!

وزاره بعد أيام أحد أتباعه الطيبين، وهو فلاح يعيش في كوخ في قرية قريبة فأسر إليه تولستوى قوله «سوف لا أموت في هذا البيت، لقد اعتزمت أن أفر إلى مكان منعزل لا يعرفني فيه أحد، وربما جئت لأموت في كوخك».

وكتب إلى هذا الفلاح بعد قليل يتفق وإياه على اسم يبرق إليه به متى لزم الأمر، ويسأله إن كان يقبل أن يضايقه زمنًا لن يطول بالمقام في كوخه. ولكن هذه الرسالة لم تصل صاحبها في ميعادها ولذلك لم يتلق تولستوى ردا عليها..

وظل الرجل يلقي من عنت امرأته وثورتها ما جعله يتمنى الموت أكثر من مرة، ولا يملك إلا أن يتمتم قائلًا: «رب خذ بيدي... رب خذ بيدي».

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر، صحا من نومه في الثالثة صباحًا على صوت يد تعبث بأوراقه فأشعل شمعة وذهب إلى حجرة مكتبه فإذا به يلقي زوجته وإذا بها تظهر له في رفق نجيب ومودة قلقها لعدم نومه وعطفها وإشفاقها عليه، وهي نغمة يسمعها منها منذ بضع ليال، فطن إلى ما في كلامها من خديعة وسوء مكر؛ وذهب من قلبه كل عطف عليها وكل مبرر للصفح عنها، فلئن كانت مريضة فيا يبلغ بها المرض أن تحاول هذه المحاولات المتصلة لتنال بغيتها، ولكن فرض أنها مجنونة في عنادها وإصرارها وسوء مكرها ما يجعل جنونها موضع شك... كلا! إنها تخدعه، وإنها لا تكترث له، ولا تهتم إلا بغايتها...

إنه لن يطيق بعد ذلك صبرًا... إنه يحاول أن يتنفس فلا يكاد يجد نفسه؛ ولكنه يتصنع الهدوء ثم يتظاهر بأنه يقرأ قصة دستويفسكي «آل كارامازوف الإخوة»، وقد كانت مفتوحة على مكتبه حيث تركها قبل أن ينام؛ ولبث ينظر فها حتى انصرفت زوجته.

# فرار إلى الله!

لم يعد من الفرار بدًا وهكذا قدر على هذا الفنان العظيم أن تنتهي حياته مأساة أشبه بمآسي قصصه؛ والحق إن حياته كلها كما ذكرنا لا تقل روعة وغرابة عما اخترع خياله من قصص!...

وإلى أين يفر؟ إلى حيث لا يدري.... إلى الله.. إنه يريد أن ينجو حسب من المرأة «التي اعتزلته روحيًا» كما قال ذات مرة، ليتصل بالله فيما بقي من عمره، وما يهمه ليونيقولا فتش كما قال، بل «ذلك الشيء الذي أحس أحيانًا ومضة منه في نفسي»...

نزل كالطيف إلى حجرة ألكسندرا في فجر الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١٠ فطرق باب ابنته في رفق فأيقظها وأفضى إليها بعزمه، وطلب معونها في حزم متاعه؛ ولقد وصفت ابنته ذلك فيما بعد في قولها «لن أنسى قط ظهوره لدى الباب في ملابسه القروية وفي يده شمعة أضاءت وجهه الهادئ الجميل الذي يملأه العزم والثبات».

وتسلل بنفسه إلى حظيرة الخيل فأيقظ أحد السائسين وسائق العربة؛ وتعثر في الظلام فوقع وفقد قبعته ولم يجدها وعاد إلى البيت يطلب غيرها، ثم ارتد مسجلًا إلى الحظيرة يستحث السائق ورجو منه ألا يحدث صوتًا.

وفرغت ابنته وإحدى صديقاتها في الخامسة من إعداد متاعه؛ ومشى إلى العربة «يضغط على زر مصباح الكهربائي تارة ويدعه فينطفئ تارة»، كما قالت ألكسندرا، ويتحدث في همس، حتى ركب العربة ومعه طبيبه، وارتدت الفتاتان إلى البيت...

وترك كتابًا لامرأته كان مما قال فيه «أعلم أن فراري سيحزنك وإني لآسف ولكني أرجو منك أن تصدق وأن تفهي أني لم أكن أملك غير ذلك. وفضلًا عن كل

شيء آخر لم أكن لأستطيع أن أحيا في ذلك الترف الذي كان يحيط بي حتى اليوم... إني أهرب من الدنيا لأقضي أيامي الأخيرة في هدوء وعزلة.. إني أشكرك على تلك الأعوام الثمانية والأربعين التي عشتها في شرف معي، وأرجو منك أن تغفري لي ما عسى أن ألام عليه نحوك، كما أغفر لك من أعماق نفسي كل ما عسي أن تلامي عليه. إذا أردت أن تكتبي إلى، فإن ذلك يكون عن طريق ألكسندرا، لأنها وحدها سوف تعلم مكاني ولن تدلك عليه لأنها وعدتني ألا تقل أحدًا».

ووقف وطبيبه بالمحطة ساعة ينتظران القطار، وكان قلقًا مخافة أن تدركه امرأته؛ ولكنها لم تعلم فراره إلا في الساعة الحادية عشرة؛ ومضي بهما القطار، وكانت عربته مزدحمة فاسدة الهواء من الطباق ومن زفير الراكبين، فكان يخرج تولستوى إلى حيث يقف لحظات في الهواء الطلق، فأحس رعدة. في بدنه بسبب ذلك.

إلى أين؟ ليس يدري.... ولكنه أراد أن يزور أخته ماري وكانت تقيم مع ابنها في دير شاموردين؛ فنزل وصاحبه في أقرب محطة إلى ذلك المكان، وكان ذلك في الساعة الخامسة مساء؛ وأقلتها عربة استأجراها إلى مكان الضيافة الملحق بالدير، وكان المطر ينهمر فلقي من ذلك نصبًا شديدًا..

وأرسل تولستوي إلى ابنته لتوافيه بالأنباء، كما أرسل إلى شيرتكوف ليذيع في الصحف أنه لم يبع قط حق نشر كتبه، وأنه لم يحمل لأحد ما الحق في هذا البيع...

وفي اليوم التالي جاءه كتاب من شيرتكوف يعبر له فيه عن عظيم سروره بفعلته، فلا بد له من الهدوء الروحي واختتمه بقوله «إني على يقين أن عملك هذا سوف يجعل كل شيء خيرًا مما كان وبخاصة للسكينة صوفيا أندريفنا مهما بلغ عندها من رد خارجي لهذا الفعل».

وفي الثلاثين من أكتوبر بينما كان تولستوى يزور أخته في الدير، إذ جاءته ألكسندرا، تحمل إليه كتابين أحدهما من ابنه سيرجي والثاني من ابنته تانيا يتوسلان إليه فيهما أن يعود، كما تحمل إليه أنباء أمها...

ثارت المسكينة ثورة عنيفة حين علت بفرار زوجها وألقت بنفسها في البركة، فأسرعت ألكسندرا وأخرجتها منها بمعونة أحد الضيوف من أتباع أبيها؛ ولكنها عادت مرة ثانية في غفلة من ابنتها وألقت بنفسها في الماء، فأخرجها هذا الضيف وبعض الخدم وعادوا بها على رغمها إلى البيت وهي تبكي وتهذي وتهدد وتتوعد؛ ولا أحاطها أفراد الأسرة بالرقابة، قالت إنها سوف تثب من النافذة وسوف تبحث عن زوجها، وسوف تجده وتعود به إلى بيته؛ ثم أخذت تضرب صدرها بكل ما تقع عليه يدها وكلما انتزعوا منها شيئًا أخذت غيره وهي تصرخ مجنونة لا تهدأ؛ ثم أرقت إلى زوجها باسم ابنته ألكسندرا ليعود؛ وأرسلت في اليوم التالي تستدعى شيرتكوف ولما لم يحضر، أبرقت ثانية إلى زوجها تقول إنها أزالت ما بينها وبين شيرتكوف وأنها تموت وترجو منه أن يعود ليراها. وفي نفس الوقت أفضت إلى رجال الصحافة بقولها إن زوجها ما فر إلا ابتغاء الإعلان عن نفسه!

ورد تولستوى ردًا جميلًا على ابنته تانيا وعلى ابنه سيرجيچي وشكر لهما عطفهما وصداقتهما؛ ولكنه أصر على فراره؛ وتلقى كتاب من زوجته تتوسل إليه فيه أن يعود وتدعوه عزيزها وحبيبها، وتعده أن تدع الترف وتعيش كما يحب وتتخذ أصدقاءه أصدقاء لها واختتمته بقولها «عد إلى إذا لم يكن ذلك إلا لتسمعني كلة وداع قبل افتراقنا الذي لا محيص عنه».

ورد عليها بكتاب طويل كان مما جاء فيه قوله « إنك وحدك التي تستطيعين أن تنقذيني وتنقذي كل من حولك وبخاصة نفسك، مما تقاسين.. لا تظني أني فررت لأني لا أحبك... إني أحبك وأرثي لك من أعماق قلبي، ولكني لم أملك غير ما فعلت، ولقد كتبت كتابك مخلصة كما أحس ولكنك غير خليفة بأن تفعلي ما تقولين... وداعًا يا سونيا، يا عزيزتي، كان الله لك... ليست الحياة مزحة، وليس لنا من حق أن نلقي بها حسب أهوائنا... ومن الخطأ أن نقيسها بعدد الأيام، وربما كان ما بقى لنا من أشهر أعظم أهمية من جميع ما عشنا من سنين، ويجب أن نحيا كما ينبغي».

في الساعة الرابعة من صباح الحادي والثلاثين من أكتوبر، أيقظ تولستوى ابنته،

وطبيبه ليرحلوا من فورهم مخافة أن تدركه زوجته، واتجهوا صوب المحطة؛ وكان قد وعد أخته بزيارة ثانية فترك لها كتاب اعتذار رقيق...

إلى أين؟ لا يزال في حيرة من أمره... إلى القوقاز أو إلى بلغاريا أو إلى أي جهة لا يعرفه فيها أحد حسبه أن يفرغ من الدنيا بقية أيامه ليتصل بالله ... ومضي بهم القطار وهم يقصدون رستوف، وهو يظن أن لم يعلم بقراره أحد، ولكن صحف روسيا جميعًا قد أذاعت نبأ هجرته..

وعرفه في القطار أحد الناس على الرغم من حيطته، واجتمع حوله عدد كبير من المسافرين يريدون رؤيته، وكان أحد رجال الشرطة السرية يتعقبه منذ سافر من شاموردين، ولكم دخل عليه عربة القطار ومر به ومن معه متنكرًا كل مرة في زي مختلف.

وفي اليوم الأول من نوفمبر لاحظ طبيبه أنه يرتعد، وقاس حرارته فإذا هي مرتفعة، وإذا بنبضات قلبه تتزايد، ولذلك صصم الطبيب على أن يغادروا القطار فنزلوا في محطة أستايوفو وهي قرية على خمسين ميلًا من ياسنايا.

وأين يتخذ مأواه؟ حار الطبيب فذهب إلى ناظر المحطة فرض عليه أن يأوي الكاتب العظيم في إحدى حجرات بيته الصغير، وكان يتكون من حجرة عمله الرسمي وحجرتين لسكناه؛ وحل تولستوي بإحداها وهي حجرة صغيرة يضيئها مصباح من مصابيح النفط؛ ووضع على سرير صغير من الحديد، ولا ريب أنه ارتاح إلى هذا الأوي الذي يشاكل ما يريد من بعد عن الترف؛ وكان آخر من رأى من أهل روسيا أولئك الذين تجمعوا على طوار الحملة لرؤيته والذين حياهم

مبتسمًا وهو يكاد يسقط فاقد الوعي.

وأعان ماكوفتسكي طبيب القرية وتبين لها أنه مصاب بالتهاب الرئتين، ورأيا في بصاقه بعض الدم وقد اشتد به السعال... ثم غاب عنه وعيه...

ولما عاد يعي سأل «أنستطيع أن نستأنف السفر؟» ثم أخذته في المساء غيبوبة

مخيفة، ولما أفاق منها عاد يقول «يجب أن نرحل.. يجب أن نرحل.. إنهم سوف يدركوننا»..

ودعا ابنته ألكسندرا وطلب إليها أن تبرق لشيرتكوف كي يحضر: ثم أملي عليها كلمة لابنته تانيا وابنه سيرجي تعطى لها بعد موته وفيها اعتذر إليهما لأنه لم يدعها ففي دعوته إياهما وحدها إساءة إلى أمهما وإلى بقية الأسرة. ثم اختتمها بنصيحة لابنه فقال «ينبغي أن تنظر في حياتك، من أنت، وما أنت، وما معنى الحياة الإنسانية وكيف يجب أن يقضيها الرجل العاقل»..

وسرعان ما حضرت الكونت حين علمت مكانه كما حضر أفراد الأسرة؛ وحضر شيرتكوف وأدخل على تولستوى هو وتانيا وسيرجي فحسب...

وغدت أستابوفو متجه قلوب الملايين في روسيا وفي أوربا وأمريكا؛ وقد أسرع إليها عدد كبير من رجال الصحافة والمصورين ورجال السينما؛ وصارت ترسل منها البرقيات تباعًا عن حال المريض إلى صحف العالم كلها. وقد بلغ ما أرسل من هذه المحطة الصغيرة في سبعة أيام اثنين وثمانين وألف برقية...

وحل بها كذلك عدد كبير من أتباعه وجمهور من الكتاب؛ وشخص إليها بنفسه حاكم المقاطعة، ورسول من قبل وزير الداخلية وعدد من كبار رجال السكة الحديد كما أرسل القيصر عددًا من الجند مسلحين ببنادقهم؛ وكان ينام القادمون في عربات القطر التي أقلتهم...

وهكذا لم يقض تولستوي أواخر أيامه كما شاء في عزلة وإنما قضاها والدنيا كلها تتجه إليه وإن لم يدر ما كان يحيط بحجرته المتواضعة في هذه القرية الصغيرة التي ذاع اسمها في العالم...

وأحاط بالكاتب العظيم ستة من الأطباء، وكان يتناوب شيرنكوف وألكسندرا وتانيا وسيرجي السهر إلى جانب سريره؛ أما الكونتس فظلت في عربة القطار تبكي وتحاول أن تقرب من نافذة الحجرة تارة وتدعو المصورين ليصوروها كما لو كانت

خارجة من الحجرة تارة أخرى كي لا يعلم الناس أنها لم تدخل على زوجها؛ ولم يكن يعلم زوجها بمجيئها فقد حرصت ألكسندرا ألا تخبره ولقد قال لها ذات مرة «إنك تفطنين إلى أني لا أستطيع رفض دخولها على إذا حضرت، ولكن رؤيتي إياها شديدة الخطر على»...

وأرسل كبير القساوسة إليه برقية يدعوه فيها أن يعود إلى الكنيسة الأرثوذكسية كما أوفد المجمع المقدس قسيس أحد الأديرة ليكون على مقربة منه، ولكن ألكسندرا رفضت أن تطلعه على شيء من هذا..

وكانت السلطات الدينية والمدنية تحار في أمر دفنه إذا مات ولم يتب، ويثقل عليها دفنه بغير صلوات، وإن كانت لا تستطيع غير ذلك...

وفي الرابع من نوفمبر اشتد عليه المرض، وصاح في غيبوبته قائلًا «ولكن الفلاحون.. كيف يموت الفلاحون؟»، ولم يجد الكافور ولا الكافيين ولا الكودين ولا المرفيا، مما كان يعطيه إياه الأطباء ومن بينهم إخصائيان حضرا من موسكو...

وفي الخامس أظهر رثاءه لامرأته وقال لمن حوله إنهم لم يسلكوا نحوها المسالك الصحيح...

وجلس بعد الظهر في سريره وصاح قائلًا «هذه هي النهاية... إني أنصح لكم نصيحة... إن في هذه الدنيا كثيرين غير ليو تولستوى ولكنكم تهتمون بليو هذا وحده، وفي منتصف الليل، صاح: «الهرب... الهرب...».

وفي السابع من نوفمبر ضعف نبضه ضعفًا شديدًا؛ وأدخلت عليه زوجته في الرابعة صباحًا فجثت إلى جانب سريره وأخذت يده قبلتها ثم همست قائلة «أعف عني» ولكنه لم يشعر بوجودها إذ كان في غيبوبة تامة ولو أنه تنهد تنهدة عميقة...

وفي الساعة السادسة من ذلك الصباح أبرق المراسلون إلى صحف العالم أن ليو تولستوى قد مات! ودخل المصورون خاشعين فصوروا آخر صورة له ولكنهم صوروا بدنا من غير روح...

وحمل جثمانه إلى ياسنايا، بعد يومين ومنع المجمع المقدس الصلوات؛ ولكن روسيا كلها كانت مأتمًا يوم دفنه فالمسارح مغلقة وطلاب الجامعات خارج جامعاتهم والصحف كلها مجللة بالسواد؛ وقد أرسل القيصر والدوما ومجلس الدولة إلى أسرته يعزون في فقده؛ وتلقت روسيا عن فقده العزاء من دول العالم شرقه وغربه .

وسافر إلى ياسنايا ألوف عديدة من الطلبة والأحرار ورجال القلم وذلك على الرغم من أن وزير الداخلية منع القطر الخاصة، وكان موكب الجنازة خلف نعشه وقد حمله أبناؤه الأربعة يمتد إلى أكثر من ميل... وهناك حيث دفن ذلك الغصن الأخضر الذي نقش عليه أخوه نيقولا ذلك السر الذي حدثه عنه وهو في السادسة من عمره أنه يجلب السعادة والأخوة للناس جميعًا... هناك في تلك البقعة التي غدت حبيبة إلى نفسه منذ حديث أخيه قبل ستة وسبعين عامً ، أهيل التراب على أعظم كاتب أنجبته روسيا وأحد العباقرة الأفذاذ في هذه الدنيا...

رقد تولستوى في هذه البقعة الصغيرة، وقد شرق اسمه في الدنيا وغرب، فهل عرف من لغز الحياة أكثر مما عرف غداة حدثه أخوه عن غصنه الأخضر؟!

# الفهرس